خالد محمد خالد
من العلماء

لكي لا تحرثوا في البحر

« اعرفوا الحق ، ثم اتبعوه »
« وسيجعلكم الحق أحرارا . »

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد
القاهرة

مارس ١٩٥٥

خالد محمد خالد
من العلماء

لكي لا تحرثوا في البحر

" اعرفوا الحق ، ثم اتبعوه " .
" وسيجعلكم الحق أحرارًا " . .

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد
القاهرة

مارس ١٩٥٥

مطبعة مخيمر
٢٩ شارع الجيش ت ٤٧١٩٣

الإهداء

إلى الرجل الذي كان لي أستاذاً قبل أن يكون أباً . . .
من علمتني شمائله القوية . أن الواجب أبقى من المنفعة
وما دام هذا . أول كتاب يصدر بعد رحيله . .
فأذنوا لي . أن أقدمه لروحه وذكراه . .
في خشوع وتقوى !

فصول الكتاب

مقدمة

أريد أن أعرف :

وقف إنسان فوق قمة جبل « ولسن » بكاليفورنيا أمام أكبر منظار في العالم ، ليرى عجائب السموات ، ويبصر السدم والشموس والكواكب التي تملأ رحاب الفضاء . .

وبعد أن بصر بمالا عين رأت ، واستشرف من وراء زجاج المنظار مالا يخطر بقلب بشر . . ، قال لرفيقه والرهبة تملأ روعه :

— أعتقد أنه من العسير علينا أن نرى النهاية . . . ؟

فأجابه :

— نعم ، لأنه ليس هناك نهاية . . ! !

ولقد رأيتنى أقف ونفسى هذا الموقف عندما زاملت النفس البشرية في رحلة سريعة . نفسى . . . ، ونفسك . . . ، وأنفس الآخرين . .

وانبعث في روعى همهمة سؤال متردد يقول :

— أعتقد أنه من العسير علينا أن نبصر النهاية . .

وفى أعقابها رنت إجابة حاسمة :

— نعم ، لأنه ليس ثمة نهاية . . !

إن أنفسنا التى بين جنوبنا أكوان أخر . تعج بالخوافى والأسرار . . ولقد نتسمع أصداء أجرامها الهادرة ، ونلمح بريق غازاتها المتوهجة . . بيد أن ذلك لايعنى أننا عرفنا السكون العجيب وكشفناه . ؟ فلا يزال

مبلغ جهد العقل تجاهه أنه واقف على أبوابه يقرعها . . .

ولقد عرفت بعد ، كنة الومضة العلوية التى التمعت فى القلوب الذكية لأنبياء الصين وحكمائها الأقدمين فقالوا كلمتهم المضيئة الجامعة : — « من عرف كل شىء . . ، غفر كل شىء » . . ! !

أولئك قوم وضعوا بصائرهم على المظار ساعة من نهار . ؟ فوجدوا الحقيقة التى أهلتهم لأن يتحدثوا عن الإنسان ، ويتحدثوا إلى الإنسان . .

وكذلك عرفت بعد ، لماذا تذهب صرخات الداعين إلى الفضيلة فى بلادنا مع الريح . .

ذلك أنهم ينادون الناس من مكان بعيد . . ويتراءى لهم أنهم يخاطبون دمى خشبية لا أناساً يمورون مورا بانفعالات وجودهم والحيـــاة . .

أجل .. ماذا نعرف عن اللغز الذى نحمله ، ونسميه نفسا . . ؟ ؟

وماذا نعرف عن الوعاء الذى نعيش داخله ، ونسميه مجتمعا . . ؟ ؟

ماذا يعرف أهل الفضيلة عن الرذيلة . . ؟

وماذا يعرف أهل الرذيلة عن الفضيلة . . . ؟

وكما قال شاعر الإنجليز « كبلنج » :

— ماذا يعرف عن أفلاطون ، من لا يعرف غير أفلاطون .. ؟؟ !!

أريد أن أعرف . .

هذا هو الهتاف المجلجل الذى كان يقرع فى نفس يسوع ، وهو هائم على روابى الجليل . .

وفى نفس محمد ، وهو ثاو فى غار حراء . .

وفى وعى بوذا ، وهو يتواثب وراء الحقيقة بين سهول الهند ونجودها . .

وإذا ذهبت تفتى الناس قبل أن تعرف ؛ فقد ظلمتهم ولو كنت مصيبا . .

وإذا أفتيتهم بعد أن تعرف ؛ فقد أنصفتهم ولو كنت مخطئا . .

فهل عرف الآمرون بالفضيلة — فى بلادنا — شيئا عن قساوة الفضيلة . . ؟

وهل عرف الناهون عن الرذيلة — فى بلادنا — شيئا عن ضراوة الرذيلة . . ؟

وقبل هذا وذاك . ، هل عرفوا المفاهيم الصحيحة والصادقة للفضيلة وللرذيلة . . ؟ ؟

الحق أن مسافة الخلف بعيدة جداً بين الآمرين بالمعروف والعازفين عن المعروف . . بين الناهين عن الشرّ ، والوالغين فى الشر . .

وحتى يقوم بين الفريقين جسر من المعرفة الحقة والأدراك السليم سيظل المعروف فى ديارنا غريب الوجه واليد واللسان . . !

ذلك أن النتائج الموضوعية التى نحصل عليها من تجارب واقعنا وخبراته هى وحدها التي تهبنا الثقة بما نختطه من مناهج ، ومانتتهى إليه من أحكام . .

وقد قال حكيم صينى : « من غير الحكمة أن يكوّن الانسان حكما لم تساهم التجربة فى تكوينه . ، وإذا ركن إنسان لحكم أنجبته الصادفة ؛ فمعناه أنه قد ضلّ سواء السبيل . » . .

وإذن ، فلكى نتمكن من تطوير سلوكنا وتعليته يجب أن نملك قبل البدء فى العمل معرفة وثيقة .

أما نظرتنا الماثلة للأخلاق ، هذه التى ورثناها عن أجيال أدمنت الإيمان بالغيب ، ووضعت حياة الناس وسلوكهم داخل إطار لاهوتى جامد ، وامتهنت التجربة الانسانية ، والمعرفة العقلية ؛ فلم تصغ لرأيهما فى المشكلة — فهى نظرة غير سديدة بقدر ما هى غير مجدية . .

من أجل ذلك تخبطنا كثيراً ولا نزال ، ولم نعرف كيف نعمل . لأننا قبل هذا لم نعرف كيف نعرف . . .

اذكروا هذا جيداً . .

إن المعرفة الكاملة الناجحة ، هي سبيل العاملين لكى يظفروا بعمل كامل ناجح .

والبرهان المبين على أن معرفتنا بمشكلة الأخلاق فى بلادنا ناقصة وداكنة — هو أن جهادنا المبذول فى هذا السبيل ضائع وذاهب مع الريح . .

فبقدر ما نشاهد كدح الغيورين على الفضيلة والداعين لأن تقوم فى ضمائر الناس مقام القانون . . بقدر مانشهد أيضا إخفاقهم الوصول ، وخيبة أملهم المتساوقة . . ! !

أفليس ذلك جديراً بلفت أنظارنا ، وحث انتباهنا . . ؟

بلى . . ولقد كان هذا الأمر على رأس الحوافز التى ألهمت الكتاب تفكيره ، وهدت إلى الحقيقة خطاه . .

لقد وجدت أننا فى هـذه المشكلة كما فى غيرها من المشاكل نعمل بغير دليل . .

وإذن فنقطة البدءأن نجد دليلا للعمل . .

والدليل ، ماذا يكون . . ؟

إنه المعرفة . . المعرفة التى تتـكوّن من فحص الواقع الإنسانى فحصاً بصيراً نافذا .

أما الاكتفاء بمشاعرنا الذاتية ، والاهتداء بانفعالاتنا العارضة ، وتقليدنا الضرير لآراء لاندرى كيف تكوّنت . فأسباب لا تمنحنا الدليل لعمل ناجح أو إصلاح ناجع . .

إنما يمنحنا ذلك ، التتبع اليقظ لنتائج النشاط الحىّ للفرد والمجتمع وللتاريخ . .

فمن خلال التحامنا بالأشياء،واتصالنا بالأحياء تنبثق إمكانية استشراف الحقيقة وكشف المعرفة .

وإذا ماسئلت : أينبغي على المصلحين أن يتمرّسوا بالرذائل كالسرقة، والغش وهتك العرض مثلا ، لكى يستطيعوا أن يعرفوها ثم يرسموا طريق الخلاص منها . . ؟ ؟

أجيب قائلا :

إن الأمر لا يتطلب ذلك إذا كنا سنختبر رذائل تقرر وضعها الاجتماعى . عن طريق التجربة الطويلة للأنسان .

بيد أن الأمر يتطلب التجربة غير المباشرة ، أعنى الاندماج فى الواقع

وجعله موضع البحث والفحص والتفكير ، إذا أردنا أن نكشف عوامل انتعاش الرذائل ، وأسرار سيطرتها على النفس وتحكمها فى السلوك . وحين يلزمنا تعقب جراثيمها القاتلة للقضاء عليها . . هنا تهيب بنا الحكمة القائلة : « لكى تصيد أشبال النمر ، لابد من أن تنفذ إلى عرينه » . ! والوصول إلى العرين لايكلفك أن تنقلب نمراً . .

فليس من الضرورى إذن لكى تصل إلى تفسير صحيح ووثيق لبواعث الرذيلة أن تمارسها ، وإن كان لابد من السير فى دروبها ، ودراسة أصحابها ، وكشف الغطاء عن السلوك المقنع الذى يخفى وراء وداعة الحمل ، شراسة الوحش . .

ومن النقص الوبيل فى بلاد تدير الأخلاق بالمواعظ ، ألا يوجد أقوام يفعلون هذا . . يدرسون سلوك الانسان فى الانسان ، ويمشون فى مناكب المجتمع ، ليعرفوا مأتى الانطباعات الرديئة والانعكاسات الشرّيرة التى يتركها فى أفراده . ، ويندمجون فى فطنة وذكاء بواقع الحياة ليوائموا بين الناس وبينها مواءمة تهدى إلى الفضيلة والمعرفة .. الأمر الذى حاول كتابنا هذا أن يفعله متمما جهد سلفه « هذا . . أو الطوفان »

لقد نفذ إلى أعماق المشكلة الحية . . ولم يدرس الناس فى الكتب . بل فى أنفسهم ، وفى شهواتهم . ما يسرون منها وما يعلنون . والتقى بهم عند المنبع الذى يصب فيهم ، ويصوغ نماذجهم ، واستكنة جاهدا بواطن الذين استهواهم الشرّ فساروا فى موكبه نشاوى ثملين . . . وقبل أن يسير فى الطريق ، ويسبر غور الدرب المجهول كان مبلغ وعيه بالمأساة أنه يجهلها ..؛ أما الآن فأنه يعرفها . . كان يسمع بها . ، أما الآن فقد رآها . .

كان يتلمظ مع الأتقياء العاجزين بـ « لا حول ولا قوة إلا بالله » أما الآن ، فهو يحمل مشعلا ينير الطريق . ويسلب محترفى الغيرة على الفضيلة تظاهرهم الأجوف . ويدعو جميع المناضلين ضد الـكذب والبهتان ، وضد الرذيلة والشرّ ليضربوا بسواعدهم البارة فى أرض المعرفة والخير والجمال . .

ولقد سألنى كثيرون من القراء فى رسائل ودودة تلقيتها منهم بعد ظهور كتابنا السابق عما إذا كان سر اختيارى لعنوانه « هذا . . أو الطوفان » هو مجرد الرغبة فى الأثارة وشدّ زناد الانتباه . أم أنا أعنى بالفعل مدلول هذا العنوان الخطير . . ؟

والحق أقول لأصدقائى هؤلاء : إن المفهوم القوى والمتزن والمحدد لهذا العنوان هو الذى جعلنى أوثر اختياره . ولقد أفاء علينا اختبارنا الوثيق للمشكلة التى نعالجها ، بصيرة بالمصير الذى يسوقنا إليه تجاهلنا القيم الصحيحة للحياة ، وإدعاننا الضارى للغو الخرافة وضغط التقاليد . . وهو مصير أخطر من الطوفان . . ! !

إن الطوفان الهادر على ظهر الأرض ، والمتبدى أمام العيون ، قد يجد مقاومة تقف سـعيه أو تعتاق زحفه . . أما ذلك السيل الذى يجرى فى جوف الأرض خلسة . . ذلك الذى لا تقع عليه العين ، ومن ثم فلا تتقى أخطاره ؛ فهو الذى يحمل نعىَ كل مكان يمرّ به .

ألا وإن رذائل هذا المجتمع لمن ذلك الطراز الوبيل . إنها من حيث الـكم ومن حيث النوع ، لا تـكاد تجذب الانتباه فضلا عن أن تهيب بأرادة المقاومة ، إنها تسبح وتسرح فى استخفاء كالسيول الجوفية . تأكل

مناعة الأرض من قواعدها ، وتمتص ثباتها ورسوخها ، حتى إذا جاء ميقاتها المعلوم ، ألفيتها تميد على حين غفلة . . فتترنح وتهوي ، وتنادى الذين فوقهـا فيلبون النداء نداء الأغوار التى خسفت ، ثم أغرقت ثم بادت . .

إن هذا الـكتاب يجىء فى أوانه ليأخذ انتباه قومه إلى قضية جليلة لم يتعودوا أن يتحدثوا عنها إلا تفـكها ، أو تبذخا ، أو رثاءَ الناس . .

ولقد مرّ بكم منذ عام (هذا . . أو الطوفان) واليوم يأتيكم تتمة البحث فى هذا الـكتاب .

ولست أنصح أحداً بأن يقرأ أحدهما ويدع الآخر . ؛ فان فعل ، فسيظل إدراكه لوجهة النظر المبسوطة فى كلا الـكتابين إدراكا مبتوراً .

وأيضا ، لا أنصح أحداً بأن يتواثب بين الصفحات ، ويختطف الـكلمات اختطاف العجلان . .

وكما قلت لـكم فى مقدمة الجزء الأول ، أقول لـكم هنا أيضا . . اقرءوه كله ، أو اتركوه كله . ومن لم يفعل ؛ فلست أحمل معه مسئولية الأحكام المبتسرة التى تجهضها القراءة الناقصة .

لقد عنى الـكتاب السالف ، بأرجاع الانسان إلى مكانه . داعيا إلى فحص سلوكه بوصفه إنسانا ، لا إلها . . وناصحا بأن نعتمد فى تعلية نزعاته وتقويم شخصيته على طبيعته الحرة ، لا المصفدة ، وكاشفا عن المضلات الرهيبة التى أحالت حياتنا إلى فتنة غامضة ، ومضطرب خافت الحيلة ، مزعج الحوار . .

وهنا نستأنف رحلتنا ، ونترك على هذه الصفحات كلمتنا الوثقى فيما

ينبغى أن نلتزمه من نهج إذا أردنا أن نمكن الآخرين من فضيلة نامية وسلوك قويم ونرجو أن تفرغ لمساته الواقعية نوراً وهدى على المشكلة التي يعالجها ، والتى يناط بها مصير الناس حيث يوجدون .

وماذا هناك أيضا لأقوله لكم قبل أن أغادر هذه المقدمة . ؟

عبارة أخيرة . ؟ فخذوها مشكورين . .

إن هذا البحث لايزعم أنه قطف نجوم السماء . . ولكنه يرجو بما أبلى من جهد ، وما استوزرى من بينة أن يكون مشعلا فوق الظلمات الخانقة . ظلمات المجتمع الذى يقتات بالكذب والنفاق والعجز ؛ فمن كان معه كلمة تزيد المشعل ضوءاً فليقلها ولو كانت مضادة ومغايرة . . ، ومن كان معه مشعل آخر فليرفعه فوق الظلمة . .

فلست أعرف سبيلا أهدى من هذه لنعرف كل الحقيقة وكل البهتان .

خالد

الديمقراطية ، ضرورة خلقية

« الحكومة المستبدة ،
« أخطر على روح الإنسان
« من الوحش المفترس . . »
ـ كنفوشيوس ـ

في هذا الفصل

بلاد السمع والطاعة

في هذه الرقعة من الأرض — مصر وما حولها — تستلقي شعوب مرت بها مواكب الغزاة والفاتحين .. ثم ولت عنها تاركة فيها بصمات أصابعها ، وآثار أقدامها .. أو قل : آثار سياطها ..

وكما أنك قادر إذا اهتديت إلى مفتاح الدار أن تفض مغاليقها ، وتجوس خلالها ، وتكتشف محتوياتها ؛ فكذلك الشعب — أي شعب — تستطيع إذا اهتديت إلى مفتاح شخصيته أن تفض مغاليق حياته ، وتبلو أخباره ، وتستبطن أسراره وبعبارة واحدة ، تستطيع أن تكتشف هذا الشعب ...

أمن اليسير على كاتب بالغاً ما بلغ من الفطنة ، وما جمع من البينات أن يحقق وحده الغاية ، ويجد المفتاح .. ؟ ؟

أحسب ذلك ممكنا لك ولغيرك ، إذا كنت من الذين أوتوا موهبة الاخلاص العقلي .. الذين يمضون مع الحقيقة إلى حيث تقودهم دون تردد .. ، ثم يعلنونها للناس في غير تهيب .. وبعدئذ يتحتم عليك أن تتجه شطر الشعب الذي تزمع استكناه حقيقته وتبلوه كجماعة . ثم تحسن اختيار خليق من نماذجه بحيث تمثل هذه النماذج إلى حدّ ممكن . جميع خصائص الشعب ، ورواسب شخصيته ، وتحاول جاهدا أن تلمس الصخرة التي في القاع . وتسبر الأغوار الموغلة في البعد ، وتقرأ التاريخ لتبصر السمات الحقة لخصائل الجماعة وسلوكها ..

ولو أننا فعلنا ذلك بالنسبة لبلادنا وأمتنا ..

لو أننا حاولنا رؤية القاع ، واكتشاف المفتاح الذى يفض لنا مغاليق شخصيتنا كجماعة وكأمة ،لوجدناه يتلخص فى كلمتين : «السمع والطاعة» ..

فإذا ما سئلت ، مصريا كنت ، أم عراقيا ، أم يمنيا ، أم حجازيا ، من أى بلاد الله أنت — ؟ ؛ فلا تجهد قريحتك فى التذكر . وأجب من فورك :

— « محسوبكم » من بلاد السمع والطاعة . . ! !

فالسمع والطاعة هما القدر الذى يتعبدنا ويصوغ كل تصرفاتنا ، ويحدد نوع حياتنا وسلوكنا .

ولا يزال سلطان الكلمة المنحدرة من أعلى متفوقا على كل سلطان . وفى غمرة إذعاننا لها ، وانبهارنا بها نتخلى فى غيبوبة ممتعة عن زمام أنفسنا وعن كل ما امتلكه الإنسان عبر تطوره المديد من عزم ، ورشد، واختيار . .

وقبل أن أسترسل معكم فى هذا الحديث دعونى أتل عليكم نبأ مصور « بروميتوس » . .

فقد ذكروا أن مصورا إغريقيا شهيرا اتخذ أحد عبدانه نموذجا حيا ليصور « بروميتوس » الأله اليوناني الذى عذّبه « زيس » كبير الآلهة . . وأراد الفنان العبقرى أن يرسم العذاب ، وكأنه يلتقط بعدسة لاقطة مشهده الحقيقى . بل أراد أن يجعل لوحته المرسومة وكأنها المشهد الواقعى ، والحادثة ذاتها صورته المنقولة ، ورسمه المتخيل . . فأنزل بعبده عذابا وبيلا ، ومدد جسده العريان فوق حديد مستعر ، تماماً كما تصور الأسطورة فعل كبير الآلهة بغريمه « بروميتوس » . .

واستطار نبأ ذلك العمل الوحشى بين صفوف الشعب فاهتاج ، ونادى بالقصاص . وولت جموعه الزاحفة شطر متحف الفنان القاسى . .

وهناك تحت نوافذه المرتجفة من هول صراخ الحانقين . زأر الجمهور كالأعصار : الموت للجلاد . .

وفى ثبات العارفين بمشاعر الجماهير تقدم المصور من نافذته وأطل على الناس وبين يديه اللوحة التى رسمها تنتفض حياة ، وفتنة ، وتعبيرا . .

أتدرون ماذا حدث . . ؟ ؟

تحولت الجماهير الغاضبة الباسرة المائجة إلى مهرجان تهزه الحماسة والأعجاب والنشوة . .

وهكذا أنسيت القصاص الذى جاءت تدعو له ، والحق الذى كانت تهتف به ، وانطلقت من بين شفاهها الغبية صيحات الأعجاب تسبح بحمد الفنان العبقرى الموهوب . . ! ! !

أسمعكم تتساءلون : ما علاقة هذه الأسطورة بموضوعنا . . ؟

وأنا مثلكم أتساءل . .

فلنرجىء الأجابة قليلا ، ولنعد لموضوعنا . .

كنا نقول ، إن السمع الطاعة هما السمت المميز لشخصيتنا ، وهما القدر المهيمن على مصايرنا ، والمحدد لنوع سلوكنا ، فالغزاة الذين مروا بنا ، وثوى حكمهم المطلق طويلا بيننا ، لم يتركوا لإرادتنا حق التمرس والتدريب بل ربطوها بمشيئتهم ، وطوّعوها لكلمتهم ، وساموها كل ما كان فى جعبهم من خسف وهوان .

وكأى من دخيل محتلّ ، وحاكم مذل جعل من ظهور قومنا مرعى

لسياطه المسعورة وكان ، كلما تنادّوا ليدافعوا بغيه يتقدم إليهم وبين يديه لوحة تفتنهم وتنسيهم . .

لوحة تتمثل فى هرم باذخ يشيده ويبنيه ، أو طريق لاحب يمهده ويرسيه ، أو مصارف يشقها ، أو ظفر رخيص فى حرب عدوانية يشنها .

وأحيانا ، كانت اللوحة جنة يمد بها المؤمنين . فيها أنهار من لبن وعسل وخمر . أعدّت لكل أشعث أغبر مستسلم مظلوم . . ! !

أعرفتم العلاقة — إذن — بين أسطورة المصور وبين مأساتنا . . ؟ ؟

ذات يوم أعلن حاكم مجنون أنه صار للناس إلها . ، فذهب آلاف من أبنائنا الطيبين إلى قصره يعلنون أنهم سمعوا ، وأطاعوا . . .

ولقد اختفى من على الأرض الحكام الذين يدعون الألوهية ولكن لا يزال هناك حكام يدعون العصمة . ويشعرون بها فى ذات أنفسهم شعورا ينسيهم كل ما للآخرين من حقوق ومن ثمّ فهم يطالبون الناس بأذعان مطلق لأهوائهم وما يفعلون . . .

ولقد ران على الوعى الناشىء بجماهيرنا هذا الطراز من الحكام ، وران عليه ماهو أثقل وطأة وأشد بطشاً . . المعاليم والتقاليد . . وهكذا خلقت الأحداث العارمة الدخيلة على حياته . . خلقت عدداً فى شخصيته تفرز الأذعان والاستسلام . تفرز السمع والطاعة . . ! !

وإنا لنظلم أنفسنا ، وننقص التاريخ من أطرافه . إذا زعمنا أننا وحيدون فى هذا المجال .

فالمجتمع الانسانى كله سار عبر هذه الطريق . وكان السمع والطاعة شرعته ومنهاجه . . ولعل اختراع الانسان للديمقراطية لم يكن إلا ثمرة

حاجته الملحة للتخلص من هذه المهانة وذاك العجز ، وفى سبيل استنقاذ وجوده وتأمين مستقبله ابتدع النظام الذى يرد للجماعة اعتبارها ويرفع عنها آصار السمع والطاعة ، ويبعث فى ضمير المجتمع إحساسه بالكرامة ذلك الأحساس الذى تنبثق منه كل فضائل الانسان ومزاياه .

كل مجتمع إنسانى مر إذن بهذا الدور . دور السخرة المضروبة عليه من أناس أذكياء كانوا ينزلون أوامرهم ويبثون زواجرهم فى كوكبة من النذر والتهاويل ؛ فيتلقاها العبيد سجدا وهم صاغرون . . ؟!

وبمقدار الآثار الباقية فى معاصم الأمم والجماعات من قيود ذلك الوضع الدابر يتحدد نصيب كل من الحضارة والارتقاء .

فعلى ظهر الأرض اليوم أمم انمحى من على معاصمها كل أثر للقيد الرجيم .

ألا فاعلم عندما تسمع كلمات التقدم ، والحياة ، والارتقاء أنها نعوت تلك الأمم وصفاتها .

وثمة أمم أخرى لا تزال تستيقظ من نومها كل يوم على صلصلة القيود تملأ أرجلها وأيديها . . تلك هى بلاد السمع والطاعة . وبالتالى فهى بلاد النمو البطىء ، والسلوك الردىء ، والرذيلة المترعرعة ، مهما يرتفع فى سمائها من مآذن ، ومهما تقرع فى أرجائها أجراس الكنائس ، ومهما يتبختر على أرضها من أناس يلوحون بيد الفناء ويقولون : يا عباد الله . . اتقوا الله . . ! !

ولقد يبدو لنا أن نسأل : لماذا يحول السمع والطاعة بين الناس والخلق القويم . . ؟

ولكن قبل هذا ، ماذا نعنى بالسمع والطاعة ، وما الظروف التى ألزمتنا هذا الأذعان . ؟

إننا نعنى بالسمع والطاعة هنا ، غلبة غريزة القطيع على صوت الألهام والعقل . .

نعنى تلك الحالة الانسلاخية ، التى ينسلخ المجتمع فيها عن إرادته ومشيئته . بل عن ذاته . .

ونعنى بالتالى الانصياع المطلق لأمور لم يساهم فى إبرامها ، وخطط لم يشترك فى وضعها . .

أما الظروف التى أركستنا فى غياهبهما فكثيرة ، ومن المحتوم أن نكون على وعى بها ونحن نتدارس مشكلة السلوك والخلق . بيد أننا نستطيع بصورة مبدئية أن نلخصها فى كلة واحدة « الطغيان » .

طغيان الحكومة . .

وطغيان التقاليد . .

وطغيان المجتمع على نفسه كانعكاس محتوم لطغيان الحكم ، وطغيان العادة . .

ومن وراء هذه جميعا كانت التعاليم المتلفعة بأزياء الدين تزكى الطغيان وتعبد له القلوب والعقول . . !

فيوم كان هذا المجتمع مسيحيا ، كانت تقرع فى فجاجه هذه التعاليم :

« أيها العبيد ، فلتخضعوا لأسيادكم والخوف يملأ نفوسكم . . ولا يكون هـذا الخضوع للخيرين منهم فحسب . ، بل وللشريرين أيضا . » . . ! !

« أيها العبيد ، أطيعوا سادتكم فى خوف ورعدة » . . !

« على جميع من يخضعون لنير الرق أن يعتبروا أسيادهم جديرين بكل تبجيل . » . !!

وعندما نزل الأسلام بوادينا ، عاش فى الأرض أناس تحدثوا باسمه وقالوا للناس إن رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول :

« استمع لأميرك وأطعه ، وإن جلد ظهرك وأخذ مالك » . . !

« كن عبد الله المغلوب ، ولا تكن عبد الله الغالب » . . !!

« الزموا طاعة أمرائكم وإن ظلموا . . فأن الله مبتليكم بهم » . . !!

ولما أتخم مجتمعنا من هذا العلف الصالح حتى بشم . .

وإذ صار الأذعان العميق جزءا من كيانه شرع يفلسف حياته على هذا النمط التعس . .

ولعلك الآن ، وأنت تطالع هذا الكتاب ، تسمع صوت الرجل العابر تحت نافذتك يقول لزميله :

— وأنا مالى . . اللى يجوز أمى . أقول له ياعمى . . !!

إن هذا المثل ونظائره الكثيرة تمثل الحقيقة الحية فى وجودنا الميت . . تصور الحياة المؤتسكة التى رزأنا بها الأذعان النذل والطاعة العمياء .

أترانا بعد فى حاجة لأدراك الخطر الذى يتهدد أخلاق الناس عندما يسودهم الأذعان الغبىّ ، والسمع الذاهل . . ؟

إن بلاد السمع والطاعة تعنى تلك الحظائر التى يعيش أهلها تحت مستوى حقوق الانسان .

وحقوق الانسان لم تعد عبارة إنشائية ، ولا اصطلاحا رومانتيكيا . .

بل حقيقة تدل على ذات الانسان ، وليس على مجرد حقوقه . بمعنى أن الانسان يفقد ذاته إذا فقدها . . . وعندما يفقد الانسان حريته ، يفقد سيادته على نفسه ، وحين يفقد هذه السيادة يحرم الوسيلة المجدية للاكتمال الخلق ، ويمسى كل إيحاء له بالفضيلة والتسامى مجرد رطانة أعجمية لايناله منها سوى التلمظ بها ، كما يفعل أى حيوان مجترّ بملء فمه من علف لذيذ . . ! !

ولقد يكون للناس عجبا أن تربط الفضيلة بالحرية على هـذا النحو الذى يبصرون .

ألا فليعلموا أن السلوك الفاضل والسوىّ للأنسان وللجماعة لم يرتبط ولن يرتبط بشىء أوثق من رباطه بالحرية .

ولئن كان الرائد السياسى يتخذ شعاره وشعار قومه « الحرية . . أو الموت » . ؟

فأن الرائد الأخلاقى لا يكون إلا صادقا حين يجعل شعاره «الحرية ، أو العار . . »

من أجل هذا نبدأ حديثنا بنذير نزجيه لبلاد السمع والطاعة . هنا وفيما حولنا من أمم وجماعات . لنعلم ، ويعلموا أن الفضيلة والطغيان لا يجتمعان — طغيان الحكم ، وطغيان التقاليد ، وطغيان التعاليم . . .

وكل الجهود التى تبذل لأخذ الناس إلى مكارم الأخلاق فى ظل التسلط الذى يسلبهم اختيارهم ، والطغيان الذى يعطل إرادتهم ، فليست أكثر فوزاً ، ولا أدنى عبثا من جهود الذى يحرث فى البحر ، ويزرع فى المحيط . . ! !

أجل ، وإن أول حقيقة راسخة تقدمها لنا تجارب الانسان عبر القرون والأجيال لهى ذى . .

الطغيان مزرعة الرذيلة :

يلعب الطغيان دوراً بشعا فى إعـــدام الحاسة الخلقية لدى الفرد والجماعة . .

ولقد ألفَ الناس أن يحذروا الطغيان كمقوّض للقيمَ الوطنية ، بيد أنهم حين يبلغون من الوعى درجة كافية ، فأنهم يحذرونه كمقوض خلق كذلك .

وللطغيان كما ذكرنا مصادر شتىّ ، فليس هو — فيما نعنيه — طغيان الحاكم فحسب ، بل طغيان المجتمع ، وطغيان القانون ، وطغيان التقاليد . وإن كان طغيان الحكم واستبداده يمثل العنوان الضخم لكل هـذه الأثافى .

ماذا يفعل الحاكم الطاغية فى أخلاق الذين يرزءون بحكمه . . ؟ وأى أثر عارم له فى تشويه الفضيلة الإنسانية ، ووقف النمو الخاتى للناس . . ؟

إنه لأمر نافع أن نقرأ القصة التالية : —

ذات يوم مر حكيم الصين « كنفوشيوس » ومعه بعض تلامذته بامرأة هلوع . تنتحب فوق قبر أو دعت ثراه عزيزا عليها . .

واقترب منها الشيخ الحكيم مواسيا ، وسألها : ما شأنك . . ؟

فأجابته : الوحش يا سيدى . . سلبنى زوجى وأبى . . ! !

منذ يومين خطف أبى والتهمه . ، واليوم أدركت زوجى وهو بين أنيابه هالكا مصروعا . . !

ولفتها نظرة فاحصة من «كنفوشيوس» الذى عاد يسألها : —

— وماذا يلجئك للحياة فى هذا الخلاء الموحش ، ولماذا لا ترحلين عن ذلك الوحش الضارى . . ؟

فأجابته قائلة :

— لأنه يا سيدى لا توجد هنا حكومة مستبدة . . ! ! ! فتهلل وجه كنفوشيوس . ، حتى لكأن الشمس تشرق من خلاله . . وابتسم ابتسامة تعبر عن فرحه بهذه الحكمة الجليلة . والتفت إلى تلامذته وقال :

— أسمعتم يا أبنائى . ؟ إن الحكومة المستبدة أخطر على روح الإنسان من الوحش المفترس . . ! !

أجل ؛ يا كنفوشيوس . إن الأمر لكذلك . وإن الطغيان ليسلب من الروح روحها ، وطهرها ، وبسالتها .

إنه يشوه الضمير ، ويعطل الأرادة ، ويبطل القدوة . .

وإذا الناس فقدوا هذه الدواعى والوسائل ، فقد ازّاور عنهم الهدى وصار احتمال مقام الفضيلة فى نفوسهم ، كاحتمال مقام الشهد فى لعاب الثعابين . . !

والمجتمع الذى يسير خافض الجناح مسلوب المشيئة ميمما وجهه شطر دواعى فنائه واضمحلاله . لا يزيده الحديث عن الفضيلة إلا إفلاسا منها .

ونحن كأفراد نتأثر بروح الجماعة التى نعيش فيها ، ونحيا داخل نطاقها . وكلما كانت الجماعة صاعدة متفوقة ، يكون أفرادها كذلك .

وإن نزعاتنا كأفراد لتذوب فى سيل العرم الهادر من نزعات المجتمع وغرائزه . وهذا يقتضى أن نوفر للجماعة فى شخصيتها العامة وسائل الترقى الخلقى ، إذا أردنا لأفرادها مثل هذا الارتقاء . لأنها أى الجماعة المنبع الذى يصب فى الأشخاص والأفراد .

وللجماعة أخلاق وفضائل جماعية . إذا تكونت ورسخت تصير بمثابة الرصيد الذى يأخذ منه الأفراد وينفقون . وهو رصيد لا يفنى فمثلا — عندما تهيء الظروف لمجتمع ما أن تهيمن على أعماله فضيلة الأتقان ، اتقان العمل ، أى عمل . .

فأن عدوى هـذه الفضيلة تنتشر حتما من روح المجتمع إلى أفراده جميعا . حتى لتكاد حياة غير المتقن فى هذه الجماعة تـكون فشلا ماحقا ، إن لم تـكن أمراً مستحيلا . .

ومن العسير على إنسان أن يحرز إرادة التفوق والاكتمال الخلقى فى مجتمع لا يحترم هذه الأرادة فضلا من السعى لأحرازها . كما أنه من العسير عليك أن تـكون قنوعا فى جماعة جشعة مسعورة . .

فلـكى تزود الأفراد بأمكانيات الفضيلة ، علينا أن نصل الوشائج المقطوعة بين روح الجماعة ومقومات الفضيلة .

ولقد قلنا : إن على رأس هذه المقومات ثلاثا ، الضمير . والأرادة . والقدوة .

ففى أى مناخ يترعرع هذا الثالوث الرافع : . ؟

ما البيئة الصالحة لأنماء الضمير ، وإرباء الأرادة ، وتألق القدوة . ؟

الحق أن المرأة التى أثارت إعجاب « كنفشيوس » لتثير إعجابنا أيضا

ولقد عبرت فى صدق وفطنة عن حاجتنا المحتومه لحرية لا يخنقها طغيان ، وحياة لا تصدها السقوف عن الارتفاع . إذا أردنا أن نحلق مع مواهب الله المعطاة لنا إلى سماء القدرة البشرية ، والـكمال الميسور . وإدا أردنا أن نحوز الوسائل المفضية لهذه الغاية الفاضلة ، ألا وهى — الضمير الناجز والأرادة المتفوقة ، والقدوة الهادية .

وسنبصر الآن ، كيف يصعب استعلاء الضمير ، والأرادة ، والقدوة فى أمة يحكمها طاغية . ولـكن بعدأن نبصر أولا الارتباط الوثيق ، والتآزر القائم بين هذه الثلاثة والسلوك السوىّ القويم .

عندما يريد الناس أن ينعتوا واحداً منهم ردىء السلوك . يقولون بأسلوب عفوى بدهى : لا ضمير له . . أو يقولون : ضعيف الأرادة . . أو يقولون : فلان . ؟ إنه تافه . .

وهم بهذا المنطق البدَهى يلتقون مع الـكشف العلمى لقاءاً سعيداً . فالعلم ببحوثه وتجاربه . بل والدين بفراسته وإلهامه يدعمان مركز الضمير والأرادة والقدوة فى مجال الأخلاق كطاقة حاثة جاذبة . . فلنتعرف إلى هذه الطاقة إذن مبتدئين بالضمير ، ما هو . . !

إنه بعبارة بعيدة عن التعقيد العلمى — الاحتجاج الذى يصلصل داخل ذواتنا عندما يستهوينا الشرّ وتقودنا الرذيلة . ولذا فحاجة الشرّير إلى الضمير ترجح حاجة الخيّر . إذ الثانى قد راض نفسه فاستقامت على الطريق ولم يعد فى تصرفاته ما يستحق الاحتجاج والنذير ، وهما وظيفة الضمير ومظهر نشاطه . .

وعلماء الأخلاق يفسرون الضمير هكذا . فواحد منهم وهو العالم

الجليل « هادفيلد » يقول : — « الضمير لسان الخير المقموع عندما يكون الشرّ هو المسيطر وهو السائد . . ونحن لا يمكن أن نتعرّض لوخز الضمير إلا حين يسود الشرّ ويغلب . »

إذن فحاجة الفرد الذى يغلب شرّه خيره إلى الضمير قوية وعارمة ، وأيضا تشتد حاجة المجتمع الشرّير إلى ضمير جماعى يعظه ويزجره ويذكره .

والضمير ليس جزءاً من تركيبنا العضوى . ليس قطعة لحم ومضغة دم . بل هو وظيفة ، كالعواية سواء بسواء . وهو بهذه المثابة يحيا بالمران المستمرّ فاذا أخلد إلى السكون تحلل ومات .

أتعلمون أن « نيرون » عندما ولى الملك بكى بكاء مرا إذا جاءوه بأمر إعدام أحد الذين يستحقون الاعدام كى يمهره بتوقيعه .. أجل ، بكى وصاح : ليتنى ما تعلمت الكتابة . ! !

ولكن هذا الضمير الذى تترقرق فيه الحياة والورع لم يلبث حين شلّ عن العمل أن تيبس وتحجر ، وتحول إلى قطعة من رخام . ولم يعدله وجود عندما أحرق « نيرون » روما وسفك دم أمه وأرهق الأرض بظلمه وفساده . .

قلنا إن الضمير ليس عضوا فى أجسامنا ، ولكنه وظيفة . وقلنا إنه صوت الخير للقموع حين يسيطر الشرّ ويسود . . أى أنه نقد واحتجاج ونذير .

وقلنا إنه من العسير على الأفراد أن يظفروا بفضائل ليس لها فى روح الجماعة وجود . فإذا كان الضمير موضع حفاوة المجتمع وإجلاله انتشر هذا الشعور الكريم بين أفراده ، فيصغون لصوت الضمير العام

الذى يعمل فى كيان الجماعة ويبثها رؤاه . . ، وبالتالى تستيقظ ضمائر الأفراد وتهب للعمل الشريف فى سبيل الحق والخير والجمال .

فكيف يتأتى للضمير إذن وهو احتجاج ونقد أن ينمو ويعمل فى مجتمع يحظر فيه الاحتجاج ويحرم النقد . . ؟ ؟

أجل ، إن الطغيان مزرعة الرذيلة . ، فهو بحجره على النقد ووصايته على الحرية يلاشى قوى الاحتجاج ويخرسها وهكذا يعطل وظيفة الضمير وما الضمير سوى جرس الأنذار الذى لا يكف عن القرع موقظا اتجاهاتنا الخيرة النبيلة .

ونغادر الضمير إلى الأرادة . فالضمير الذى يهيب بنا لنتقدم إذا كان الذى أمامنا خيرا ، ونحجم إذا يكون شرا ، تذهب محاولاته سدى إذا لم يجد أرادة تنتظره فتلقفه وتجعل من توجيهه ونذارته خطة ماضية ، وسلوكا نافذا .

والأرادة كالضمير ، ليست جزءا من جسدنا الحى ينمو بالغذاء ويعيش بالدم . . بل هى وظيفة تنمو بالمران وتعيش بالعمل .

يقول « هادفيلد » — « الأرادة وظيفة الذات ، والذات لا تحقق تماسكها ووجودها إلا ما دامت تعمل ، وهى تتماسك ويلتحم بعضها ببعض حين يكون لها نشاط عام ، وغرض مشترك . مثل الكائنات الحية تماما . فإذا توقف إنسان عن استخدام أرادته ، تأخذ ذاته فى الانحلال فورا ، وتساقط كسفا على الفور » . .

إذن فالأرادة وظيفة الذات . وهى تنمو وتبلغ رشدها بالمران والتدريب . ولو تصورنا إنسانا يعيش فى هزيمة دائمة أمام رغباته

الشريرة ، واندفاعاته الرديئة . دون أن يصمد فى وجهها مرة وثلاثا وعشر مرات حتى تتكون له إرادة شامخة . . . يكون فى استطاعتنا بعدئذ أن نتصور المجتمع الانهزامى الذى يمثل أمام قوي الطغيان نفس الدور . والذى يمزق الخنوع والأذعان إرادته شر ممزق .

إن مجتمعا كهذا تغص ذاكرته مع الأيام بذكريات إخفاقه وفشله فتتلاشى ذاته ، وتتحلل إرادته . وبسرعة تنتقل العدوى منه إلى أفراده فيتحولون إلى حطام تعس . . حطام يطفو فوق العباب . . ! !

ولا يقف الخطر عند ثلم الأرادة وتعطيلها . فالطبيعة الانسانية لا تعرف البطالة ، وهى حين تجد الطريق موصدا أمام وظيفة خيرة من وظائفها ، لا تلقى عصاها وتستريح . بل تتحول من فورها إلى النقيض فتقوض ، وتعيث ، وتنتقم . .

إن الشعوب المريدة هى التى تأخذ الفضيلة بكلتا يديها . وهى تلك التى تحيا عزيزة لا ذليلة ، آمرة لا مأمورة ، مطاعة بقدر ماهى مطيعة .

وإنا لنقارف خطأ كبيراً حين نخال النضال لأحراز الأرادة عملا فرديا محضا . بمعنى أن الفرد الذى يلتزم نهجا معينا يسوق نفسه إليه ، ويلزمها به لايلبث أن تتكون له إرادة قوية تعصمه وتصونه . .

أجل . إن هذا صحيح إذا كنا نريد أفراداً يبرزون فى غرض من الأغراض . . كهذه العشرات من الناس الذين يتفوقون على الملايين فى الرياضة والفن بيد أن الأمر مختلف جداً بالنسبة للأخلاق .

فالأمة لا يضيرها ، ولا يعطل نموها ويحبس عنها مستقبلها أن يبرز من بين ملايينها العديدة عشرة فقط متفوقون فى المصارعة أو الملاكمة

أوالسباحة . . ولـكن يضيدها ويعطل نموها أن يتفوق عشرة أو عشرون أو مائة تفوقا أخلاقيا يرفعهم إلى السماء بمـا بذلوه من رياضات قاسية بينما الجماهير كلها هناك تتدحرج على أرض الشر وتتمضخ بوحل الرذيلة . ! !

فاذا كنا نريد سلوكا فاضلا للـكافة ، فعلينا إدراك ظاهرة هامة . هى أن الناس يتصرفون دائما أو غالبا وَفق القواعد والقيمَ التى تسودُ بيئتهم ومجتمعهم . ويكاد يكون من المستحيل أن تجد ناساً أعزة كراما فى مجتمع يرزح تحت وطأة المهانة والذل . . وأيضا ، يكاد يكون مستحيلا وجود جمهور يتمتع أفراده بأرادة حائة حازمة إذا كان هذا الجمهور يعيش داخل إطار بشع من الحـكم المطلق ، أو القوانين المطلقة ، أو التقاليد المطلقة . . ، كما أن دخل الفرد وثيق الارتباط بالدخل القومى يرتفع بارتفاعه ويهبط بهبوط ، كذلك دخل الفرد من الأخلاق وحظه من الفضيلة مرتبط بدخل الجماعة وحظها . . وكلما خلت روح الجماعة من مناجم الخير وخاماته ، كلما كان حظ الأفراد من الأفلاس الخلقى عظيما .

ونحن نعلم أن الطغيان تحدّ وقح لأرادة الجماعة . وهو حين يكون طغيانا ظافراً يسبب لهذه الأرادة متاعب قاسية قد تفضى بهـا إلى الجموح الخطير . أو تنزل بهـا إلى الهوة الفاغرة . . وكلاهما تعطيل لأهم مقومات الفضيلة فى الأمة . ألا وهى الأرادة التى تحقق جمال الذات وخيرها وتفوقهـا . .

ونغادر الأرادة إلى القدوة . فنجد الارتباط بين الاثنين وطيداً ، والعروة بينهما وثيقة . ذلك أن الأرادة لا تهب للعمل وحدها . بل لابد

لها من باعث ومنبه . . لابد لها من مثل أعلى يناديها ، وقدوة تتعلق بها وتحاكيها .

أجل ، فكما تنشط قوة الأبصار بواسطة منبه خاص هي موجات الأثير الموصلة للضوء ، وكما تنشط غريزة الهرب بواسطة منبه خاص هو وقوع خطر . . كذلك الأرادة لا تنشط إلا بواسطة منبه ومثير هو المثل والقدوة .

فالقدوة تجمع شمل حياتنا المبعثرة الحائرة ، وتنظمها حول القيمة العليا التي تمثلها . وتمنحنا فوق هذا تركيزاً قويا لبواعثنا وأهدافنا ولقد كان « امرسون » صادقا وحصيفا حين جعل وصيته الرابعة لمن يريد أن يكون رجلا حقا هذه العبارة المضيئة :

— « تذكر غيرك . . فالعواطف معدية » . . !

أجل ، إننا نذوق طعم العظمة عندما نتذكر رجلا عظيما ، ونعيش ولو لحظات قصار داخل حياته البهيجة ، وسجاياه الدافئة المشرقة .

وهذه النفوس الشامخة التي حققت أقصى درجات الكمال الميسور لبني الانسان . .

هذه التي سجلت ارتفاعا قياسيا في الشجاعة والتسامح والبذل والقوة والتواضع والذكاء والأخلاص . .

هؤلاء الأفذاذ الذين نراهم ، أو قل نرى أحدهم ؛ فنحب الإنسانية كلها ونجلها لأنها أنجبتهم . .

هؤلاء الذى تتمثل فيهم القدوة الصالحة ، هل يبيح الطغيان لهم أن يظهروا ويشرقوا ويضيئوا . . ؟

نحن نعلم أن بعض هؤلاء قد يجئ ظهوره فى قومه وفى الناس بمثابة رد فعل للطغيان والقهر . ولكن علينا أن نذكر أن الطغيان إلى جانب هذا لا يمكن القدوة من بلوغ أوجها العظم وانتشارها الرحيب .

إن إنكار « بطرس » للمسيح ، قد ضاءل من جلال قدوته ولو قليلا . . ورجوع « جاليليو » عن القول بدوران الأرض وكريتها تحت وطأة التعذيب الماحق قد ضاءل من تأثرنا بعظمته . . والمال الذى ألهى به الطغيان رجلا مثل « فولتير » قد أخذ منه كقدوة ما كان وكنا معه فى حاجة إلى بقائه وتفوقه . وإن ما تركه العظماء الإنسانيون من أثر وما طبعوا به البشرية من نشاطهم رغم الظروف التى كانت تعمل دائبة لعرقلة عظمتهم ، وتقليص قدوتهم — ليصور لنا المغانم الفذة المضاعفة التى كنا سننالها منهم لو تركهم الطغيان ينمون ، وينتشرون ، ولو لم يكن يتعقب عبقرياتهم الخلاقة بالأذى والتشويه . .

حيث يوجد الطغيان إذن يكون حظ الناس من القدوة الملهمة الحافزة ضئيلا . فالطاغية بوسائله الكثيرة يحاول مسخ العظمة الناشئة التى ستكون قدوة سامقة .

فهو يرشو بالمال ، ويضرب بالسوط ، فإذا خاب سعيه وفل سلاحه . أطلق الأكاذيب فى أعقاب القدوة ليشوه بهاءها ، ويطمس معالم عظمتها . وحين تراجع سيل الأراجيف التى انطلقت وراء الأنبياء ، والفلاسفة والمصلحين ، ورواد الفكر . تجد ظاهرة تثير الضحك وتدعو للفجيعة . .

ولا يقف بأس الطاغية ومكره السيئ عند هذا الحد .

بل إنه يفعل ما يفعله الاستعمار ، فيصطنع قدوة زائفة يقرع لها

الطبول والأجراس حتى يلقى فى روع الناس أنها النور الذى هبط إليهم من ملكوت السماء . وعليهم أن يسيروا إلى حيث تقودهم وتهديهم .

والويل للجماعات التى ترتفع فى سمائها مثل عليا زائفة ، وزائغة ، وباطلة . إنها الفجر الكاذب الذى يضل العابدين عن فجرهم الصادق المرقوب . فالطاغية لا ينبغى له أن يصطنع القدوة الفاضلة ، وحتى لوشاء ذلك لا يستطيع سبيلا . فيولى وجهه شطر الغوغاء فى أخلاقهم ، والغوغاء فى تفكيرهم .

أولئك الذين يسمون النفاق أدبا ، والخيانة دهاء ، والغش إنقاذا ، والسرقة تضحية . . (؟ !)

يعمد الطاغية إلى هؤلاء ؛ فيصطنع منهم حاشيته ، ويصطنع القدوة التى يفتن بها الجماهير التى يبهرها طلاء الصنم ويشجيها خواره ، فتضيع الكثير من وقتها ، ومن أمنها وإيمانها ، مطوفة حول هذا الغبار الباطل . . وهناك فى أركانها القصية يسير روادها الحقيقيون وحدهم . .

وبعد حين تفيق الجماعة من الغيبوبة التى أوقعها فيها مكر الطاغية ، تفيق كليلة خائرة العقل والقلب والعزم ، وتمضى تبحث عن الشموس فلا تجدها . . لقد ازاورت عنها . وهكذا نحرم الانتفاع بعظمائنا الرواد وهم أحياء . فإذا ذهبوا ومالت شموسهم للمغيب . ذهبنا نقتات من ذكراهم

كان « توم بين » سكيرا عربيدا سافلا أقذر من أن يطهر ، فلما مات صار « شيخ المحررين » و « أعظم مجاهد فى سبيل العقل » و « آية الله الكبرى » إلى آخر النعوت الفاضلة والصفات الحميدة . .

وما قيل عن « توم بين » بعد موته هو الحق وأما الذى نسج حوله وألقى فوق رأسه حيا فقد كان ثمن صموده ضد الطغيان ، وتأليب الناس عليه ... طغيان الحكم الذى كان بعض زعماء الولايات المتحدة يريد فرضه فى ثياب تسكرية ، والذى طعنه طعنة قاتلة فى كتابه « حقوق الإنسان » .

وطغيان التقاليد الذى شن « بين » عليه هجوما مدمدما فى كتابه « عصر العقل » .

فمن أجل ذلك ألحف المعوقون لحركة التاريخ فى النيل منه حتى لا يؤمن الناس بآرائه ، ويمضون ضدهم وضد مصالحهم تحت لوائه . .

ومحمد عبده وأستاذه الأفغانى ، شنت عليهما اشاعات دنيئة ، أيسرها أنهما كانا فاجرين يجمعان الأموال لمجلة العروة الوثقى ، ثم ينفقانها على الملذات الرخيصة فى باريس . .

ومحمد عبده بالذات — كما سمعت أذناى — فى قلب الجامع الأزهر ، مات ولسانه مدلى على صدره . .

قلت يومئذ للرجل الذى يروى هذا ، ولماذا تدلى لسانه هكذا . . ؟ فأجاب : هذه علامة يفضح الله بها السكارى عند الموت . . ولقد صدقته يومها ، وملأت الجو تعوذا بالله من الشيطان الرجيم . . ! ! !

لا شئ يرسى قواعد الفضيلة فى أمة مثل القدوة المتمثلة فى عظمائها الصامدين . . وأرجو القارئ أن يدرك مفهوم العظمة فى حديثنا . . إنها شئ مختلف تمام الاختلاف عن المفهوم الترابى الذى يقصده الناس فى حديثهم العادى . .

فالعظيم الذى نعنيه بكلمة عظيم ، ليس هو صاحب المنصب الرفيع ،

أو الجاه العريض ، أو المال الوفير . بل فى بلاد كبلادنا لا يكاد يبلغ هذه الثلاثة من الناس إلا الذين يتخلون عن كافة عناصر العظمة الحقيقية ومقوماتها .

نحن نعنى العظمة الصامدة الجليلة التى تتحدّى مواضعات عرفها النحل ، وتتفوق على وصولية البيئة ، ونفعيتها ، وجهلها ، وعجزها ..

إن عظيما واحداً من هذا الطراز يفعل فى أمة ما تفعله عشر جامعات . .

عندما فرغ « ماوتسى تونج » قبل أن يعرف طريقه ، ويختار هدفه عندما فرغ من قراءة كتاب عن « بطرس الأكبر ، وواشنطن ، ولنكولن وروسو ، وتوم بين . » ، قال وعينه تدور على مشاكل بلاده : « إن الصين فى حاجة لمثل هؤلاء العظماء . ولقد عرفت الطريق الآن » . . !

أى طريق عرفه ماوتسى من هؤلاء . . ؟

إنه طريق الكدح النبيل من أجل التقدم الانسانى الظافر . والقبس الذى مس « تونج » من سيرة أولئك الأفذاذ ، هو الذى رفعه من فرد عادى إلى رجل يعكف على تحرير نفسه . ثم على تحرير أمته .

ومثل آخر لماوتسى نفسه يظهر أثر القدوة العارم فى خلق النماذج الفاضلة والجماعات المؤمنة . فذات يوم وقع أحد جنود جيشه المحارب أسيرا فى يد الجيش الوطنى الذى كانت تقوده حكومة « كاى شيك » كان حطاما داميا ، يرتجف من البرد ويلعق جراحه من الجوع . وشرعوا يستجوبونه ؛ فسألوه :

— هل تعرف ماوتسى تونج ؟ . .

فبدلا من أن يتجاهل وينكر تحت وطأة العذاب الذى يعانيه تهلل وجهه وأشرقت أساريره . حتى لـكأنه وقد سمع كلمة « تونج » قد سمع نداء النجدة وأجابهم قائلا :

— « نعم أعرفه . . هو رجل عظيم البساطة ، عظيم العذوبة إذا تكلم فهمه بسطاء الناس ، وليس عليه إلا أن يدعو فنسير وراءه إلى أى مكان نريد . . ! !

« إنه دائم الاهتمام بالآخرين ، بينما لا يهتم بنفسه أبدا . .

« إنه ينام معنا على الأرض دائماً أثناء الحملات ، ويأكل من طعامنا نحن الجنود ، ويعطينا ما يهدى إليه من ثياب وأحذية . وفى آخر معركة خضناها معه رأيته بنفسى منبطحا على الأرض يطلق النـــار من بندقيته . .

« نعم أعرف ماوتسى تونج . إنه الرجل الذى أعطانى بعظمة نفسه ، وجليل كفاحه ، وبأخلاصه وتواضعه — غرضاً أعيش من أجله ، وقدوة أسير فى ضيائها . بعد أن كنت تائها ، وتافها . » . . .

جندى هذا . . أم فيلسوف . . ؟

لـكن القدوة العظيمة حين تمس الناس تفعل فيهم المعجزات وعندما نصافح قدوة أمينة نتحول فى اللحظة والتو إلى ما لم نكنه قبل أن نصافحها ونراها .

ألا إن الطاغية — أى طاغيـة — ليعبىء كل مواهبه الشريرة الجارحة فى معركة دائبة وحشية ضد كل عظيم صادق العظمة . وليس يبالى فى سبيل الاستئثار بالأمر وبالسلطة أن يحرم أمته أجل وسائل

رقيهـــا المادى والأدبى . وهى القدوة المتألقة الهادية .

ولماذا يهتم الطاغية بالقدوة وبالفضيلة . وهو — مهما يبدأ طاهراً وفاضلا — لايلبث أن يتحول إلى قطب عظيم من أقطاب الضلال والأفك . . ؟ !

لنقرأ الآن للراهب الجليل « سافوناورلا » يحدثنا عن أخلاق الطاغية ، ويصف نكبته الماحقة على الفضيلة وعلى الأخلاق :

— « إن كلمة طاغية معناها : رجل من أكثر الناس شراً . يعمل على ابتزاز كل شيء لنفسه ، ولا يعطى شيئا للآخرين . وهو عدو الله وعدو الناس . .

« والطاغية متكبر جشع محب لشهواته . .

« ولما كانت هذه أسس الرذائل كلها ؛ فان فيه كل الرذائل التى يمكن أن توجد عند إنسان . وعلى ذلك النحو تصبح كل حواسه ملتوية . . تفسد عيناه بالتطلع إلى الفسوق . وتفسد أذناه بسماع التملق . .

« وهو يرشو القضاة ، ويسرق الأرامل والأيتام ، ويظلم الشعب ، ويحابى أولئك الذين يزينون له الاحتيال على الجماعة . .

« ويقتله الشك فيصطنع الجواسيس فى كل مكان ويرغب فى أن يبدو الجميع أمامه وعلى وجوههم الخجل والعبودية . .

« ولذا فحيث يوجد طاغيـة لا يستطيع الناس أن يعملوا ، أو يتكلموا بحرية . .

— لا يزال « سافوناورلا » هو الذى يتكلم . .

« والطاغية يريد أن يحكم غيره بالقوة . يريد أن يرتفع فوق أقرانه . وحتى فوق من هم أفضل منه . .

«وإذا هو لايستطيع أن يستمر فى مثل تلك الحالة ، ولايستطيع أن يحصل على رغباته بغير أموال كثيرة ؛ فان كل طاغية جشع ولص . .

« ولما كان غرض الطاغية سيئا ؛ فأن كل ما يصدر عنه لابد أن يكون سيئا . . ولذا فهو لا يستطيع أن يفكر فى غير السوء ، ولايفعل إلا سوءاً . وحتى إذا أخطأ ففعل خيراً ، لايفعله لوجه الخير . . . بل لينال الشهرة ويكتسب الأنصار ليظل محتفظا بالحالة الشاذة التى هو عليها . . »

ثم يختم الراهب الجليل حديثه عن الطاغية محذراً فيقول :

— « احذى يا فلورنسا أن يظهر فيك طاغية . ؛ فأنه سبب كل الآثام التى يرتكبها الشعب . . » . . ! ! !

إذا كان الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن . . ، وإذا كان الناس على دين سادتهم وحكامهم . . ، فكم يكون الظلام وبيلا إذا كان السلطان الحاكم طاغية . . ؟ !

ماذا يمكن أن تلتمس الأمة منه من فضيلة وخير . . ؟

لا تصدقوا أبدا أن الطاغية يستطيع أن يكون فاضلا . وحتى لو بدأ كذلك . بل لو بدأ قديسا لن يلبث حتى يتحول إلى شيطان رجيم . ولقد صدق « نهرو » حين قال : « السلطة المطلقة ، مفسدة مطلقة » أجل ، إنها مفسدة لا لمنهاج الطاغية فحسب ، بل ولروحه وأخلاقه . .

وإذا كان يمكن أن يجتمع الماء واللهب فى إناء واحد ،

فعسى أن يمكن اجتماع الفضيلة والطغيان فى فرد . . ! !

فالأمر كما يقول الفيلسوف الفرنسى « جويو » فى كتابه « التربية والوراثة » :

— « إن الأرادة باستعمالها القسوة تنتهي إلى اختلال عميق ؛ فهى إذ تعتاد على ألا تلاقى فى الخارج أى عائق ، كما يتفق للطغاة المستبدين ، تصبح عاجزة عن مقاومة اندفاعاتها وعندئذ تتعاقب عليها ميول متناقضة أشد التناقض ويصيبها عطب حقيقى ؛ فيرتد الطاغى طفلا ، ويستسلم لنزوات طائشة متناقضة . فتكون قدرته العظيمة فى الخارج عجزاً حقيقيا فى الداخل » .

ألم يحدث ذلك التناقض والعطب للدوتشى الذى مضى يلقى بزعماء الثوار المسلمين من الطائرات المحلقة فى جو السماء ، ويدك المساجد دكا على آلاف من الساجدين والراكعين . . وفى نفس الوقت منح نفسه لقب « حامى حمى الاسلام » . . ؟ ؟ ! !

إن أنفاس الساعين لتتقطع إعياء قبل أن يظفروا بطاغية واحد . واحد فقط ، كان فاضلا وشريفا .

عرفنا إذن ، كيف يحرم المجتمع الخاضع لنير الطغيان من مقومات الفضيلة . وهى ، الضمير ، والأرادة ، والقدوة . فهل هذا هو كل الخسران الذى يلحق بسلوك الأمة ويشوه روحها من جراء الحكم المطلق . . ؟

لا . فبفقدان هذا الثالوث أو ضعفه وإنهاكه . تتحلل مناعة الجماعة وترعى فى كيانها كافة الموبقات التى تنجم عن هذا اللون من الحكم .

والتي تتعامل معه طردا وعكساً . فيوجد حيث توجد . وتوجد حيث يوجد . فما هذه الوبقات ، وما خطرها على أخلاق الجماعة ؟ ؟ . .

الأشاعة ، هي العادة السرية للمجتمع المضطهد . .

عندما تشتد وطأة الكبت على المجتمع يفعل مثلما يفعل المراهق المكبوت تماما فكما يتجه الأخير في سبيل تعويض عجزه وتوكيد ذاته وإعلان شغفه بها إلى العادة السرية ، حيث يتخذ منها شاشة سحرية يعرض عليها من مشاهد الواقع المتخيلة ، ما يشبع رغبته المريضة المكبلة يفعل ذلك أيضا المجتمع المضطهد المكظوم ، فيتجه شطر عادة سرية يسرب خلالها كبته ، ويهرب إليها من الواقع المرير الذي بعدت عنه شقته ، وعز عليه مناله . . وهذه العادة السرية للمجتمع المكبوت الذي تسلط عليه طاغية هي : الأشاعة . .

وا شاعة بما تتضمنه من كذب ، ولغو ، وبهتان ، تمثل عرضاً لمرض خلقي .

ألم تر إلى مريض يشكو آلاما في معدته ، أو في مفاصله بينما يقرر الكشف الطبي الواعي سلامة المعدة ، ووثاقة المفاصل . ؟

إن العلة الحقيقية لصاحبنا ليست عضوية . بل نفسية ولقد تحول الاضطراب الانفعالي إلى اضطراب جسماني فكانت آلام معدته ومفاصله .

كذلك تشيع في المجتمع أمراض خلقية . لا تكون في حقيقتها أكثر من اضطراب انفعالي ، وقلق جاثم ، يتسللان في كيان الجماعة ، فيدمران سكينتها ، ويتبران هداها . .

ويربو هذا الاضطراب وذاك القلق كلما أصغى الشعب إلى المنطق التسويغى الذى يبرر به الطغيان وجوده دائما . وهو حاجة الأمة إليه لتربيتها ، وتأهيلها للحرية . . فبمثل هذا الأفك الباطل ينبعث فى شعور الجماعة إحساس نابح بالذنب وبالخطيئة ، وشعور طافح بالدونية والضعة .

إن هذا القول يحرك الرواسب الدفينة فى المجتمع المستعبد أو الذى طال عليه الأمد يجرجر سلاسله وأغلاله . ويوقظ إحساسا ضاراً يلح عليه بأنه شيء تافه . . ويرد سعيه الحثيث فى سبيل النمو الصاعد ، يرد هذا السعى المبارك ترابا فى تراب . . !

وانتزاع الثقة من وجدان الجماعة على هذا النحو ، وإرباء شكها فى قدرتها وفى استعدادها ، يسلبها الأمن الانفعالى . ؟ فتيمم وجهها شطر الأشاعة تنسج منها هيكلا لأحقادها التى تصير مقدسة . وتسلى نفسها ، بالكذب على نفسها ، وبخداع ذاتها . وتعيش فى أخطبوط معتم من هذه العادة السرية التى تنهش عافية عقلها وعافية عواطفها ، وهى لاتدرى . .

والعجيب أن الطغيان أصلح البيئات والحقول التى يترعرع فيهـــا ميكروب الأشاعة ، مهما يتظاهر الطاغية بمقته للأشاعة وتحديه لها . . إنه يكافح الأشاعة المضادة فحسب ، بينما هو يشد بأشاعاته الخاصة أزر حكمه وسلطانه . .

انظروا . . لقد بلغ عدد الذين حوكموا وسجنوا فى ألمانيا النازية بتهمة « الأشاعات المخربة للريخ » ثلاثمائة فى أعقاب حريق الريخستاج . عدا الذين سبقوهم والذين لحقوا بهم . . ومع هـــذا فقد كان للنازى وزارة خاصة للأشاعات ، ووزير مختص بها هو « جوبلز » .

والعجيب أن هذه الأشاعات كادت تخضع أفئدة الناس فى كل مكان لهتلر . حتى بعد موته وهزيمته ، وبعد اكتشاف الدور البشع الذى مثله وأداه . ولعل إحدى الأذاعات الشرقية العربية لا تأخذها العزة بالأثم إذا ضربناها مثلا لهذا الافتتان الساذج الأبله بأشاعات جوبلز عن سيده الراحل هتلر . ففى مساء الثلاثاء الموافق — ٨ سبتمبر ١٩٥٤ — قال المذيع معلقا على برنامج خاص عن ألمانيا « إن هتلر هو ذلك الرجل العظيم الذى تدخلت الدنيا فى مشيئته فأفسدتها » . . ! ! !

والمجتمعات المريضة الواجفة تتسلى كما ذكرنا بالأشاعة ، وتلتمس منها العزاء والأمل ، ومن ثم فهى لا ترحب بها فحسب ، بل وتضيف إليها الكثير الطيب من خزائن غيظها الموهوب ، حتى حين تكون الأشاعة ضدها ، وضد صوالحها . . ؟ !

والأشاعة تفسد العقل وتلبس الحق بالباطل ، فيضل الناس بها ضلالا بعيداً . . فمثلا فى تلك الأيام ـ خلال الحرب العالمية الماضية ـ حيث كنا شديدى الحاجة إلى دعم قضية الديمقراطية وشحذ الايمان بالنظام النيابى السليم ، لنربح بهذا الايمان المعركة من القصر الذى كان يشاغبنا ويؤذينا . . فى تلك الأيام ، حيث كان واجبنا يتمثل فى الاهتداء بمثل أعلى تتجسد فيه الديمقراطية وتتمثل ، ذهبنا نحن مخدرين بالأشاعات النازية ، فاتخذنا عدو الديمقراطية وجلادها قدوة وإماما . . « ؟ ! ! »

وإنى لأتصور نفسى يومئذ وأنا فتى غض العقل حدث السن ، بل وأتصور الذين كانوا أنضج عقلا ، وأكبر سنا . كيف كانوا متيمين

بهتلر . . كنا نجده فى كل شىء . فى النسيم الذى نشمه ، فى الموسيقى التى نسمعها ، فى الأحلام التى نراها . .

وفى صفوف الجماهير الصالحة الورعة : انطلقت كالريح الأشاعات التى تطوعت بها علتنا واضطرابنا . .

والرؤى الصالحة التى رأى فيها خيار الأمة ومؤمنوها ، رأوا النبى عليه السلام يعانق « هتلر » . . ورأوه أيضا يمسح صدره بيمينه ويسميه « محمد هتلر » . . ! ! !

إن الأشاعة عندما تصير غذاء عاما وعلفاً دائما لوجدان الجماعة تفسد فيها ملكة الأدراك ، والنفاذ الصادق إلى بواطن الأمور وحقائقها ، وهذا هدف أساسى للطاغية — أى طاغية يكون — فتحويل الطاقة الذهنية للجماعة إلى لغو وهذر يكفل له البقاء والسلامة .

وهل نستطيع أن نزرع الفضيلة فى جماعة فسد إدراكها وضاع يقينها . ؟؟

إن مثل هذه الجماعة لم تعد تسمع وتبصر وتقدر إلا من خلال أكاذيب الطغيان وإشاعاته . . والطاغية كما رأينا قبلا ، لا يمكن أن يكون فاضلا ، وبالتالى لا يمكن أن يصدر عنه عمل فاضل . ومن باب أولى أكاذيبه . لن تكون فاضلة أبدا . . ! ! !

إن نبأ « سافونارولا » يأخذ بخطامنا إلى الحقيقة فى هذا الموضوع . فذلك الراهب الجليل صنع من أجل الحرية والفضيلة ما يفتن الألباب . . بث فى روح قومه ولاء دينيا للديمقراطية ، وللعدل ، وللفضيلة . وآمن

به الناس كأنه نبي ورسول ، ومع هذا ، فقد تحول إلى زنديق ، ومفسد للأخلاق ، ومثير للفتن والخراب . .

هل تحول حقيقة أم بهتانا . . ؟

بل بهتانا ؛ فقد كان هناك « بابا » من آل بورجيا بذ جميع فجار زمانه ، أطلق الأشاعات الكاذبة فى أعقاب الرجل الفاضل تعاونه فى هذا قوى الاستبداد والشر وضلل القطيع الذى يسمى الشعب (١) فاندفع يهتف بالموت للكافر . ! ! لم يكن الكافر الذى يعنونه ذلك ، البابا الذى عاشر بنته معاشرة الزوجات . . . بل كان « سافونارولا » الزاهد العابد الذى علمهم الفضيلة وأحياها فى نفوسهم . .

وتحت المشنقة التى أعدت له . نظر إلى بعض تلامذته وقال : « لم أكن أنتظر أن تتحول المدينة كلها ضدى بهذه السرعة . . اجعلوا الايمان ، والصبر ، والصلاة أسلحتكم » .

وأصيبت « فلورنسا » بردة خلقية لم يكن منها بد . . ورأى الذين هداهم « سافونارولا » من قبل . الذين أخذهم من المواخير وموائد القمار إلى المسيح وإلى ملكوت السماء . رأى هؤلاء ، وكم كانوا كثيرين ، الويل الذى صب على معلمهم وهاديهم ؛ فشكوا واستراموا ؛ ثم كفروا . ثم ازدادوا كفرا . . وسرعان ما حملتهم أقدامهم وأنفسهم إلى ما ضيهم الذى حررهم منه « سافونارولا » وعادت « فلورنسا » من جديد ترقص على أنغام الضلال فى مأتم الفضيلة . . ! !

فى الحياة الحرة الطلقة تموت الأشاعات فور ميلادها . وبذلك يخلو السبيل بين المجتمع وبين الحياة العقلية الرفيعة التى يبصر بها رؤى الجمال

والعظمة . . ومثل هذه الحياة العقلية ضرورية . بل لا شيء يبلغ مبلغها من الحتمية لوجود مجتمع فاضل ذي سلوك سوي رشيد . وهذا ينقلنا إلى حلقة هامة من حلقات الحديث .

الانحطاط الخلقي ، ابن شرعي للانحطاط العقلي

أتعرفون العبارة الجليلة التي استهلت بها مؤسسة الأمم المتحدة للتربية والثقافة دستورها . . ؟

ربما يكون من المفيد أن نبدأ بها هذا الجزء من الحديث .

ـ « تصرح حكومات الدول المشتركة في هذا الدستور بالنيابة عن شعوبها ، أنه ما دامت الحرب تبدأ في عقول الرجال ؛ فانه ينبغي أن توطد دعائم الدفاع عن السلم في عقول الرجال أيضا » . . .

انظر .ا، ما دامت الحرب تبدأ في عقول الرجال ؛ فدعائم السلام يجب أن توطد في نفس العقول أيضا . وهذا حق .، ومثله في الصدق أن نقول:

— « ما دامت الرذيلة تبدأ في عقول الرجال ؛ فان دعائم الفضيلة يجب أن توطد في عقول الرجال أيضا . »

وهنا يلقانا سؤال :

— هل تبدأ الرذيلة في عقول الناس . . ؟

وقبل الاجابة على سؤالنا هذا ، يطيب لي أن أتخيل مفارقة طريفة في ملكوت الله الرحيب . .

أتخيل علماء الأرض وعيونهم على المنظار الشاخص إلى الرحاب القصية في الفضاء ، متطلعة إلى المريخ في تمعن وفحص . ثم أسمعهم يقولون :

« ليس في قدرة الأحياء أن يعيشوا على سطح المريخ لأن رطوبته كفيلة

بقتلهم . . ولذا نرجح — نحن علماء الأرض — أنه كوكب غير مسكون . !

وأتخيل علماء المريخ ، فى نفس المشهد تشخص أبصارهم إلى كوكبنا ، ويقولون : « ليس فى قدرة الأحياء أن يعيشوا على سطح الأرض . لأن حرّها كفيل بأن يقتلهم . ، ولذا نرجح — نحن علماء المريخ — أن الأرض كوكب غير مسكون . ! !

إن مثل هذه التخمينات يتبادلها الأخيار والأشرار . . يتبادلها سكان كوكب الفضيلة . ، وسكان كوكب الرذيلة . .

فالأولون يستبعدون أن يكون أصحاب الرذيلة أحياء ، لأن حرها كفيل بقتل أرواحهم . . !

والآخرون يستبعدون أن يكون أصحاب الفضيلة أحياء ، لأن رطوبتها كفيلة بأن تهرأ وجودهم . . !

وكلا الفريقين مقبل على اهوايته . شغوف بها ، فمن الذى يفصل بالحق ، ويقضى باليقين ؟ . من الذى يدلنا على الفضيلة الصحيحة ، والرذيلة الصحيحة ؟ .

الحق أننا نحن سكان هذا الشرق العربى أحوج ما نكون إلى إدراك صحيح وجديد للأخلاق . فى حاجة إلى تحديد واضح لمفاهيم الفضيلة والرذيلة . والخير والشر . فليس هنا شىء التبس فيه الحق بالباطل . وكثر حوله اللغط وقل الفهم الصحيح . كما حدث للأخلاق والسلوك . .

عندما أفرغ « المحضر عثمان حموده » رصاصاته الست فى حياة ضحيته فأرداها . استدعى من فوره إحدى قريباته ، ليستودعها بعض متاعه وآخر كلماته ووصاياه . .

أتدرون ماذا قال لها . . ؟ كلكم يامن طالعتم قصته فى الصحف وقعت أعينكم على وصيته . ولكنى أحسب أن قلة نادرة منكم هى التى وقفت أمام هذه الوصية فى تأمل واعتبار .

لقد قال ، وهو يعلم أنه ذاهب إلى القصاص . تاركا الحياة والأحياء وراء ظهره المدبر . . قال وهو يعيش فى الساعة التى تقرع له أبواب النهاية . . قال العبارة التى يقولها المدلفون إلى الكفن ، فيلخصون بها حياتهم وثقافتهم وكيانهم جميعا . . فماذا كانت العبارة التى لخصت حياة « عثمان » وثقافته وكيانه . ؟

إنها أصدق سمت — فى رأيى — للمجتمع الذى نعيش فيه . المجتمع الأبله ، المنافق ، السطحى . .

قال القاتل وقريبته تسأله : هل تريد أن أقول لأهلك شيئا . ؟

— « نعم ، سلمى على خالتى وأختى ، وقول لهم أوعوا تبصوا من الشباك » . . ! ! !

احذرى يا أخته أن تنظرى من النافذة . . !

هذه هى الوصية الخلقية الفاضلة التى يزجيها وهو ذاهب إلى ربه شاب أنهك الرذيلة وأضناها . . فهو باعترافه ، قارف خيانة بشعة لرجل فى مكانة خاله . . قارف خيانته مع الأم أمام بنتها ، ثم مع البنت الطفلة أمام أمها . . ثم سفك الدم ، وأزهق الروح ، وقتل النفس التى حرم الله قتلها . . ثم أطلق خوار الفضيحة فى غير حياء أو أناة . .

ثم ماذا . . . — لا تنظرى من النافذة يا أخته . . فتلك هى الرذيلة ، تلك هى الموبقة ، تلك هى الخطيئة التى لا تطهرها مياه البحار . !

مجتمع عفن يفكر تفكيراً عفنا ، ويعيش داخل تقاليد عفنة . .
ولماذا هو كذلك . . ؟ الطغيان . . فالطغاة الذين تواكبوا على حياته من قديم الزمان ، وتعاقبوا على أرضه لم يتيحوا لعقله فرصة التبصر والتألق . بل شحنوه شحنا معتما بخرافاتهم وخداعهم .

إن « عثمان حموده » هذا حفيد للرجل الطيب الذى عاصر « السلطان سليمان » وكلنا مثله حفدة أولئك الآباء الذين أصدر فيهم « سليمان المذكور » مرسوما من مادتين .

الأولى ، تجعل جميع الأرض المزروعة ملكا له . وأصحابها أجراء عاديين وملتزمين لا مالكين . .

والثانية ، تحرم على المرأة أن تخرج فى الطريق العام غير متنقبة . فمن تفعل وتخرج سافرة . تزف فى شوارع المدينة ممتطية حماراً بالمقلوب . . ! ! !

أى أنه يسرق شعبا ، ويغتال أمة . . هذه فضيلة (!)

أما الرذيلة ؛ فهى أن تسير المرأة وليس على وجهها حجاب . . (!)

تماما كما فعل « المحضر القاتل عثمان » فهو يمرح ويرعى فى أعراض الناس . ؟ ويقتل فى استخفاف ، ثم يتجشأ وصية كمرسوم السلطان سليمان ، فينهى أخته عن النظر من . . « الشباك » . . ! !

ألم أقل لكم إننا أبناء الذين افهمم تقاليد الطغاة فى مثل الضباب . ؟ !

العقل وحده هو الذى يستطيع أن يعطى مفاهيم صادقة واعية لما هو فاضل ، ولما هو مرذول .

وحيث يوجد التفكير الحر المتألق . . تستطيع أن تبصر موكب الفضيلة يحتشد ويتجمع ليبدأ فى هذا المكان رحلة الاكتمال الصاعد

والسلوك القويم . . وأما الانحطاط العقلى فهو الأب الشرعى للانحطاط الخلق . . هو أبوه وأمه وحاضنته وحامى حماه . .

فلنر الآن كيف هو كذلك . . ثم لنر أثر الطغيان فى انحطاط العقل وعرقلة نموه ومسعاه .

فى الكتاب المقدس . نلتقى بيسوع يقول :

— « . . وأنا أطلب من الأب ؛ فيعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم إلى الأبد . روح الحق . . . »

ما هو روح الحق الذي سيمكث معنا إلى الأبد ؟ . .

إنه العقل ، وليس هناك شىء سواه يستطيع أن يملأ رحاب هذه الآية المقدسة . .

وفى القرآن الكريم . تبهرنا الآيات الهاتفة بالاستقامة والسعى والتفوق إذ نراها مختومة غالبا بقول الله سبحانه « لعلكم تعقلون » ، « لعلهم يفقهون » ، « لعلهم يعلمون » .

ويصور الرسول قيمة العقل فى حديث طريف فيقول :

— « عندما خلق الله العقل . قال له : أقبل ، فأقبل . . ثم قال له : أدبر ؛ فأدبر . ؛ ثم دعاه وقال له : اذهب ؛ فأنت لعبادى سلطان وعليهم شهيد . إياك أسأل ، وإياك أعطى ، وبك أحاسب » . . .

ثم يبين فى وضوح أكبر ، الارتباط الوثيق بين العقل والسلوك ؛ فيرفع المسئولية عن الناس فى الحالات التى يتوقف العقل فيها عن أداء وظيفته سواء كان ذلك طارئا كالأغماء ، أم مقيما كالجنون . . ولقد كان « توما الاكوينى » يقول :

— « إنه لما كان كل من العقل والايمان هبة من هبات الله . فهما بالضرورة متوافقان . » ومثل هذا نقول : « إنه لما كان كل من العقل والفضيلة ضروري لسعادة الانسان ؛ فهما بالضرورة متوافقان . »

الآن إذن نعلم الأجابة عن السؤال الذى طرحناه آنفا إذ قلنا : أصحيح أن الرذيلة تبدأ فى عقول الرجال . . ؟

أجل إنه صحيح . وعندما يذهب عقلك فى إجازة (!) يرفع الله عنك جميع المسئوليات . . وما دام العقل مناط المسئولية الأخلاقية ؛ فلنبدأ منه المنهج الفاضل لمسئلة السلوك والأخلاق .

فمنذ بدأ الانسان والأمر كذلك . والعقل هو الذى كان يعين لنا فضائلنا ورذائلنا . . فيوم لم يكن مع البشرية وحى ودين ، لم تكن بغير أخلاق . بل كان لها فضائلها وأخلاقها التى تهب المجتمع ثباته وأمنه .

فمثلا كان القتل جريمة ورذيلة . . ؟ فمن الذى جعله كذلك . .

العقل . الذى أنبأهم أن التسامح مع هذا العمل سيفنى القبيلة ، ويسبب من المشاق والعطب ما يوقف النمو ويعطل الحياة . وهنالك صار القتل جريمة مرذولة . ثم وضعت التشريعات التى تؤكد ذلك وتنظم له العقوبة والقصاص . ففى شريعة حمورابى التى لم يكن فيها حظ من وحى ولا نصيب من دين . نقرأ هذا النص الرائع الذى سبق اليهودية والمسيحية والاسلام . « العين بالعين ، والنفس بالنفس ، والسن بالسن . وفى الأطراف دية » . . ! ! !

والعقل هو الذى اكتشف أخيراً ، ولا يزال يكتشف المنابع الحقة للرذيلة . ويضع الوسائل المجدية الفعالة فى العلاج الخلقى . فصلته بالسلوك ،

وحتميته لتعليته وترقيته لا ينكران أبدا . . وكيفما يكون عقلك ، يكون سلوكك أيضا .

وقد يسألنا سائل : أنت ذكرت فى ـ هذا . . أو الطوفان ـ أن الوصف الحق لخطايانا أنها أمراض . . فهى تبدأ أخطاء فى سلوكنا . ؛ فاذا رسخت صفة الأدمان تحولت إلى مرض خلق . . وما دام ذلك كذلك . أى ما دامت رذائلنا وخطايانا مجرد أمراض ؛ فما صلة العقل إذن بقضية السلوك والأخلاق ؟ !

أليس يصاب بالأمراض العضوية أناس بلغوا أرفع منازل العقل والذكاء . ، وإذن فقد يكون حالهم مع المرض الخلق . ؟

ونجيب بأننا لا نضع الحالات الفردية ، والمثل الطارئة موضع القاعدة . . هـذا أول .

والشيء الثانى ، هو أن الذين يحملون عقولا ذكية حصيفة مسيطرة قلما يصيبهم المرض الجسمى بنفس الضراوة واليسر اللذين يصيب المرض بهما من هم أدنى منزلة فى الذكاء وحظا من العقل . . ذلك أن العقل الذكى الصارم ينأى بأصحابه عن دواعى العلة . من تخمة فى الأكل ، وإفراط فى السهر ، واستسلام للشهوة . شهوة النفس وشهوة الجسد . . وهو بهذا يؤدى دوراً وقائيا هاما يتحاشى به الكثير من أمراض الجسم . وكذلك يستطيع أن يقوم بنفس الدور فى تحامى الأمراض الخلقية .

فالمرض الخلق يجتاز أدواراً عدة قبل أن يصير مرضا . ويستطيع العقل الصارم البصير أن يحتجزه عند أولى هذه المراحل أو خلالها . . فهو يبدأ رغبة . ، ثم يصير سلوكا . ، ثم يكون عادة . ، ثم يغلب عليه

الأدمان الضاغط . فيصير مرضا خلقيا مقيما .. وهكذا يواجه العقل فرصا كثيرة يستطيع بها أن ينقذ الضحية من سوء المصير .

ثم إننا نتحدث هنا بصفة أكثر عن عقل الجماعة .. فالمجتمع ما لم يشع فيه نور العقل لا يمكن أن يكون فاضلا بل ولا يحق له أن يطمع فى إحراز الفضيلة .

وعقل المجتمع يعطيك فكرة كاملة عن شخصيته ، وعن سلوكه ..

فعندما كان العقل ـ غابياً ـ أعنى عقل غابة ، كان هناك سلوك الغابة ..

وعندما كان العقل ـ إقطاعيا ـ كان ثمت سلوك الأقطاع بفضائله ورذائله ..

واليوم والعقل صناعى ، نجد سلوك الآلة وأخلاق الآلة ..

وعندما يكون العقل ـ مسيحيا ـ نجد أخلاقا مسيحية وحضارة مسيحية ..

وعند ما يكون ـ إسلاميا ـ نجد أخلاقا إسلامية ..

ولو أن عقل « آل كابونى » وتفكيره توفر لهذا الشيخ الورع الذى ينهى الناس عن تعذيب هرة .. ، لصار هو آل كابونى ... !!

ومن الخير أن أعترف بأننى كنت من أكثر الناس جحوداً لهذا الرأى ، وصداً عنه .. وكنت أقول للناس وأنا أعظهم . « أكثر أهل الجنة البله » أى أن البله والمغفلين هم أهل الفضيلة والتقوى . بدليل أنهم أكثر أهل الجنة ..

أما الآن ؟ فقد عرفت .. ، وكيفما يكون عقل الفرد يكون سلوكه . وكيفما يكون عقل الأمة يكون سلوكها .

ولسنا نعنى بالعقل هنا أن تكون فيلسوفا ، أو مخترعا ، أو أديبا كبيرا . إنما نعنى العقل المتزن ، والذهن الثابت نعنى سكينة النفس

وسكينة التفكير . نعنى العقل الذى عناه ذلك الفيلسوف الصادق الذى دعا ربه قائلا : — « يارب اجعل نعم الحياة الدنيا جميعها تحت أقدام الحمق ، وأعطنى عقلا غير مضطرب » . .

وسكينة العقل وسكينة التفكير لا توجدان قط . حيث يفرخ طاغية ويبيض . سواء كان هذا الطاغية فى الدولة ، أو فى المدرسة ، أو فى البيت .

وسنرى فى الفصل الثانى ، كيف فقدنا القدرة على حيازة فضائل النفس ، لأننا فقدنا سكينة العقل والنفس . . وكيف فقدنا هذه الأخيرة بسبب القهر والعسف اللذين نلقاهما منذ نعومة أظافرنا فى المنزل وفى المدرسة وفى المجتمع . واللذين يشيعان فى عقولنا الاضطراب وفى قلوبنا المسكنة ، وفى أخلاقنا التشويه .

إن نظرة عابرة إلى أخلاق الإنجليز والفرنسيين مثلا — تضع بصيرتك على عامل من أهم عوامل الفارق الكبير بين أخلاق الأمتين والشعبين . .

فالفكر الفرنسى خصيب جياش . والعقل الفرنسى ذكى ثاقب بيد أنه مضطرب نزق . . ومن هنا طبع سلوك الأمة الفرنسية بالدم ، والفتنة ، والخلاعة . .

أما العقل الإنجليزى ؛ فأكثر ثباتا وطمأنينة وأناة . . ومن ثم اتسم سلوك ذويه بما يناسب عظمة ذلك العقل وهدوءه . وكيف واتت الفرصة العقل الإنجليزى فاكتسب السكينة ونأى عن الاضطراب ؟

من شىء واحد . . هو المناخ الحر الديمقراطى الذى تهيأ لهذه الأمة من زمان بعيد جد بعيد . . والذى تشبث به الإنجليز تشبثا باهرا على النحو الذى سنبينه على الصفحات القادمة .

إن العلم يقرر اليوم أنه حيث ينحط الذكاء ، ويتقاعس العقل ، يوجد

حس أخلاقى ناقص ، كما هو الحال بين الجماعات المتوحشة . . وهنالك فارق كبير بين سلوك أوربا المتبربرة . . وأوربا المتحضرة بل بين المجتمع الإنسانى القديم ، والآخر الحديث . وهكذا كلما تقدم العقل وثبتت أقدامه . تقدم معه السلوك القويم ورسخت دعائمه .

فكيف نتيح للجماعة نمو العقل واتزانه وسيادته ، لتتمكن بالتالى من تطوير سلوكها ؟ !

إننا بهذا السؤال نبلغ المرحلة التى نجيب فيها عن سؤال ألقيناه آنفا . وهو : ما مدى تأثير الطغيان على الحركة العقلية فى الجماعة . وهل يتأتى لعقل الأمة وعقول الأفراد أن تنمو وتترعرع فى ضباب حكم الطاغية — أى طاغية . . ؟

ونجيب بأن ألد أعداء العقل هو الحجر ، والوصاية ، لا سيما حين تكون الوصاية لسفيه . ، والطاغية دائما سفيه . . ! !

فالطاغية يقوم سلطانه واستكباره على بغضاء معصوبة العينين لكل من يقول له فى جد وحزم ، لم . . ؟ ، ولا . .

وإذا كان العقل يبدأ رحلة نمائه بتحوله إلى أداة استفهام دائبة ، فلا يفتأ يسأل ، لم ، وكيف ؟ ولماذا . . ؟ ؟ فأنه إذن يرتطم ارتطاما مباشرا ، وصعبا بمشيئة الطاغية . سواء كان هذا الطاغية ، حاكما ، أو نصا ، أو تقليدا من التقاليد . .

عندما قام رجل من خير أدباء ألمانيا يحذر الأمة من الطريقة الجديدة التى يربى بها « هتلر » شباب المدارس حيث أحالها إلى « ثكنات » ولم يبق لها من سمات المعاهد إلا قليلا . . وحصر دروس الألعاب سيما

مدارس المرحلة الأولى فى ألعاب « الجاسوسية » ، و « هجوم الدبابات » إلى آخر هـذه الأشياء . . ماذا كان جزاؤه . ؟ لفقت له التهم لينزل ضيفاً عزيزاً على السجن ، لولا أن تمكن الرجل من الهرب إلى سويسرا حيث وضع فى خدمة نظامها الحر كل مواهبه وفنه . .

فهذه مسئلة من مسائل التربية أبدى فيها رأى عابر . فلم يسمح النظام غير الديمقراطى وغير الحر بأبدائه . . وهكذا يصدق قول الفيلسوف الذى قال : « إن العبد لا يستطيع أن تكون له أخلاق لأنه لا يملك اختيار خلق لنفسه إن سيده هو الذى يفرض عليه نوع سلوكه وحياته . »

إن الحياة كما يقولون : عملية هضم وتمثيل . فكل ما فى الجماعة من استبداد وعوز وخرافة يمتزج بكيانها ويثمر سلوكها . وإن جميع العلف الذى يغذينا به الطغيان من آراء يحارها ويفرضها لتتحول وتصير أنت ، وأنا ، والآخرين .

ويبلغ الانحطاط العقلى أوجه البعيد فى ظل الطغيان . لماذا . . . ؟ ؟

لأن الطاغية يعتمد لدعم سلطانه ، وإرساء دواعى البقاء والاستمرار لحكمه ، يعتمد فى هذا دائما على إحياء غريزة القطيع فى الأمة ، وإذا استعلت غريزة القطيع على عقل الجماعة فى قوم فماذا يحدث .

تستطيع أن تدرك ذلك بموازنة عابرة بين كلمتى غريزة وعقل . . وكلمتى قطيع وجماعة . . ؟ !

وأرجو أن تدرك إدراكا واعيا ، أن سيادة غريزة القطيع واستعلاءها ، واضمحلال عقل الجماعة وخفوت صوته أثران محتومان ، وابنان شرعيان

لـكل طاغية قام أو سيقوم فى هذه الأرض .

إن الأخلاص العقلى لما هو حق . يدعونا للضغط على هذه الـكلمات كيما تنطلق مبينة واضحة . ويدعونا للتـكرار والتوكيد حتى نمنح الوضع ما يستحقه من اهتمام .

إن تطويع الأفئدة والعقول لحـكم الفرد يقتضى هذا الفرد أن يسرف فى استعمال الاستهواء والدعاية . وهو لا ينفك بالليل وبالنهار . فى السر والعلن . ، بشتى الطرق يبث رأيا واحداً ، هو رأيه . . ويبشر بوجهة نظر واحدة هى وجهة نظره . ، وهو يطلق دعاواه ومنهجه المرسوم فى طوفان هادر موصول الموجات متساوق الضربات ، ويجد عقل الجماعة نفسه فى دوامة هائلة ، لا يكاد يخلص منها وينجو حتى تبتلعه دوامة أخرى . ، ولا يكاد يفيق من هذه الثانية حتى يكون قد ترنح واستخذى وتدحرج فى هدوء الموت إلى جوف الطوفان . .

لقد كان الشعب الألمانى عظيما . . شعب العبقرية ، والنبوغ . ، ومع هـذا فأن عقل الجماعة فى ذلك الشعب العظيم لم يستطع أن يصمد أمام وسائل الاستهواء النازى الذى شنته الأذاعة والصحافة ، وخطوات الأوز ، ومهرجانات العنصر الآرى الشريف (!) لم يستطع عقل الجماعة أن يصمد فى شعب كذلك الشعب ، واستسلم لغريزة القطيع . .

ماذا كان الثمن الذى دفعه الألمان ليس فقط من مستقبلهم . بل من أخلاقهم . . أجل من أخلاقهم فهى المسئلة التى تعنى هذا البحث .؟

حدث ما يحدث دائما عندما تحاصر أمة بطاغية يحـكم . وغريزة قطيع

تفكر . . نخضع السلوك الألمانى ، والخلق الألمانى لأبشع رذائل الأرض . ، ألا وهى التعصب . .

ومن سوء حظ بلادنا أنها لا تضع التعصب فى قائمة الرذائل الخلقية . . إنه ، وعند المثقفين فقط قد يكون رذيلة عقلية لا غير . . لهذا نشعر بصعوبة موقفنا الآن ونحن نصف التعصب بأبشع رذائل الأرض . . ! !

ذات يوم ذهب إلى الرسول عليه السلام رجل يسأله عن الأثم الذى إذا تركه ، وتخلى عنه ، انتصر على كل آثام نفسه ونزواتها . . فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : لا تكذب . .

وقفل الرجل مصمما على ألا يكذب ، فكان كلما راودته نفسه عن رذيلة ، وقف مستأنيا يسائلها :

— إذا اجترحت هذه الرذيلة ، وسئلت عن فعلها ؛ فأما أن أصدق أو أكذب. فإذا صدقت نزلت بى عقوبتها البدنية . .

وإذا كذبت أكون قد حنثت بعهدى ، وفقدت عزيمتى وتصميمى . .

وهكذا أفضى به إصراره على الصدق وترك الكذب إلى معظم فضائل النفس ، ومكارم السلوك . .

أى أن الكذب كان حسب تصوير القصة القنطرة التى تعبرها جميع الرذائل والموبقات . ! !

ألا إن التعصب لكذلك . ، مضروبا فى اثنين ..! لأنه كذب ، ولأنه ظلم . أما كيف هو كذلك ؛ فسنرجىء الحديث عنه إلى الفصل الثالث . وغاية ما نرجوه هنا إدراك أن التعصب قرين الحكم المطلق ، وثمرة الحنظل التى تثمرها شجرته الملعونة . .

ذلك أن كل أمر مطلق ، سواء كان دينا ، أو دولة لا يؤمن بحق الآخرين فى مخالفته . لأن معنى أنه مطلق أنه استوعب جميع عناصر الحق الذى لا يمارى ، والأحقية التى لا تسبق . والدولة فى نظر الطغاة أمر مطلق . . كما عرفها أحدهم ، وهو طيب الذكر جداً . . موسولينى .

وإذن فصاحب هـذا الأمر المطلق وسيده لا يعترف للاخرين بحق مخالفته ، ولا يؤمن بتعدد النظر إلى الأشياء . إنه ينظر من جانب واحد ويعتد برأى واحد . . وهكذا إذا تحولت الجماعة المذعنة الطاغية إلى وكر للتعصب المدمر فالجريرة جريرته هو والأمر لا يعدو أن يكون انتقال عدوى من ذلك الذى يتفانى فى التعصب لذاته ، ومصالحه وآرائه . . ويلعب الاستهواء الضدى دوراً ناجزاً فى هذه الحالة . ؟ فتسارع الجماعة إلى عكس ما يريد الطغيان أن يروضهم عليه فتتفتح أنفس الأفراد ، ونفسية الجماعة لـكل دواعى التعصب المضاد ثم التعصب بصفة عامة فتستجيب سريعا لـكل من يقدم إليها دعوة متعصبة ، أو مذهبا متعصبا لاسيما إذا كانت هذه الأمة أو الجماعة قد قطعت شوطا طويلا مبهظا ينتظم آلاف السنين وهى تعيش تحت وطأة طغيان متنوع ، وغزو متلاحق ، كأمتنا وشعبنا . .

أهذا فقط هو كل ما يجنى به الطغيان على العقل وبالتالى على الأخلاق ؟؟ . .

لا ، فهو بطبيعته عدو الثقافة الحرة ، وقاطع الطريق على قافلتها المباركة . وإذا نحن علمنا أن الافـكار الـكبيرة المضيئة ، هى قبل كل شىء سواها ، التى تخلق الأمم العظيمة ، أدركنا مدى العرقلة الآثمة التى يبذلها الحـكم المطلق ضد النهضة الصادقة للأمة ، نهضة العقل ، ونهضة النفس . .

لـكى تظفر الجماعة بأخلاق كبيرة . ، لابد من ظفرها أولا بأفـكار

كبيرة . . ولكى تظفر بهذه يجب أن يتحرر عقلها من الجهالة . . والسبيل الوحيد لذلك هو تحرير الضمائر من الفزع . ومصدر الفزع هو الطغيان ، والقسوة والتحكم .

إذن فبداية البدايات لأيجاد مجتمع فاضل مستقيم حى أن نحرر رقبة هذا المجتمع من كل حكم مطلق ، . وأن يشعر أفراده أنهم لا معقب لحكمهم ولا سيد فوقهم سوى مشيئتهم كجماعة وكشعب

ألا إن الخلق الأدبى عمل روحى قبل أن يكون شيئا آخر ، وحسبما تكون روح الأمة يجىء تفكيرها ، كما أنه كيفما يكون تفكيرها تكون روحها فكلاهما يعمل فى الآخر طرداً وعكسا . . وإنك لترى المفكرين الأحرار الذين شرعوا أقلامهم كالسيوف المواضى دفاعا عن الحرية قد نشئوا دائما أو غالبا فى أمم وجماعات تهوى أفئدتها للحرية وتطير أرواحها إليها وتصطك محاولاتها بفرص الزمان لبلوغها .

ولكن الفكر الذى نعتبره خفقا وارتيادا . والذى يعطى الجماعة نهجا كريما لحياتها ، هيهات أن يوجد فى ظل طاغية . فالطاغية بدهائه ونزوعه الدائب إلى السيطرة يعمل ليكسب إلى جانبه جميع الفرص التى تحقق له نزوعه المسعور . وهذه الفرص تتمثل طبعا فى القوات الاجتماعية الموجودة فى الأمة . وعلى رأس هـــذه القوات الاجتماعية ، الفكر . . . .

ويبدأ الطاغية متوسلا بالرغبة ، فيطلق فى نفوس المفكرين والمؤلفين والكتاب أبوا عامن الشهوات، ويبسط لهم موائد الجاه والمال والشهرة ؛ فيستجيبون له . وعندئذ لا يتساءلون عند ما يحملون أقلامهم : ماذا يجب

أن نكتب لنهدى إلى الحقيقة .. بل ماذا يجب أن نكتب لنرضى الطاغية..

أجل ، لايكتبون ليعرفوا وينيروا .. بل يكتبون ليكسبوا ويشهروا .

أقسم ، لوأن أمة من القديسين انحرف فيها الفكر الحرّ عن رسالته ، وزيف من أجـل الغرض والهوي ، لتحول قديسوها من فورهم إلى شياطين وأبالسة . .

إن كل عمل جليل يتم على هذه الأرض . . كل شجاعة خارقة تتقدم . . كل رحمة وارفة تسود . . كل ثورة إنسانية تنجح . . كل مرض عضال يقهر . . كل تقدم إنسانى يزحف . .

أقول إن كل شيء من هـذا يحدث ، تجد وراءه شيئاً واحد رائعا وملهما وخالقا ، ألا وهو : الفـكر . .

والـكلمة المسطورة هى الأم الرءوم التى ولدت ولا تزال تلد كل عمل نبيل وجليل . . . وأيضا هى التى تلد — إذا كانت شريرة كل وزر وكل ضلال .

فخير مايهدى إلى الفضيلة أن تعيش الجماعة فى كنف الكلمة الطيبة .. وشر مايهدى للرذيلة أن تعيش فى مستنقع الكلمة الخبيثة ..

ألم يقل الله ذلك . . ؟

« مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء . تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » . .

« ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة ، اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار » .

إن الكلمة الطيبة لها مناخ واحد لا يتبدل ، هو حيث ديمقراطية الحكم ، وحرية الفكر والقول والعمل . .

كما أن للكلمة الخبيثة مناخها المعتم . . حيث يوجد ذلك الصعلوك الذى يسمى طاغية ، فترتفع أصوات التافهين الذين يتخذون من الفكر والأدب تجارة ولهواً . . والذين تضن عليهم الحقيقة بنفسها ؟ فيغمسون أقلامهم فى مداد اللغو والبهتان . . بينما ينزوى الذين عندهم علم من الكتاب ، ونور من الحقيقة ، عازفين عن الشهرة التى ثمنها الكذب ، وعن المال الذى طريقه التسليم ، وعن الراحة التى ثمنها خيانة المعرفة ..!!

بين أدب الأمة وأخلاقها رباط وثيق . .

فمن أدب أثينا ، تعرف أخلاقها . .

ومن أدب الرومان ، تبصر سلوكهم . .

وبين أدب الفرنسيين وأخلاقهم وشيجة . .

وبين أدب الإنجليز وأخلاقهم صهر ونسب . . !

فإذا أراد قوم أن يجدّوا فى رفع مستوى الأخلاق ، فعليهم أولا أن يرفعوا مستوى الفكر والأدب .

والفكر والأدب لا يرتفعان بتنمية نزعة الكسب عند الأدباء والمفكرين . . ولا بفرض الرقابة على الفكر الذى خلق ليحلق فى الفضاء الحرّ . . ولا يرتفعان بشحن ضمائر الأدباء بالفزع تارة وبالشهوات تارة أخرى .. ولا بردم المنابع العذبة الصافية التى تروى الثقافة بالماء الزلال.. ولا بالحط من شأن الثقافة الحرة . ورفع لواء الهوس الغوغائى . .

وإذا وجد رجل يقترف كل هذه الموبقات التى تهيىء للانحطاط العقلى

والانحطاط الخلق ؛ فلن يكون هذا الرجل سوى الطاغية . ، وكل فكرة يمكن أن نتصورها عن اختناق الفضيلة بالطغيان جديرة بأن تكون دون الحقيقة الواقعة .

مصرع الباعث الخلقى ..

فى « هذا . . أو الطوفان » قلنا إن المحاولة الأخلاقية الرشيدة تبـــدأ بتعلية الباعث ودعم سلطانه . لأن الأخلاق فى واقعها الحق ليست أكثر من الباعث ، وقلنا إن السلوك الخير بدون باعث يزجيه لا يساوى شيئا . وأعمالنا نفسها لا توصف بالحسن والقبح إلا تجوزا ، وإنما يوصف بهما أصلا بواعثنا . . وضربنا لهذا مثلا — القتل . . فنحن نراه جريمة فى حالة ، وفضيلة فى أخرى . أى أن صفته تتـكيف وفقا لدوافعه .

فهو جريمة إذا كان باعثه العدوان . .

وهو فضيلة ، إذا كان باعثه الدفاع عن الوطن . .

والآن نريد أن نعرف ، هل يتوفر للناس فى مجتمع مستعبد أغراض صالحة ، وبواعث شريفة تهيئهم لسلوك فاضل مستقيم . . ؟ ؟

سنرى أن ذلك غير موات ولا ممـكن . لأن الطغيان يسلب الجماعة إرادتها ، وحريتها واختيارها . . والباعث الخلق لا وجود له — أدنى وجود — إلا حيث تـكون إرادة وحرية واختيار .

لـكل سلوك إنسانى باعث ودافع ، أى رغبة توجهنا نحو غاية . .

وعلماء الأخلاق والنفس يقررون أن دوافعنا مزدوجة ، فهناك الدافع الابتدائى . . وهناك أيضا الدافع الغائى .

فأنت عندما تسلك سلوكا ما ، أو تسير فى عمل من الأعمال ، تحتاج لقوة تدفعك ، وغرض يناديك . . إن القوة الدافعة الحافزة ، تمثل الدافع الأولى . . والغرض الذى يناديك فتسعى إليه يمثل الدافع الغائى . . وأعمالنا إنما توصف بالدافع الثانى أى الغائى . فإذا كان شريفا فاضلا ، كان سلوكنا شريفا فاضلا ، وإذا كان أثرا رديئا ، كان سلوكنا كذلك رديئا . .

والباعث الأولى تلقائى ، لأنه ينبعث من غرائزنا وقوانا الفطرية . أما الثانى فكسبى ، لأننا نختاره كنوع للغاية وللغرض اللذين ينبهان غرائزنا ويحفزان قوانا .

ويضرب لنا « هادفيلد » مثلا - رجلا سياسيا يخدم وطنه وبلاده . . إن الدافع الأولى الذى ينبثق من غرائزه ويمنحه القوة والمغامرة قد يكون أهمية الذات وحب التفوق والظهور والمجد . ، بيد أن أهمية الذات وحب الظهور يمكن أن يعبر عنهما تعبيرا رديئا كالزهو والكبرياء والعدوان . .

فإذا عبر السياسى النظيف عنهما بخدمة بلاده ووطنه . كان ذلك الدافع الغائى جليلا وكان السلوك عظيما . .

ومثلا آخر . . هذه السيدة التى تحنو على الساقطات من بنات جنسها ، وتقضى وقتها فى العمل الدائب لانتشالهن من الوهدة . . إن الباعث الأولى بالنسبة إليها قد يكون رغبتها اللاشعورية فى الاستطلاع

الجنسى . . ولـكن هذه الرغبة أيضا كان يمكن أن يعبر عنها تعبيرا فاجرا مستهترا . . فإذا اتجهت به صاحبتنا إلى غرض نبيل كالذى ذكرنا ، كان عملها نبيلا ومسلكها حميدا .

وإذن فالدافع الغائى هو الذى يعطى سلوكنا صفة الجمال أو القبح . . ، وهو يواتينا بقدر ما معنا من تربية ، وما فى بيئتنا من فرصة . .

أى أن الدوافع الغائية الشريفة إنما توجد وتترعرع وتنطاق للعمل فى الجماعات التى تشيع فيها الأفكار الكبيرة ، والعلاقات الغيرية السليمة . وحيث الأخاء والحب والشجاعة والسلام . . وبعبارة موجزة نقول : إن الدافع الغائى الفاضل يستمد وجوده من القيم الفاضلة المسيطرة على المجتمع . ، كما يستمد الماء وجوده من عناصره المكونة له . .

فهل للجماعة التى يفرخ فيها الطغيان ويبيض قيم عالية سامية . . ؟؟

إن ما تنتظمه الصفحات السالفة كلها من حجج وبراهين تقول : لا . ، وهى أيضاً مقولة الواقع والحق .

فالقيم قد توجد فى جماعة يحكمها طاغية ، ولكنها تكون فى حالة كمون واستخفاء وتوقف عن العمل . لأنها ليست كائنات حية ، تتحرك وحدها وتسعى . ، بل لابد لها من ناس تتقمصهم كى تعمل .

والناس فى حكم طاغ قد لايسلبون الصفات التى تمكنهم من الاستجابة لتلك القيم . ولكنهم يعجزون عن الأفادة منها والتعبير عنها تعبيراً سوياً قوياً وهذا مما يضاعف الخطر ويدعو للجزع . . فالشجاعة ـ مثلا ـ يختلف عملها فى المجتمع الحر عنه فى المجتمع المضطهد . إنها فى الأولى

خادم مطيع لكل قيم الحياة الفاضلة ، فهى هنا تعبر عن نفسها بالمخاطرة فى كشف أرض مجهولة ، أو مكافحة وباء فاتك ، كما تتمثل فى استبسال كل فرد فى أداء واجبه وقهر دواعى الأخفاق والفشل . .

أما فى المجتمع المضطهد ، فالشجاعة تلعب دوراً مغايراً . . لأن خصائصها الفاضلة تختفى وتكمن وتتربص حتى تتفجر أخيراً فى ثورة عارمة ، أو فتنة مدمدمة ضد الوضع القاسى الذى ناءت بحمله حيناً من الدهر .

وإذا الناس لم يجدوا واجباً يربطهم به دواعى الولاء ، فأنهم سينساقون لقوة تربطهم بها دواعى الفزع . ؟ فهكذا نحن بني الإنسان ، لا مناص لنا من أن نكون عبيد الواجب أو عبيد القوة . .

فإذا أخمدت جذوة القيم كما أسلفنا ، وخفت بالتالى صوت الواجب الذى كانت القيم تثمره وتزجيه ؛ فإن الشئ الآخر يهيب بنا فنستجيب له كارهين . . ذلك الشئ هو : القوة .

والقوة فى جماعة غير حرة وغير ديمقراطية لا تتمثل فى قانون ، ولا فى عرف قدر تمثلها فى الفرد الذى يحكم . . فى الطاغية . . وهكذا يصبح هذا الطاغية هو القيمة العليا للجماعة . ، وتصير شهواته وصلفه ودوافعه الأولية والغائية قدوة تحاكى ، ونهجاً يتبع . .

ولما كانت جميع دوافع الحاكم المطلق شريرة ، ورديئة . فأن دوافع الذين سيحاكونه لن تكون إلا كذلك . . وهكذا تلقى البواعث الأخلاقية الفاضلة الخالقة مصرعها الوبيل فى كل مجتمع ودولة تفسح فيهما الديمقراطية مكانها لحكم الفرد وسفهه وطغيانه .

ولما كانت البواعث الفاضلة تحيا بالتشجيع والأثابة ، فأن بوارها يصير محققاً فى الجماعات التى يسودها طغيان .

كيف يثيب الطاغية على الشجاعة ، وهى عدوه ؟ ؟

كيف يشجع الكلمة الحرة الشريفة وفيها نهايته ومصيره ؟ ؟

كيف يكافح الكذب والخيانة وهما حليفاه ؟ ؟

إن حرصه على الثناء يشيع خلق النفاق والملق فى الناس .

ولقد كان رجل ملهم كعمر بن الخطاب يدرك الخطر الذى يتهدد روح الأمة كلها عندما تنقلب مرائية مداجية . فكان يرفض أى مظهر من مظاهر التبعية ولو كان ضئيلا .

رأى ذات يوم ـ عبد الله بن مسعود ـ صاحب رسول الله عليه السلام يسير ومن ورائه كوكبة من المسلمين ؛ فما إن بصر به حتى أقترب منه وهو يقول فى تقريع لاذع : ـ ما شاء الله يا ابن أم عبد . . ! !

ثم صاح فى الذين يمشون خلفه ففرقهم ، وقال : لا تفعلوا ذلك مرة أخرى ؛ فإنه فتنة للمتبوع وذلة للتابع . . ! !

ورجل آخر عظيم جد عظيم ، هو عمر بن عبد العزيز قصدته امرأة من العراق . ولما ولجت بيته أدارت بصرها خلاله فلم تر فيه شيئاً ، فقالت : لقد جئت لأعمر بيتى من بيت أمير المؤمنين ؛ فإذا بيت أمير المؤمنين خراب . . ! ! !

فأجابتها زوجة عمر : إنما خرب هذا البيت عمارة بيوت الناس . .
ودخل عمر بن عبد العزيز ، وأقبل على المرأة يسألها عن حاجتها فقالت : ـ أنا امرأة من أهل العراق . لى خمس بنات كسل كسد . .

وحيثك أبتغى حسن نظرك لهن . فأخذ الدواة والقرطاس . ليكتب إلى والى العراق وقال للمرأة : سمى كبراهن . . فسمتها ، ففرض لها .

فقالت المرأة : الحمد لله . .

ثم سأل عن اسم الثانية والثالثة والرابعة والمرأة تحمد الله فى كل مرة . فلما هم ليكتب اسم الخامسة ، صاحت من فرحتها : حمداً لك يا أمير المؤمنين . . فسقط القلم من يد عمر وقال لها : كنا نفرض لهن حين كنت تولين الحمد أهله . وهو الله . . أما وقد نكصت سريعاً ؛ فمرى بناتك الأربع يفضن على أختهن الخامسة . . !!!

إلى هذا الحد كان الحكام الصالحون يخافون الثناء بل يخافون مادون الثناء بكثير . .

ولقد يقال : إنك ضربت مثلا رجلين لم تكن معهما « ديمقراطية » ومع هذا فقد كانا مثالا يحتذى للفضيلة التى تتعب لاحقها ومدركها . . ؟؟

ونجيب ، بل كان معهما « ديمقراطية » وارفة تملأ رحاب نفسيهما الكريمتين . وإن كان التطبيق الكامل للديمقراطية لم يكن فى الزمن البعيد ، وفى بلاد كجزيرة العرب النائية البادية مما يسهل أن يكون ،. كيف كانت أخلاق الناس فى أيام حاكم كعمر بن الخطاب ، وحاكم آخر مسلم أيضا ، كمعاوية بن أبى سفيان ؟ ؟

إن الفارق بين سلوك الجماعة هنا وهناك . هو الفارق بين سلوك الرجلين ، عمر ، ومعاوية .

وكذلكم عمر بن عبد العزيز ، الذى ساد فى عهده السلام والأخاء

والفضيلة مبلغا جعل عهده ينعت بأنه « الأيام التى كان الذئب يرعى فيها مع الشاه » . . ! !

وإذا كانت جميع فضائل الجماعة تبدأ من فضيلة الفضائل ، وهى : حب الوطن والولاء له ، ولاء يعصم أبناءه من خيانته أو هدم بنيانه ، أو تشتيت وحدته ، أو اعتياق تقدمه . .

نقول : إذا كان ذلك كذلك ؛ فأن دور الطغيان كمحرض عظيم على رذيلة الخيانة ، وما ينسل منها من رذائل ، يبدو واضحا مبينا .

هناك ظاهرة تلفت البصائر وتبهرها معاً . . هى أنه كلما عظم حب الناس لوطنهم ، عظم معه حبهم لأنفسهم . . فالسلام الاجتماعى الذى هو المناخ الصالح للفضيلة . لا يتأتى قط لجماعة يحملون للوطن ضغنا وحقدا . .

ولماذا يحب الناس الوطن يا ترى . . ؟

إنهم يحبونه لأنه المأوى الذى يصون حياتهم ، ومصالحهم .. والعش الجميل الذى يضم ذكريات حبيبة مشوقة . . الأمر الذى يعبر عنه الشاعر العربى فيقول :

وحبب أوطان الرجال إليهمو مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهموا عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

الوطن إذن هو المكان الذى يتاح لى فيه الاستقرار ، والسلام ، والعيش . . فإذا لم يشعر الناس بشىء من ذلك يفاء على سعيهم الحثيث وكدهم الدائب ، فإن إحساسهم بالوطن يتضاءل ويذوى . بينما ينمو شعور آخر بأنهم غرباء فى هذه الأرض ، وضيوف عليها . . بل وشعور آخر أكثر سوءا إذ يجدون جهدهم يضيع ، وعناءهم يتبدد فى وطن لا يكافئهم ولا يتراحب لحقوقهم وغاياتهم ، فتنفصم كل عرى الولاء والحب

والضن ّ التى كانت فى نفس الجماعة لأرضها ووطنها . . وترحب بكل طارق ومغير يقرع أبواب بلادها ولسان حالها يقول :

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره

هل رأيتم قط سجناء يدافعون عن سجنهم حين يتداعى أمام هجمات المعاول . . ؟ كذلك الوطن حين يتحول إلى سجن واقرءوا التاريخ تجدوا مصداقا لما نقول . .

هذا هو « غوستاف لوبون » يتحدث إلينا . .

— « . . وكلما كانت جيوش الثورة الفرنسية وهى ماضية فى غزوها تصطدم بأمم أذلها الطغاه المستبدون ، ولم يكن لها خيال تذب عنه . كان النصر يحالفها . .

« أما حين تصطدم بأقوام معهم حرية . . ولهم خيال . . فقد كان يتعذر عليها الفوز والانتصار » . . ! ! !

أجل ، إن كل آفات النفس تستيقظ فى الجماعة المغلوبة على أمرها ، فتنفر من كل فضيلة وتدبر عن كل واجب . ولعل هذا ما عناه الرسول عليه السلام بقوله : « إذا وسد الأمر لغير أهله ؛ فانتظر الساعة » . .

أى إذا وضع الحكم فى غير مكانه ، وسلم لغير أهله ، فانتظر الساعة التى تدق معلنة إخفاق هذه الأمة ، ومذيعة نعيها . .

فمن هم المعنيون بقول الرسول « غير أهله » ؟ ؟

هم المستبدون الذين يأخذون الحكم من أهله . . من الأمة والشعب حتى حين يتلفعون بأردية زائفة من الديمقراطية المحرفة ، كما كان فاروق يفعل فى مصر . وكما يفعل إخوان له فيما حولنا من أمم وبلاد . . ! !

هل تعلم أن خير ما يحفز الفرد إلى التحليق الرفيع ، هو الحماس والشوق ؟ ؟ وهما أيضا خير ما يحفز روح الجماعة ويشد زناد تفوقها .

ترى هل ننعم فى ظل الاستبداد والطغيان بهذا الحماس الباعث ، والشوق الزاخر . . ؟

كلا . وإنما يحل بديل آخر عنهما — القنوط واليأس . واليأس يشتت سكينة النفس ، ويلاشى صمودها ، فتسقط غير مكترثة ولامبالية . وإدراك هذه الحقائق هو الذي حدا بجميع الرواد والقادة والمصلحين . أن ينظروا إلى الاستبداد كعقبة ضخمة تعترض كل مايريدونه للناس من خير وسعادة . . ليس فيهم رائد واحد ، واحد فقط تسامح مع الحكم المطلق ، مغتصب حريات الجماهير والجماعات . . ليس فقط من أجل السيادة السياسية . بل قبل هذا من أجل صيانة روح الأمة من بثور الرذيلة ، وقروح اليأس . وإن واحداً من أولئك الأفذاذ ليصور الأمر تصويراً مثيراً ذلكم هو « متزينى » نبى الوحدة الايطالية وفيلسوفها . . كان شعاره ، الحب . والحب . ثم المزيد من الحب . . ! !

ومع هذا ؛ فقد سأله يوما مستر « توماس كوبر » الانجليزى ؛ عن سبب دعوته العنيفة وتوسله بالعنف والقوة لنضال الطغيان النمساوى . . ولماذا ، وهو الذى يبشر بالحب ، والحب ، ثم المزيد من الحب . لايدع العنف جانبا . . ؟ ؟

إن إجابة « متزينى » التى ستتألق فى السطور القادمة تمنحنا يقينا جديداً باستحالة قيام أخلاق فاضلة فى أمة مضطهدة مستعبدة . . قال :

— « إن ما ترجوه منا يامستر كوبر يجدى فى وطنك ، فأنتم قاومتم الطغيان مقاومة عنيفة . وآباؤك قضوا عليه . وعندكم الآن مجلس نواب ،.. ولكم حقوق مكتسبة ، وقوانين معترف بهـا ؛ فلستم بحاجة إلى استعمال الشدة واللجوء إلى العنف . وأنتم بأرادتكم الحرّة تنالون كل شىء .

« أما نحن هنا ؛ فأنى لنا مثل ذلك ؟ !

« كيف نعمل فى هدوء والطغيان النمساوى جاثم على صدورنا بجيشه المثلث — الجواسيس ، والضباط ، ورجال الشرطة . ؟

« وكيف السبيل إلى التقـدم التدريجى فى بلاد محرومة من الحرية ومن إبداء الرأى . وليس بها مجلس نيابى . . وجامعاتها مستعبدة ؟ ؟ . .

« وكيف السبيل إلى الأصلاح وكل مصلح فى متناول يد التنكيل .

وواصل « متزينى » حديثه الحق قائلا :

— « إن الذكاء يقضى عليه فى الطفولة . والشبان الناشئون يبيعون يقينهم فى سبيل طلب السلامة ، ويبددون فضائل أنفسهم فى التشبه بدون جيوان » . . ! ! !

إن عبارة « يبيعون يقينهم » تفيض تصويراً وتحذيراً . تصويراً للانحدار الخلقى الذى يحيق بالذين يفقدون حريتهم .. وتحذيراً للاخرين حتى لايفرطوا فيها .

أجل ، إن بيع اليقين هو شرّ ما يمزق كيان المجتمع المكبل ؛ والمنفعة الدنيا هى القيمة التى تسيطر عليه . وبسهولة يتحول كل شىء

مقدس فى الجماعة إلى سلعة تافهة تباع بأبخس الأثمان . كل شىء . ، يقين الناس ، وأسرارهم ، ومصايرهم ، وأمنهم؛ فبالجاسوسية والأرغام يجهز على كل هذه الحرمات التى ذكرناها . إجهازاً لايعرف الرفق ، ولا يستجيب للشرف . ويركب فى الجماعة طبيعة سلبية تسلبها شيئاً فشيئاً القدرة على الاكتمال .

فى المجتمعات الديمقراطية ، تلزم عمليات الكشف والاستطلاع حدوداً معقولة ، ويقوم بها بوليس عادى . . ولكى يذهب هذا البوليس لتفتيش منزلك ، لابد له من استئذان النيابة مثلا . . أما حيث يجثم حاكم مستبد ؛ فأن الجاسوسية تقتحم كل مكان . ويتنشقها الناس فى الهواء . ، ويجدون طعمها فيا يأكلون وما يشربون . . ! ! !

فى أيام الطغيان النازى ، كان معارضوه يستغنون عن تركيب أجهزة التليفون . . فى منازلهم رغم حاجتهم القصوى إليهـــا . . وكانوا إذا اضطروا لاقتنائها يغطونها بالبطاطين . . لأن النازى توصل إلى اختراع جهاز يلتقط السمع عن طريق التليفون . ، حتى والسماعة موضوعة فوق حاملها . . (! !)

ولقد أفسد « هتلر » الأسرة الألمانية إفساداً جماً ، إذ أسرف فى نشر مخابراته حتى صار له فى كل بيت عين تتجسس له وترى . . كانت الزوجة تتجسس على زوجها ، والولد على أبيه . وهكذا فى كل مجتمع مغلق . . كل مجتمع تحكمه مشيئة فرد أو أفراد لا تهيمن عليهم إرادة الشعب ، ولا يحلق فوق رءوسهم العنيدة الفارغة سلطان الجماعة .

أهناك سبيل لنشر الفضائل فى قوم تعمل فيهم تلك الأثافى المدمرة . ؟

لا — فالمجتمع الذى يسلب يقينه — كما يقول متزينى — لايجد فى ذات نفسه من المعرفة وسلام النفس مايدعوه للارتباط بالفضيلة ، والسير فى طريق الرشاد .

إن الطغيان لايتحدى الفضيلة ، وحدها . ، بل والأيمان أيضا . . ولقد رأينا كيف أفضى اضطهاد البيض لزنوج أمريكا ، ببعض هؤلاء الزنوج إلى الكفر بالأله إذا كان أبيض البشرة . . ! ! !

بل لقد ذهب زعيمهم « ماركوس » ينفث فى القارة السوداء كلها عقيدة جديدة اجتمع حولها وآمن بها كثيرون من السود وهذا نصها :

— « إن دين البيض لم يوضع للزنوج . ولا يمكن إكراه هؤلاء على الاعتقاد بأله أبيض . . ومسيح أبيض . . وملائكة بيض . . ولذلك يجب علينا أن نستبدل بهذا الدين دينا جديداً ، إلهه أسود . ، وملائكته سود . . « ! ! ! »

والآن ، أديروا أبصاركم فيما هنالك من أمم فأذا وجدتموها حقلا بهيجا تترعرع فيه الفضائل الانسانية.وتزجى عبيرها ؛ فاعلموا أن من وراء هذا التفوق الخلقى حكما ديمقراطيا راسخا رسوخا يشبهه رسوخ الجبال . . ووراء ذلك حرية تملأ صدور الرجال . ومجتمعا يسير على صراط وطيد من مشيئته الحرة ، وفهمه الثاقب ، وعزته الصامدة المهيبة التى لا تهتضم ولا تنال .

وإنا بعد استقرائنا المقروء ، لنستطيع الجزم بأن العامل الأكبر فى مدّ التفوق الخلقى للمجتمع الانجليزى هو ظفره المتساوق بالحرية ، وحرصه عليها بصورة لا يكاد يكون لها نظير . . فبينما تعرض بلد ،

كفرنسا لهزات ضاغطة ومديدة من الحكم المطلق الذى قام على السفك والتدمير رغم ثورتها الكبرى من أجل الحرية . . نجد الانجليز قد أخذوا على عاتقهم ، وفى وقت مبكر جداً أن يلزموا ملوكهم وحكامهم حدوداً أقاموها لهم ، وجعلوا كلمة الأمة ، هى القانون وهى الدستور . . !

فى عام — ١١٩٩ — أراد الملك « حنا » أن يستبدّ ، ويجنح للحكم المطلق ، فقام الشعب كله ، ريفاً ومدناً . فلاحين وبارونات ورجال دين . وردوا « حنا » إلى صوابه الآبق . وكتبوا وثيقة العهد الأعظم . . وفى مادته التاسعة والثلاثين سطروا بحروف من نور وعزم .

— « الرجل الحرّ لا يقبض عليه ، ولا يسجن ، ولا يجرد من ممتلكاته ، ولا يهدر دمه ولا ينفى ، ولا ينال بأى ضرب من ضروب الأيذاء إلا بناء على حكم صادر من أسويائه على مقتضى قوانين البلاد . »

من ذلك اليوم البعيد جداً ، والناس فى معظم الأرض يكرهون على الاعتراف بالنار والسيف . كان المجتمع الانجليزى يحاكم المخطىء أمام هيئة من القضاة والمحلفين . وكان دستوره هذا العهد الأعظم الذى قرأنا الآن إحدى موادّه . . ! ! !

إننى أبصر المنبع الدافق لعظمة الخلق الانجليزى — ومعذرة للذين لا يرون الأخلاق إلا تحريم النظر للمرأة ، والاختلاط بها ، وحظر اللهو والشراب ؛ فالانجليز بهذا المعنى قوم لا خلاق لهم ولا أخلاق . . ؟ !

أقول : إننى أبصر المعين الثرّ لعظمة نفوسهم وأخلاقهم ، كلما وقعت عينى على نصوص ذلك العهد الأعظم ، ثم كلما زاملت الروح المصمم المستبسل الذى نفذ به الانجليز عبر التاريخ الطويل نصوص ذلك العهد

الذى ظل يتطور وينمو حتى استمتع الشعب هناك بحرية لا وجود لمثلها اليوم فى أى مكان آخر فى العالم . . .

انظروا كيف تختم نصوص العهد على لسان الملك :

— « . . وإذا لم نقم بتصحيح ما عساه يقع من مخالفة . أو إذا لم يقم قاضى القضاة بذلك فى حال غيابنا خارج المملكة . فى مدة أربعين يوما من تاريخ إبلاغ ماوقع من مخالفة إلينا . أو إلى قاضى القضاة فى حال غيابنا خارج للمملكة . ، يكون من حق البارونات الخمسة والعشرين ، ومن حق جميع الناس بالمملكة أن يحجزوا ويضيقوا علينا بكل الوسائل الممكنة . وذلك بمصادرة جميع قصورنا ، وأرضينا ، وسائر ممتلكاتنا حتى يتم تصحيح ما وقع من مخالفة » . . !

منذ متى كتب ذلك العهد يا قومنا ؟ ؟

منذ ثمانية قرون . وكما يقول « فيشر » فى كتابه تاريخ أوربا فى العصور الوسطى : — « إن موضع الأهمية هنا أن طاعة الدستور على الصورة التى تمخض عنها العهد الأعظم ، ظلت ماثلة فى العقل الانجليزى جيلا بعد جيل . . »

لولا أن يخرج الكتاب عن غرضه وموضوعه ، لعرضت عليكم بعض المشاهد الباهرة للولاء المطلق الذى صان به الانجليز حريتهم خلال القرون . . فخذوا عنهم العظة والدرس . ولنذكر جيداً ، أنه لا أمل لمجتمع ما فى أن يظفر بأخلاق كريمة أو حياة بهيجة إلا بعد أن يقرّ فى أعماق وعيه ولاء دينى للديمقراطية وللحرية وللدستور . وإلا بعد أن

يتوطد نظام الحكم فيه على أسس لا تنتقص من إرادة الشعب وإرادة الحق . .

لا مقام للفضيلة فى بلاد يسوقها طاغية . .

لا أخلاق للبلاد التى يستطيع رئيس حكومة فيها أن يلغى فى شهر واحد ستا وأربعين صحيفة ومجلة . . ويسرّح الأحزاب بكلمة واحدة تخرج من بين شفتيه المدللتين . . ويغتال السجناء داخل سجون الحكومة برصاص الحرس الحكومى فى عهده السعيد . . .(؟) كما حدث فعلا منذ قريب فى بلد عربى شقيق . . .

إن الحكم الديمقراطى هو كما ذكرنا « للناخ » الأوحد للفضيلة ومكارم السلوك . وكل انحراف فى تطبيق الديمقراطية ، يزامله إنحراف فى سلوك الجماعة وحينما نرسل البصائر والأبصار ، تعود هاتفة بصدق ما نقول . . . .

اضرب لهم مثلا :

ونستطيع أن نأخذ من واقعنا عبرة ومثلا . فالعبرة قد تردع الهوى والمثل يشحذ الانتباه . ولن نكون بحاجة إلى الإيغال فى ماضينا البعيد . بل حسبنا أن نسير فى دروب تلك الفترة الأخيرة التى عاصرناها ، وعشنا فى دوامتها العاتية . فقبل « ٢٣ يوليو » كان طغيان الحكم المتمثل فى الأسرة العلوية الكريمة ، وفى سدنتها وأشياعها ، يلقى على ضمير الأمة من الرزايا والسوآت ما لا طاقة لها به ولا احتمال . .

ولكى تزيدنا الأمثلة إيمانا بأن الفضيلة فى ظل الطغيان تهوى ، والرذيلة ترتفع ، فلنشاهد فى سرعة بعض هاتيك الملامح والصور .

قلنا : إن كلة الحق ، الـكلمة الصادقة الشريفة هى ألد أعداء المستبد ، فلننظر صدق هذا فى أول حكام أسرة محمد على وفى آخرهم . .

كان السيد « عمر مكرم » مجاهداً باسلا شريفا ، أعطى وطنه من عقله وقلبه ونضاله فى بذل وسخاء . وكان « محمد على » يثق به ثقة مطلقة . كان يحبه ويقدسه . وبفضله تسنم حكم البلاد . . وكان عمر مكرم قادراً على أن يكون ما يشاء — جاها ، ومالا ، ونفوذاً . . ولـكنه وقد رأى طغيان الوالى الجديد يتهيأ للظهور ، وأخذه الخوف على مستقبل أمته وبلاده من عواقب ذلك الطغيان ، فقد وقف كالطود مسنداً ظهره إلى كل محاولات آبائه ضد الطغيان . وخرجت الـكلمات من فمه فى بسالة ووثوق لتقول لمحمد على : إنك تتحوّل إلى طاغية . . .

— إنك تضع الشعب فى جيبك ، كما لوكان المنديل الذى تجفف به معاطسك . . . ! !

كانت هذه الـكلمات الطاهرة ، هي الحق الذى يجب أن يعلن . والفضيلة التى تميز نوع زمانها ومكانها . . ولـكن الوالى الصالح «محمدعلى» غضب على الحق ، وعلى قائله فأوغل فى مطاردة « عمر مكرم » وأقسم « ليملأنّ بطنه جوعا » . . ! !

ونسرع مع الأيام لنجد آخر ملوك الأسرة وطغاتها يمثل نفس المشهد . . . .

فذات يوم كلنا نذكره ، دب فى نفر من رجال مصر دبيب الواجب ، وكتبوا للملك الذى كان صالحا (ا) عريضة تهيب به أن يساعد الأمة التى لم تسىء إليه ولا لآبائه ، على الخلاص من الأخطار التى تتهددها . .

فانتفخت أوداج « فاروق » وأمر أحد « الأغوات » أن يبلغ الحكومة رغبته فى تشريد هؤلاء الزعماء الآبقين ، ضاربا الذكر صفحا عن كل ما قدمه بعضهم إليه وإلى عرشه من خدمات كادت تعصف بحياتهم يوما . .

ولكن ، كيف يقذفون فى وجهه الدسم بكلمة الحق . . وحدث مالا يحدث إلا فى الأحراش والغابات . . إذ فوجيء الرأى العام بكل هؤلاء السادة يطردون من مجلس الشيوخ طرداً مهينا . . !

وهكذا نجد الجهر بالحق وهو ضرورى لتربية الأمة تربية خلقية سديدة — عملة زائفة محظورة التداول فى عصر الطاغية — أى طاغية — لأن السوق يجب أن تتسع فقط لعملته الرديئة من كذب ونفاق وخنوع .

أعيدوا تلاوة ما كتبه « سافونارولا » عن طبيعة الطاغية ، كيف يسرق الأرامل والأيتام ويظلم الشعب . ؟ كيف يقتله الشك فيصطنع الجواسيس فى كل مكان . . ثم طبقوا هذه الكلمات على الأمس القريب .

ستجدون ملكا كان له سمت الملائكة بدأ — يوم بدأ — وكأنه قديس طهور . ثم مالبث الطغيان الذى تقمص سلوكه وحكمه أن حوله إلى خنزير . . وإلى لص . . وإلى رئيس لفرقة ضالة من السماسرة والجواسيس . . ! ! ! !

وأعيدوا تلاوة ما كتبناه عن أثر الطغيان فى إفساد القدوة عن طريق الرغبة ، أو عن طريق الرهبة . وكيف أن الطاغية لايطيق أن يرى مثلا أعلى يخفق فوق بلاده فى صورة بطل أو زعيم .

ثم انظروا صدق هـذا فيما كان يحدث قبل أن تفتك الأمة بالعرش الرجيم .

لقد ظل طغيان القصر يكيد ويمكر حتى اضطر زعيما قويا عنيداً أن يتوجه إلى « كابرى » فى خشوع العابدين . . واضطر أديبا رائداً أن يجد فى شغف « سلوكك الشخصى يامولاى » . . . ؟ ؟ ! ! !

وأعيدوا تلاوة ما سطرناه عن تحدى الطغيان لـكل فضيلة ، وعن إشاعته روح النفاق والملق والخداع فى الأمة ، ثم استعيدوا من واقعنا القريب بعض صوره ، وانظروا كيف كان النفاق والخداع يسودان . . ؟

فحمد على لم يكن غريبا نزح إلى مصر لأن الإسلام هو وطن المسلمين . . وهو كمسلم حلّ أهلا ، ونزل سهلا ، وحمي إخوته المسلمين وعشيرته المؤمنين من الجور والطغيان . ! ! !

هكذا كانت الألسنة الطاهرة تقول للناس . . .

وفاروق لم يكن يسرق . . بل كان يتبرع .

وكما قلت لـكم فى كتاب « الديمقراطية . . أبدا » كان فى مصر من الصحف ، ومن الزعماء ، ومن الأدباء ، ومن الـكبار والصغار من إذا تفل الملك الصالح قالوا « تفضل حفظه الله وبصق » . . ! ! !

ولست أذكر هذا لألوم من فعلوه ، بل إن الملامة لتضعف حجتى . وإنما أذكره تزكية لرأينا السالف ، وهو أن الطغيان يكره الناس على رذائل قد لايريدونها . . ويطبع الجماعة كلها بسلوكه ومثالبه . ويحولها إلى شيطان أخرس حين تسكت عن مظالمه ، أو شيطان ناطق حين تزخرف الباطل وتدافع عن غرور الطاغية وصلفه وفجوره . . . .

ولقد بلغت الأمور بالناس فى تلكم الأيام العتمة،أن صار من حسن الحظ ألاّ يكون لأحدهم أمّ جميلة ، أو أخت وسيمة ، أو امرأة حلوة . . . لأن الملك « الأنانىّ » كان فى هذه المسئلة . وحدها « غيريا » لا يبارى . ، ومن يدرى ؟ ؟ فلعله لو طال به العهد بيننا كان يصدر — حفظه الله أيضا — مرسوما بتأميم الأعراض . . ! ! ! !

إننا لا نعدّد مساوىء ملك غاب وذهب ؛ فقد كان من فضل الله علينا أن فعلنا ذلك فى أوانه مع الذين فعلوه مخاطرين . . ولكننا نبرهن على صلة الطغيان بالأخلاق من واقع حياتنا الذى لم ينس بعد . .

قلنا إن الطغيان يلجىء الجماعة إلى السلبية ، ويجعل « اللامبالاة » من عادات سلوكها الراسخة المقيمة . . ولن تجد فردا ، ولا جماعة تقود السلبية حياته أو حياتها ، إلا ألفيت مأساة مفردة . .

وإن معنا من اليقين ما يجعلنا نقول : إن الطغيان الطويل الذى تواكب على أمتنا والذى نرجو أن نظلّ مصممين على عدم عودته . . هذا الطغيان قد ترك فى نفسية شعبنا سلبية موغلة مستوطنة وسوف يحتاج إلى سنين عددا نطلق له فيها الحرية إطلاقا كاملا ونستجيش خصائصه الأولى . وقواه الحية استجاشة دائبة ، لكى نستطيع أن نهزم السلبية الجاثمة على كيانه ونمتص منها العافية والحياة . .

إن حريق القاهرة ، كان واحدا من عشرات المظاهر لسلبيتنا المضحكة المفجعة . . قوم عجزوا عن أن يحرقوا قيصرهم . ؟ فذهبوا يحرقون أنفسهم . . وصحيح أن الذين اقترفوا مأساة الحريق كانوا نفراً معدوداً . ولكنك كنت تبصر حول هؤلاء النفر حشودا هائلة من الجماهير

لا تتحرك . كأن هذا الذى تأكله النار ليس مستقبلهم وحياتهم . . ! ! !

ولـكن . .

ما علىَّ من لا يطيق يَرى — نوّر الوادى أو اكتئبا

وأيضا . .

لا أذود الطير عن شجر — قد بلوت المر من ثمره

هذا هو منطق «لاشعور» الأمة المغلوبة على أمرها دوما .. ولقد كان ـ أيضا ـ منطق « لا شعورنا » والقاهرة تحترق . .

لماذا ندافع عنها . . ؟ كم حجرا نملكها فى تلك القصور التى تتداعى . ؟ كم قرشا سنناله من البنوك التى تحترق . ؟

والوطن . ؟ ماذا يعنينا من أمر مستقبله مادام ليس وطنا لنا . ؟ مادام لا يمنحنا القوت ، والسلام ، والعدل ، والحرية . . ؟

أجل ، هذه هى الفلسفة الواعية التى أوحى بها « اللاشعور » المتخم بالمـآسى إلى وعينا يومئذ ، فوقفنا من الحريق كما لو كان مهرجانا يطلق صواريخه الفرحة البهيجة . . ! !

ولقد حدثتكم عن الأشاعة التى تفسد فى الناس حين تروج ، ملـكة الأدراك وتشوه جمال الحقيقة ، وتدفع الناس إلى الضلال والأفك زاعمة لهم أنه الهدى والفلاح . . فهل يعجزنا أن نجد مصداق ذلك فى تلك الأيام . ؟

كيف ؟ وهل كانت مأساة فلسطين إلا إشاعة . . ؟ ؟

لقد أراد الطاغية أن ينسى الأمة مباذله . ، أراد أن يستنزف طاقتها المتربصة ، فى غرض بعيد عنه . ، وأراد سوقا دنسة يستطيع أن يثرى فيها إثراء يليق بجلاله وجلالته . . !

فليلق فى روع الناس أنه « حامى حمى العروبة والاسلام » وليخاطر ـ دون استعداد وجد ـ بجيش البلاد وسمعتها وشبابها ومالها . .

واقرعى يا طبول . . .

فاذا الشعب كله يؤمن بصدق الأكذوبة ، وجدية الفكاهة . حتى إذا وقف من بين الملايين المخدوعة رجل واحد فقط هو «إسماعيل صدقى» ليقول لنواب الأمة وشيوخها « تمهلوا وترووا ؛ فأنكم ذاهبون إلى مقامرة باطلة » يبدو بهذه الشجاعة الفائقة ، جبانا ونذلا وخائنا . .

وهكذا تفعل الأشاعة دائما . . تحجب الحقيقة عن الناس فلا يرونها . وهى كما قلنا العادة السرية للمجتمع المضطهد . ومن ثم فهو يعشقها ويهواها ويرى الحقيقة وقحة وثقيلة . ؟ فيعرض عنها ويأباها . . ! !

وقلنا إن الطاغية يدنس جميع القيم الفاضلة والسامية . فلننظر كيف شوّه طغيان القصر جمال الحرية ، ووضاءة الديمقراطية فى بلادنا . .

لقد رأى فى الحياة النيابية قدرا يقرع أبواب مصيره ونهايته ؛ فعمل فى مكر وخبث لأفسادها حتى نكرهها ونكفر بها . . ومن ثم يستطيع التخلص منها فى يسر وهدوء . « ! ! »

هنالك توغل فى الأحزاب فقسمها على ذواتها ، وأفسدها . وشد أزر الأقطاعيين وكبار البرجوازين ليغزوا البرلمان ويوجهوا سياسة البلاد . وحرض على تزييف إرادة الأمة . . ودنس الدستور نفسه إذ جعله دثارا لجرائمه ، وبرفانا لعدوانه وطغيانه .

لم يكن للدستور جريمة ، ولا للحياة النيابية ذنب ، ولا للديمقراطية جريرة . . ولكنه الطغيان يدنس كل طاهر . ، ويطمس كل ظاهر ،

ويمتهن الحق ، ويحترم الباطل . وعلى أنقاض حقوق الإنسان يشيد هرماً باذخا لحقوقه هو . وامتيازاته هو .. أما الجماعة . ، أما الأمة ؛ فعبيد إحسانه ، والمتمتعون بشرف غطرسته وطغيانه . ! !

ألا إنه لدرس باهظ التكاليف . ويجب أن نحذقه ولا ننساه . .

وإن هذه الأمة التي مارست مع الطغيان تجربة شاقة ، لتستطيع أن تمارس مع الحرية تجربة رغيدة ونافعة . . والزمام اليوم في يمينها . ونقطة البدء أن ننظف مجرى النهر من جديد . ، نهر شخصيتها ، وسلوكها ، وتطورها .

وكما جعلنا الخطوة الأولى لتكوين الفرد الأخلاقي تحريره من الخوف .

فكذلك يبدأ تكوين المجتمع الأخلاقي بتحريره من القهر .

والآن ، ونحن نرجو أن يكون قد وضح أثر طغيان الحكم في وقف النمو الخلقي للجماعة ، ننتقل إلى طغيان آخر لا يقل عن أخيه سوء أثر وعاقبة ، بل قد يزيد . . لأنه طغيان يفرضه المجتمع على نفسه ، ويقيم له الشعائر والمناسك . ومن هنا لا يفكر في الخلاص من أسره وأصفاده . . !

الواجبُ .. لا القوّة

« يقول السيد الرب ، أنا لا أسر بموت الشرير .. ، بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا .. »

ـ المسيح ـ

في هذا الفصل

عبر خلال القرون . .

خلال تطورنا الانسانى مررنا بمراحل وظروف زرعت فينا حنيننا إلى القوة وطلب الحماية . . لسنا وحدنا . . بل جميع أمم الأرض .

ولا نكاد ندرى كنه هذه الظروف تماما . ، أو لعلنا ندرى . . فالانسانية فى أيامها الأولى الحابية ، كانت شديدة الشعور بالضعف وبالخوف مما بين يديها وما خلفها وما حولها .

كانت تخاف الرعد والبرق والمطر والرياح والوحوش والظلام والمجهول . .

وكنا ، أو بالأحرى كان آباؤنا أولئك ، يسرحون الطرف الوجل فى الأفق الأعلى . . أليس ثمت شيء يحرسنا . . شيء يحمينا ويهدىء روعنا . . ؟ ؟

ويجيبهم زئير الفضاء مدمدماً عليهم بمخاوف جديدة .

ومع هذا ؛ فقد كان فى أعماق وجودهم صوت يهيب بهم ! تقدموا . . سيروا على أشلائكم . ، خوضوا وسط مخاوفكم . . ذلك صوت قانون عظيم لم يكونوا يومها يعرفونه ، ولقد عرفناه نحن اليوم . إنه قانون الواجب . .

ولندع الواجب الآن ريثما نعود بالحديث إليه . ولنمض مع القوة لنرى كيف تغلغلت فى وجداننا الناشىء البعيد .

ترنح آباؤنا إذن قرونا طوالا تحت ضربات القوى المجهولة .

واستحوذ عليهم شعور نام عريق بأن اليد التى تمتد لمساعدتهم وحمايتهم ، تكون صاحبة فضل عظيم . ! !

فاذا ظنوا الشمس القوة التى تدمرهم إذا سخطت وتحميهم إذا رضيت ، لاذوا بها ، وتبتلوا لها . . واتخذوها إلهاً . . وغير الشمس من قوى الطبيعة وظواهرها ، حتى الحجارة . . ! ؟ فقد كانوا ينشئون منها معبدا ، وينصبون داخله إلهاً خلقوه بأيديهم ، ثم يبعثون فى أنفسهم اقتناعا بأنه القاهر فوقهم ، المسكن روعهم ، المبرم لهم جميع الأمور . . ! !

طالما شعروا من قبل بهوة تتعاظم مجتازها . . فراغ هائل موحش يفصل بينهم وبين سر هذا الكون المتعاظم المهيب . ومع الأيام بل القرون كان هذا الفراغ يزداد جثوماً وعمقاً وتوغلا . . حتى جاء اليوم الذى لابد من ملئه ولو بأكذوبة . . ولو بوهم . . ولا يزال لهذا الفراغ بقايا رغم الذى حدث . .

ولكن ماذا حدث ؟ ؟

ليس الكتاب الذى فى يدك كتاب تاريخ . وحسبك ماتعلمه من تلك الأطوار التى صعد خلالها تاريخ الانسان خلقاً من بعد خلق ، وطورا من بعد طور حتى جاء عصر الاستعمار السياسى الذى يشمره الغزو ورغبة الأمة الغازية فى سلب الأمـــة الجانية . . وكان من أهم الأسباب النفسية الممهدة له بين الشعوب المغلوبة ذلك الشعور الدفين فى أعماق الناس . الشعور بالحاجة إلى ملاذ يكون أكثر قوة وأشد بأساً ، لتستقر فى كنف قوته وجبروته مخاوفنا وتطمئن هواجسنا . . وليس أدل على ذلك

من أن الاستعمار فى يومه البعيد كان أملا يسعى إليه ، ورجاء تشد إليه الرحال . وكان الضعفاء يدعون الأقوياء لاستعمارهم واستثمارهم نظير حمايتهم ، . وأنتم تعرفون أنه من هنا نشأ الأقطاع . . !!

الحنين إلى « القوى الذى يحمينا » هو إذن أمر تقليدى أو يكاد يكونه . صاحبنا منذ نشأتنا الباكرة ، ووجودنا الأول . . ولكنه فى صورته المهتزة الهلوع ، المستسلمة . . صفة البدائيين الوغلين فى القدم ، الذين كانوا يتسلقون الأشجار ، ويسكنون الجحور . . فقد مضى الانسان يتخفف من أثقال هذه الحاجة رويداً رويداً . لأن قانون الواجب كان يستيقظ فى وجدانه كذلك رويداً رويداً . . وكلما استيقظ منه جزء ، زحف على جزء من التعبد للقوة فمحاه وأخذ مكانه .

ما النتيجة التى نريد بلوغها . . ؟ ؟

هى ذى . . الأمم التى نبصرها اليوم شديدة التعبد للقوة ، دائمة التوسل بها لتنظيم مجتمعها ، أمم غير ناميسة ، ووجدانها المعتم غاص برواسب ماض سحيق تحررت منه تلكم الأمم السباقة التى زحف الأحساس بالواجب على وجدانها فمحا آية القوة أو كاد ...

ولقد صار مقياس تقدم الجماعات والأمم موسوماً بتفوق خضوعها للواجب على خضوعها للقوة . بل إن التقدم الأنسانى كله صار اليوم رهنا بما يبذله من سعى حثيث للنأى عن القوة والسير فى موكب الواجب . الواجب نحو أنفسنا ، والواجب تجاه غيرنا . ويكاد عمل الأنسانية المعاصرة ينحصر فى مواصلة الكشف عن قانون الواجب ، وإذكاء روح الأخلاص والمهارة فى تطبيقه واتباعه .

أعسير علينا أن نأخذ مكاننا بين صفوف القافلة الزاحفة المتحررة من أثقال ماضيها ؟ ؟

إنه لسواء أن يكون الأمر يسيراً أو عسيراً ، هيناً أو صعباً ؛ فلابدّ منه إذا أردنا أن نتطور وننمو . بيد أن الايمان بيسره وإمكانه يشد زناد الأقدام والسعى ، فلنفىء على أنفسنا هذا الأيمان . ولسنا بحاجة إلى أن نخدع ذواتنا ، ونستهويها بوسائل الأغراء والأيحاء لكى تطمئن إلى أن السير فى الطريق التى ذكرنا ، أمر لامشقة فيه . فالحق أنه كذلك فعلا . .

أجل ، فكل سلوك يوائم طبيعتنا ، ولا يعارضها ، ويعبر عنها ، ولا يتحداها ، ويقوم على تعليتها ، لا على تحطيمها . يكون سهل المنال ميسور الأخذ . . ، فهل إرباء الواجب على القوة من هذا النوع ؟ ، هل هو محاولة ضد طبيعتنا الإنسانية أم فى سياقها ؟

ألا إنه ليس يسير فى سياق الطبيعة فحسب ، بل ويعبر عنها تعبيراً لا بد منه .

فالواجب ، كما يقول الفيلسوف ــ جويو ــ : « فيض فى الحياة يريد أن ينفق . وهو لا يأتى عن إكراه أو ضغط خارجى . . إنه تعبير عن قوة طافحة تظهر إلى الخارج فى حب وغيرية » . . .

ونعود إلى أنفسنا ــ نحن سكان هذه الرقعة من الأرض ــ مصر وما حولها . . ماحظنا من الرواسب الضنية التى تجعل إيماننا بالقوة أرجح من إيماننا بالواجب ، وتجعل استجابتنا للقوة أكثر من استجابتنا للواجب ، هذا إذا كان للواجب فى حياتنا السلوكية مكان . ؟ ؟

ولسوف نجد حظنا منها ــ أعنى تلك الرواسب ــ وافيا موفورا . .

وهى ليست فقط بقية مما خلفته البشرية الأولى فى وجدان الإنسانية وضميرها ؛ فنصيبنا يزداد عن هذه البقية ازدياداً متناسبا مع الظروف التعسة التى تجامنها الآخرون ووقعنا نحن بين أنيابها ومخالبها . ، وتتلخص فى الاستعمار . . .

لقد وقعت بلادنا تحت ضربات موصولة من غزو متتابع . ونحن حتى هذه الساعة لا نزال ننفض عن معاصمنا قيوده وأغلاله .

كم هو طويل وعتيد خيطهم الذى يتخلل نسيج حياتنا حتى اليوم . (!) فمن فرس إلى يونانيين ، إلى رومانيين ، إلى أمويين فعباسيين ، فطولونيين ، وإخشيديين ، وفاطميين ، وأيوبيين ؛ فمماليك ، وعثمانيين ، وفرنسيين ، وانجليز . . ! ! !

كل هؤلاء مروا بنا ، وليس فيهم من لم يستقبله آباؤنا بالحفاوة والبشر . لأن كل غزو قادم كان يمثل أملا جديدا فى الخلاص من مظالم الغزاة الأقدمين . . وهكذا أذكت الممارسة الكثيرة لهذه العادة الحنين الموروث عن البدائية المنقرضة . الحنين إلى « القوى الذى يحمينا » ! ! !

وكان هذا عاملا من عوامل استبقاء الايمان بالقوة والاعتماد عليها . وليس ذلك فحسب ، فقد كان كل غاز يجيئنا حاملا تقاليده ، وسلوكه ، ومذاهبه . ومهما يذكر عن تلاشى الحضارة الظافرة فى الحضارة المنهزمة ، فأن الأمر بالنسبة لنا كان مختلفا إلى حد كبير . ربما لأن الغزو لم يكن واحدا يذوب فينا ونذوب فيه . . بل متكررا ، ومتعاقبا . . كان كليل الشتاء ، طويلا باردا . فلا نكاد نفيق من استعمار حتى ينالنا استعمار غيره . ، ولا نودع غازيا إلا على قرع طبول غازٍ جديد . . ! !

لم نجد الفرصة إذن لأنضاج ذاتيتنا . . ، وللتطور المنبثق من جماعة ملمومة الشمل ، موحدة الميل ، تدفع كرة حياتها فى تناسق وتعاون وإدراك مشترك لوحدة الهدف . وإذا كنا ننسل اليوم من آخر أكفان الاستعمار الذى ابث فينا قرونا ؟ فينبغي ألا يعزب عن وعينا مدى الانطباعات التى تركها فينا والتى نعالج منها فى هذا الفصل أهمها وأخطرها على سلوكنا وأخلاقنا ، ويتلخص فى هذه العبارة : « القوة . . لا الواجب ! ! »

إن استعماراً آخر أكثر ضراوة من الاستعمار الراحل ، أو الاستعمار الأجنبي السياسى يحتل كل أركان حياتنا . وقواه مبثوثة فى نفوسنا بشكل يدعو لليقظة والعمل الحاسم الفاهم . . ، وهو أكثر ضراوة وأشد تنكيلا لأنه لا يلبس ثياب الاستعمار ولا يحمل أسلحته . ، ومن ثم فهو لا يثير من الضغن والتحفز والهجوم عليه ما يثيره الاستعمار الآخر المنظور . . إنه لا يحتل مدائن ، ولا يسير فى شوارع فنلقاه ونحاربه . بل هو يتقمص أجسادنا وأرواحنا ويسير فى دمائنا ، فى ثقافتنا ، فى وجدان الجماعة وإرادتها وإدراكها . ذلك الذى نسميه :

الاستعمار الداخلى ..

ماذا نعنى بالاستعمار الداخلى ؟؟

إننا نعنى ذلك الحجر المضروب والوصاية المفروضة علينا فى الأسرة ، وفى المدرسة ، وفى المجتمع . نعنى الرغبة الراسخة فى التسلط ، والاستعلاء ،

وإلقاء الأوامر التى يجب أن تمتثل وتطاع . . وبعبارة موجزة نعنى « التربية عن طريق القوة » . .

إن فى تربيتنا نقصاً أساسياً شاملا ، ونعنى بكلمة « أساسى » أنه صميمى موجود وراسخ فى صميمها ، ومتخلل نسيج كيانها . . ونعنى بالشمول كافة أنواع التربية ومسالكها .. تربية البيت . . وتربية المعهد . . وتربية المجتمع . .

فنحن جماعة تعتمد وسائل التربية والتعلية فيها على مبدأ مقدس ملتزم هو « لا تفعل » . .

ولقد تناولنا جرائر الاعتماد على الحظر والتحريم فى كتابنا « هذا . . أو الطوفان » . . بيد أننا تناولناه هناك من زاوية الدين . أى كشفنا عما يفضى إليه الأسراف فى استعمال الحظر الدينى من انحدار وانهيار . . ونريد هنا أن نتناوله من جانب التربية العامة والسلوك الاجتماعى اللذين يقومان على أساس باطل وفاشل من القهر والحظر . .

هناك فى كل مكان وشارع من المدينة ، تقع عينك على كلمات مسطورة . قد لا تثير اهتمامك ، ولا تنادى خواطرك . لكننا هنا سنستسمحك فى أن تدير عليها خواطرك ، وتركز حولها انتباهك قليلا . .

انظر . . هذه اللافتات التى تجدها فى قاعات المحاضرات ، أو صالات دور الفن من مسرح وسينما ، أو داخل مكاتب دواوين الحكومة ، أو فى أى مكان يضم مناسبة من المناسبات التى تقتضى النهى عن شئ . .

ستجد هذه العبارات «لاتدخن » أو« ممنوع التدخين»ـ«لاتبصق» أو « ممنوع البصق » ـ ستجد أيضاً « ممنوع الدخول لغير الموظفين » .

دع هذه الظاهرة لحظات . . وتعـــال إلى ظاهرة أخرى .

ـــ هذه الأوامر والمنشورات التى تصدرها الحـكومة ـ أى حكومة طبا ـ ، والشركات ، والمؤسسات لموظفيها .. ستجدها جميعاً تنتهى بعبارة تقليدية هى « والحذر من الإهمال » أو « ومن يخالف يحدث له كذا ، وكذا » أو « وقد أعذر من أنذر » . . ! ! !

ونغادر هذه إلى ظاهرة ثالثة فى البيت فنجد أكثرمن تسعين فى المائة يصدرون لأبنائهم الأوامر مشفوعة بالتهـــديد بالعقوبة إذا خالفوا أو فرطوا . .

هذه الظواهر العابرة تعطى صورة سريعة عن روح التربية والسلوك فى مجتمع يـكاد جميع أفراده يتحولون إلى أدوات نهى .. وأدوات تعذيب . . ! ! !

فى سويسرا — مثلا — لايكادون يستعملون عبارة « ممنوع » .

فحيث تقرأ هنـا فى حدائقنا « ممنوع قطف الأزهار » ، تقرأ هناك هذه العبارة : « هذه الزهرة فى يدك تـكون لك وحدك . ولـكنها فى مكانها تـكون للجميع » . . ؟ ؟ ! ! !

انظر ! ، إن الفارق بين عبارة « ممنوع قطف الأزهار » والعبارة المتألقة فى حدائق سويسرا ، يمثل فى صدق الفارق بين المجتمع السويسرى ، والمجتمع المصرى . ، والعربى .

بين مجتمع تخلت القوة فيه عن مكانها للواجب ، وآخر تخلى الواجب فيه عن مكانه للقوة ...

وحدثنى صديق زار « لندن » وفى أحد أنديتها الليلية وجد العبـارة

الآتية مسطورة فوق إحـــدى اللافتات : « إذا كنت من هواة وضع أعقاب السجاير فى فنجال القهوة ؟ فأخبرنا لـكى نحضر لك القهوة فى « طقطوقة » السجاير » !!!

والألزام والأكراه المتبديين فى ظواهر حياتنا ليسا عرضاً طارئاً . بل عرضاً مزمناً لعلة مزمنة وآفة لابثة مقيمة ــ وهذه الأعراض تنتشر على وجه المجتمع كالبثور ؟ فنراها فى كل أشيائه . فى سلوكه ، وفى تربيته ، وفى ثقافته ، وفى تشريعه .

فهل يصلح مثل هذا المناخ لتربيه أمة تربية سوية راسخة ؟ ؟

أم أن الجهود المبذولة فى خلاله لا يمكن فى أنقى ظروفها أن تمنحنا أكثر من زخرف وألوان ؟ ؟

أجل ، إنها لا تمنح أكثر من الألوان والزخرف .. وشجرة الحنظل لاتثمر الـكمثرى .. والمجتمع الذى تنطلق دواعى سلوكه ، وحوافز تعليته وتربيته من الأكراه والخوف ليس أكثر من شجرة حنظل مريرة الثمر والظلال . .

ذلك أن القوة الزاجرة الراعبـــة حين تصير سياسة دائمة للبيت ، والمدرسة ، والمجتمع فأنهـا لاتلبث أن تخلق ذلك الذى يسميه علمـاء النفس بالسلوك القتالى . .

أجل إن « السلوك القتالى » هو الهدية التعسة التى يهديها الأرهاب للفضيلة . . ! !

وهوالثمرة المحتومة لأرباء القوةعلى الواجب فى تقويم الجماعة . والطامة

الـكبرى هى كما قلنا من قبل فى شيوع هـذا السلوك وتحوله إلى نهج عام المجتمع ..

فنحن عند ما تفرض علينا من البيت طاعة سريعه ضارعة مشفوعة عند ترددنا بضرب مبرح وقسوة لاحفة ، يسبب ذلك جنوحاً فى سلوكنا ، وانحرافاً فى طبيعتنا .. بيد أنه إذا كانت المدرسة حافلة بالبر والحنان . ، والمجتمع تشيع فيه روح الود الخالص ، والتقبل السمح ؛ فأن آثار قسوة البيت تتضاءل ، وتنكمش فى غمرة هذا الفيء الودود الزاخر الذى تحبونا به المدرسة والمجتمع .. أما إذا كانت المدرسة امتداداً للبيت بقساوته ورداءته ، وكان المجتمع امتداداً للاثنين المدرسة والبيت ، فتصوروا كم يكون المصير وبيلا ..!!

إن التلميذ الذى كان يدمن الهرب من بيته ومعهده ، والذى قال عندما سئل عن سرهربه وإباقه : « إنى فيهما منزلى ومعهدى ، لا أحس بحاجة أحد إلى » ..

هذا التلميذ ، أو هذا العبقرى الصغير عبر عن سر كبير جد كبير من أسرار طبيعتنا الانسانية . .

فنحن بطبيعتنا نحيا حياة مساوية لشعورنا بكرامتنا . ومن أ كثر مناشط هذا الشعور اهتمام الآخرين بنا . فاذا نحن حرمنا هذه الاهتمامات الفياضة المبهجة .. بل إذا تحولت إلى إهانات متساوقة فى صورة أوامر تطلب الخشوع ، أو قسوة طاغية تشوه النفس ؛ فقد وضعنا أقدامنا على طريق الرذيلة مكرهين .

إن شعار «القوة ، لا الواجب» جدير بأن ينزل عن مكانه فى عقولنا، وفى عواطفنا ، وفى سلوكنا .

إن ذلك الاستعمار الداخلى ، خليق بأن يرحل عن مجتمعنا لنبدأ بعد رحيله الذى لن نأسف عليه بناء مجتمع جديد حر شعاره ، « الوجب ، لا القوة » . .

فلنتعقب الآن معاطن هذا الاستعمار الداخلى وأوكاره .. وإذا كانت من الكثرة بحيث لا يتسع وقت هذه الصفحات لغزوها جميعاً ؛ فلنطارده فى أهمها ، وأحفلها بالخطر المرقوب . وليكن أولها :

١ — البيت . . .

مما يؤسف أن التطور الباهر الذى أحال بيوتنا من أكواخ واطئة إلى قصور كالأبراج ، لم يزامله تطور مماثل فى روح البيت ومسلكه . . فالتقدم الشكلى فى بيوتنا يسير بخطى حثيثة ، بينما يتخلف بخطى قد تكون حثيثة أيضاً ، تقدمها الأخلاقى والتربوى ..!!

إن تحسنا ما قد طرأ لاريب . ، ولكنه بالقياس إلى ما كان يمكن أن يكون يبدو وكأنه لم يحدث شىء . . ! ! فهل نستطيع تفسير ذلك البطء البطىء ..؟؟

فى رأينا أن عجز البيت عن إنجاب الطفل الصالح الذى سيكون بدوره أباً صالحاً ، هو سبب ما يعانية البيت من توقف عن النمو الأدبى الصاعد فالولد الفج غير الصالح يمثل فى المشكلة السبب والنتيجة معاً . . فهو نتيجة

للبيت الذى لم يحسن تربيته ، وهو أيضاً سبب إخفاق أولاده الذين لن يحسن تربيتهم بدوره عندما يصير أباً ..

إننا نتوارث عاداتنا المنزلية بنفس السهولة والباعث اللذين نتوارث بهما أسماء الآباء والأجداد .. فكما أسمى ولدى باسم أبى ، ثم يسمى ولدى ابنه باسم أبيه . نذهب على نمط مماثل فى توارث العادات وتساوق التقاليد . والتطور الذى أصاب تقاليد البيت وعاداته لا يزال بالنسبة لمعظم بيوتنا حدثاً عارضاً ، أو أمراً مريباً . !!

وإذا نحن أدركنا مدى صدق العلم فى كشفه عن أن معظم رذائلنا ومساوئنا الخلقية طول حياتنا إنما ترجع إلى خبراتنا المبكرة فى أيام الطفولة استطعنا أن ندرك تبعاً لهذا ، المكانة الصحيحة للبيت ومدى الدور الذى يلعبه فى حياة المجتمع كافة . .

إن البيت المصرى ، بل العربى لهو أول الأوكار التى تقطنها سياسة القوة وقانون الغابة .

فليس فينا ذلك البيت الذي يجعل شعار تربيته « عامل ولدك كأنه كبير بالغ . فإن للطفل عزة وكرامة يذلها البطش ، ويهينها الأكراه » بل كلنا ذلك البيت الذى يقول ذووه « لا ترفع العصا عن ولدك ، واضرب الرأس فإن فيها الشيطان » ..!

وإن الجهل الذى يملأ وعينا ليدعونا للحرص الطاغى على أن يكون أبناؤنا امتداداً لنا .. ومن ثم يبذل البيت كل جهده فى دعوة الولد إلى محاكاة أبويه والانطباع بسلوكهما ، هذا فضلاعن عمل الطبيعة نفسها . ،

غير عابئين بالحكمة القائلة « لا تكرهوا أولادكم على طباعكم ؛ فأنهم خلقوا لزمان غير زمانكم » . .

ويبدأ قانون الغابة فى البيت سالكا مع الطفل أحد طريقين أو كليهما الأمر الصارم النابح الذى تسكته الطاعة السريعة الضارعة .. ، والعقوبة التى تبدأ بالضرب وتنتهى بأحداث عاهة جسمية أو عاهة نفسية . أو هما معاً . . وما أندر البيوت التى ترتفع فوق مستوى هذين المسلكين مع أبنائها ...

والأسراف فى التوسل . بكلا هذين المسلكين ، أو بأحدهما ، يجعل من الطفولة ريحاً مزروعة .. (!) ونحن نعلم أو ينبغى أن نعلم أن من يزرع الريح يحصد العاصفة ..

أجل ، إن الضغط الذى يمليه البيت علينا ونحن أطفال ، لا يخنق طفولتنا وحدها ، بل يخنق مستقبلنا كله . فما الطفولة إلا الخطوة الممهدة للرجولة المقبلة . أوهذه القماءة التى تميز معظم رجالنا إنما هى نتيجة حتمية للطريقة الفاضلة جداً (!) التى يربى بها البيت المصرى أطفاله وأكباده . .

من آداب الصين القديمة وتعاليمها المقدسة تعليم يقول :

— « أيها الأمير ، كن أميراً .. ويا عبد ، كن عبداً .. ويا أب ، أنت أب .. وياولد ، لست سوى ولد » . !

توزيع جميل . أليس كذلك .. ؟

إن الطغيان ملة واحدة، وأسرة واحدة . طغيان الحكومة ، وطغيان

البيت ، وطغيان المجتمع . كلها يشد بعضها أزر بعض . وهذه الحكمة الصينية تكشف عن تضامنها العتيد .

بيد أن جميع عظماء الصين الذين صنعوا تاريخها الحديث والذين يصنعون ، كانوا من الأولى حطموا هذه الحكمة وداسوا بأقدامهم الباسلة قدسها الشريف (!) . .

ولو أن « صن يات صن » أبا الصين وباعث يقظتها . . ولو أن « ماوتسى تونج » العملاق الذي تشاد الصين الجديدة على يديه . . لو أن هذين وعشرات من طرازهما الذين عملوا ولا يزال بعضهم يعمل لمجد أمته . آمن بتلك الحكمة ووقف عندها لظل كما تريد له الحكمة الظاهرة أن يكون . ولد قزم صغير . . ولظلت الصين كأبنائها ، قرية كبيرة يطن الذباب الضارى فى خرائبها ، ويتدحرج ضحايا الأفيون فوق أرضها . !

فاذا كان بعض سر عظمة هؤلاء أنهم لم يلتزموا حدودهم كأولاد ، وأطفال . فما أحرانا أن نرفع الحصار الضاغط والحجر الغبي عن أطفالنا ليسيروا فى موكب النمو المفضى لعظمة الانسان ، وعظمة الوطن . .

على أن هذه الآفة التى نحن بصدد عرضها تمثل الوجه الحسن من وجهى المأساة . أما وجهها الآخر الدميم . ؟ فصورته تتمثل فى الهراوة والسوط . . فى القسوة التى لا تتسرب فى أمر صارم فحسب ، بل وفى ضرب مبرح أليم .

فى زيارة لى لأصلاحية الأحداث ، تحدثت مع خمسة عشر غلاما . ووجهت إليهم أسئلة كنت قد أعددتها فى خاطرى ، رجاء أن أصل بها وبالاجابة عليها إلى غايات أريدها .

ولو أن الصدفة عقل يفكر ويبصر . وأرادت إقناعى بأثر القسوة فى إفساد أبنائنا ، لما صنعت أكثر مما صنعته لى فى ذلك اليوم . . .

لم أكن أتوقع أبداً أن تكون القسوة المؤذية هى التى أودت بهم جميعا إلى مثواهم الجارح فى تلك الاصلاحية . قسوة الآباء والأمهات . . !

حسبت أننى سأجد من الخمسة عشر ثلاثة ، أو خمسة ، أو حتى عشرة يمثلون ضحايا قسوة البيت وإرهابه . أما أن أجد الخمسة عشر شابا من الطراز نفسه ، فقد كانت صدفة مذهلة حقاً .

سألت أحدهم :

— هل علم أبوك بعقرك هذا .

فأجاب : نعم .

— وهل يزورك . . ؟

— نعم .

— فى مواعيد دورية ، أم حسبما تسمح ظروفه ؟

— فى مواعيد دورية .

— فى أى أيام الأسبوع يزورك ؟

— يوم الجمعة .

وأنهيت محادثتى معه . وأدرت حديثا عاما مع الجميع حتى رأيت أنه قد نسى حديثى الخاص معه . .

ثم ألقيت سؤالا موجها الحديث إليهم جميعا . بل ومتعمدا إشعاره بأنى لن أشركه معهم فى الاجابة مكتفيا بما سمعته منه . وكان هذا السؤال هو :

— هل فيكم من يتشاءم من بعض الأشياء ؟ ؟

— نعم ، وعدّد سبعة منهم الأشياء التى يتشاءمون منها ، وكان صاحبنا من بين المتشائمين . .

وأتبعت سؤالى السالف بسؤال آخر هو :

— هل تتشاءمون من بعض الأيام . كبعض الناس الذين يتشاءمون من يوم الأحد . . أو من يوم الأربعاء .

وأجابوا إجابات مختلفة لم أهتم لها طبعا ، لأن إشراكهم معى فى هذه الأسئلة بالذات لم يكن إلا مناورة أهدف بها إلى استخلاص إجابة صاحبنا « س » الذى أجاب قائلا :

— نعم ، أتشاءم من يوم الجمعة .

وعدت أسأله :

— تتشاءم منه أم تكرهه ، ؟ . ولما وضحت له الفارق بين التشاؤم والكراهية — نزولا على رغبته وطلبه أجابنى :

— بل أكرهه . . .

ولعلكم لم تنسوا بعد أن اليوم الذى يزوره فيه أبوه كل أسبوع هو يوم الجمعة . . ؟ !

عندما تبصرون فى الطريق أولئك المشردين ، وجامعى الأعقاب ، والحفاة العراة من غلمان كان يمكن أن يكونوا أشبالا ؛ فاذكروا ما تموج به بيوتنا من أسباب الفظاظة والغلظة والأرهاب . هذه التى تحفز الولد إلى الهروب حيث يخسر أخلاقه ، ويتهيأ لتلقى مستقبله الذى لن يكون إلا مسرحا لجرائمه المبهظة ، وجناياته على نفسه وعلى الناس . . ! ! !

ووراء هؤلاء عشرات الألوف لم يهربوا ، ولم يشردوا فى الطرقات ،

ولم ينزلوا ضيوفا على الأصلاحيات . بل هم يجلسون هناك على مقاعد العلم فى مدارسهم ومعاهدهم . .

ومع هذا ؛ فهم يحملون جنوحا كامنا غير منظور . وسلوكهم حين تبصره وتفحصه ، ليس إلا ضربا من الاحتجاج على ما يتعرضون له فى بيوتهم من قسر وقهر . .

انظر إلى شجارهم مع بعضهم ، وتحرشهم بأنفسهم ، وتمردهم على أساتذتهم . .

ثم انظر إلى حيرتهم إذا كانوا كبارا ، وإلى فراغ نفوسهم ، وإلى خيبة أملهم التى تملأ وجوههم وسيماهم . .

إن ذلك جميعه وأضعافه معه ضرب من الاحتجاج غير المقصود على ما يلاقونه هناك فى البيت من إعنات وتحكم وعدوان .

لا تزال تربيتنا ترى من سوء الأدب أن يتحدث الصغار مع الكبار . .

فإذا أبدى الصغير رأيه مع ضيوف أبيه ، تلقى منه زجرا قاسيا : اسكت يا ولد . . !

وإذا توجه الطفل بسؤال إلى أبيه زجره أيضا سيما إذا تكرر السؤال . .

وإذا رسب التلميذ — مهما يكن جده واجتهاده — فأن البيت يشتعل نارا تريد أن تحرقه . . مما يحمل التلميذ على الهروب أو الانتحار .

فمثلا ذلك المواطن « أحمد حسن » لو لم يغلظ هو وزوجه على ولدهما « سعيد أحمد حسن » لرسوبه فى الدور الأول لامتحان الثقافة فى العام الماضى ، لما أشعل « سعيد » فى نفسه النار منتحرا . ، ولما غادر دنياه المتعبة القاسية فى كفن من اللهب المشتعل المشبوب . . ! !

وكم لسعيد هذا — رحمه الله — من أشباه ونظراء .

ترى كم واحداً في كل ألف منا يجد بين ذكريات طفولته مثل هذه المتعة الفذة التي وجدها بطل القصة الآتية ؟ ؟ :

— اقرءوا . .

— « علمني أبي ، وكان عطوفا مدبّرا ، أن ألهو بأشياء بسيطة . وكان مما أهواه في طفولتي أن أجمع شرانق الفراش ، وأن أراقب في الربيع خروج الفراش منها كأنها أزهار . وكان جهادها في التخلص من سجنها يثير عطفي دائما . وأتى والدي يوما بمقص ، وأعمله في غلاف الحرير المقفل على الفراشة وساعدها على الخلاص . ولكن لم تلبث الفراشة أن ماتت .

قال لي أبي : « إن الجهد الذي تبذله الفراشة يابني لتخرج من الشرنقة يخرج السم من جسمها ، وإذا لم يخرج هذا السم ماتت الفراشة .

وكذلك الناس . إذا جهدوا في سبيل ما يريدون ازدادوا قوة وعزما . ولكن إذا واتاهم ما يريدون سهلا طيعا غلب عليهم الضعف ، ومات منهم شيء جليل الخطر » .

« وأراني اليوم أقدر على احتمال أرزاء الحياة لأن أبي علمني منذ الصغر تلك الحقيقة البالغة » . . . ! !

كم هو رائع هذا المثال . !

ليس والدامع طفل ، . هذا الذي يتكلم . . ولكنه صديق يتحدث إلى صديقه وزميل يتناجى مع زميل . ! ! وهكذا نحرم شبابنا من أهم مقومات الفضيلة حين نحرمهم من الثقة بالنفس واحترامها . وذلك

بسبب المعاملة الجافة القاسية التى نعاملهم بها أطفالا ومراهقين .

وكم أما من بين آلاف الأمهات تستطيع أن تذكر ولدها فى غبطة وابتهاج وتعدد مناقبه فى نشوة وثقة كما فعلت تلك الأم الأمريكية التى تحدثت عن ولدها فقالت فى زهو وفخار :

— « يبلغ ولدى جون اليوم الثالثة والعشرين من عمره ، وهو شغوف بالقراءة ، محب لمعاشرة الآخرين ، مولع بالألعاب الرياضية ، وبمصاحبة الزميلات » . . ! !

لعلكم ستحسبونها أما داعرة ، هذه التى تبتهج إذ ترى ولدها شغوفا بمصاحبة الزميلات . . ! !

ولكن انظروا البلاء الحسن الذى أبلته فى سبيل تربيته وتنشئته . . ها هى ذى تتحدث فلنصغ إليها .

— « كان الركن الذى يقوم عليه مذهبى فى تثقيفه هو أن أساس التربية جميعا هو الاعتماد على النفس ، وأن قوام الاعتماد على النفس ، هو قدرة المرء على العمل بيديه . وقد أخذت على نفسى عند ما بلغ جون الثالثة من عمره أن أدرب يديه على العمل ؛ فكنت أنبطح على الأرض وأساعده فى بناء بيت من قطع الخشب . كنت أدع له الرأى فيما يبنيه . وكنت أنا أسدّده وآبى إلا أن تكون الجدران مستقيمة والزوايا قائمة والسقوف متينة . فلقد أردت أن أعود أنامله على العمل الدقيق . . ولما بلغ جون الرابعة من عمره علمته استعمال الآلات . وكنت أرى فى استعمالها تدريبا لليد والفكر معا . .

« ومنذ نعومة أظفار جون وأنا أغرس فى ذهنه صورة من كل

نظرية أو قاعدة . . ومنذ أيامه الأولى وأنا أعامله كرجل مهذب وقادر » . . !

إننا نحرم أولادنا ومجتمعنا من الفرصة الجزيلة التى تمكن من الفضيلة ، وذلك بما نسلكه تجاههم من قسوة مباشرة أو غير مباشرة . . وعلاقة الولد مع أبيه ومع أسرته . تحدد فيما بعد علاقته بالدولة وبالمجتمع ؛ فالدولة هى بديل أبيه عندما يصير رجلا كبيرا . والمجتمع بديل أسرته ومنزله . فإذا كانت علاقته السالفة بأبيه وبالبيت مشحونة بالبغضاء والحقد ، فأنها ستلبس نفس الثوب حين تكون مع الدولة والمجتمع . . ذلك أننا حين لا ننعم ونحن صغار بعطف آبائنا وتقدير ذوينا ، نعيش حياتنا كلها فى خوف مستمر من عدم عطف الغير علينا . ويصاحبنا إحساس ضاغط بسوء رأى الآخرين فينا ، ورغبتهم فى القسوة علينا . وهكذا نسلب خير نعم الحياة وفضائلها . نعمة التعاطف الاجتماعى الذى يظفرنا بنشاط مشترك متآزر يسعى بنا نحو غايات مشتركة صاعدة . .

ويطارد « قانون الغابة » المنزلى الأبناء من الطفولة إلى الشباب . بل هو فى هذا الدور الثانى أكثر عدوانا وصلفا . .

ونستطيع أن نقول إن الطفل فى بيوتنا ، أعنى معظمها ، يفقد نصف شخصيته ؛ فإذا كبر وصار شابا فتيا فقد نصفها الآخر . . ! !

ذلك أن الطفولة بما فيها من ضعف يستدرّ الرحمة التى تشفع لنا أحيانا لدى آبائنا ؛ فتخفف من حدة بطشهم وإكراههم وأيضا فأن شعورنا بمالنا من حرية واختيار يكون فى تلك السن المبكرة خافتا وقنوعا . . أما فى طور شبابنا حيث ينمو شعورنا بالحرية المسلوبة

فيزداد عذابنا النفسى . وحيث يتخلى عنا شافع الطفولة الذى ذكرناه . ؛ فأن إحساسنا بوطأة الألزام والقهر يكون فادحا وثقيلا .

مالون القسوة والاستبداد اللذين يسلكهما البيت معنا فى سن الشباب ؟؟

إنه اختيار الدراسة التى ندرسها ، وتعيين الوجهة والمصير . . ! !

فى الصيف الماضى وقف شاب فى مصيف رأس البر أمام «اللسان» . .

وكانت الشمس تتداعى مائلة للمغيب بعد يوم من أيامها الحافلة بالبذل والإنفاق . . وكأنما أسر مشهد الغروب لنفس فتانا حديثا ؛ فسرت فى كيانه قشعريرة رهيبة . نخرت عباب جسمه فى مثل سرعة الضوء ؛ وفجأة سأل نفسه :

— أأفعلها ؟ ؟ . . .

لقد ذكره مغيب الشمس بأمل له طواه الغروب ، وانتهز الصراع النفسى الكامن فى نفسه فرصة الضعف المواتى فانقض على إرادته اللينة يريد أن يدفعها إلى الفناء . .

وتمثل هذا الانقضاض المدمدم فى صرخات غير مسموعة انطلقت فى خواء نفسه نابحة : أجل ، افعلها . . هاهو ذا البحر أمامك . لن تجد قبرا أرحب منه . بل لن تجد «لانهائية» تحلق فيها مشيئتك المعطلة سواه . . ! ! !

ومن يدرى ؛ فلو أن هذه التجربة مرت بصاحبنا وهو هناك وحده لكان محتملا أن ننعته الآن بالفقيد وبالمرحوم . . .

إن مأساة هذا الشاب مأساة الكثرة الكاثرة من نظرائه . يريدون للمستقبل طريقا ، ويصر آباؤهم على طريق . .

هم مثلا يريدون كليات الآداب ، أو التجارة . وآباؤهم يريدون الطب ، أو الهندسة . .

إننا لا نسلب الآباء حق توجيه أبنائهم ، ولا ندعو لأهمال تجاربهم وخبراتهم . بل نحترم لهم ذلك الحق . . وننصح الأبناء أن يضعوا تجاربهم وآراءهم موضع التقدير والاعتبار . . لكن ذلك ينبغى أن يتم بأسلوب متكافىء . لا يشبع رغبة الأب بامتصاص رغبة الابن . لا ينفس عن نزعة الوالد ، بخنق نزعة الولد . . أجل بطريقة نعامل بها شبابا له عقل ووجدان وإرادة ، لادمى خشبية تعبث بها وبعصايرها أنامل الآباء . . !

وإذا كان لا بد للوالد ـ أى والد ـ من سوق ولده فى الطريق التى يريدها ؛ فليكن من الفطنة بحيث يعد نفس فتاه ويهيئها للقبول فى وقت مبكر مستعينا بوسائل الأقناع والأيحاء وحدها ، حتى إذا أثمرت الوسيلة التى سيمارسها فى رفق من مبتكر الدراسة الثانوية على الأقل ، دفعه فى حصافة إلى حيث يريد . .

وثمت صورة أخرى من صور « الاستعمار الداخلى » الذى يهيمن به البيت فى غلظة وعدم مبالاة . .

هؤلاء الفتيات اللاتى يدفعن إلى أزواج لا يريدونهن . أعرف «فتاة» كانت كالزهرة . . تقدم لخطبتها شيخ هرم فى مثل سن أبيها بيد أنه من ذوى الجاه والثراء . . (!) ورأت الفتاة أنها ستكره على معاشرته والاقتران به ؛ فهددت أهلها بالانتحار . ولم يأبهوا لها ولا لتهديدها . ، وزفت إلى مصيرها فى ليلة حالكة السواد . . ، وبعد ستة أشهر طلقت من زوجها بعد أن أعلنت حربا على كل حرمات الحياة الزوجية (؟) .

وبعد عام رأيتها صدفة فى الطريق ؛ فلم أكد أعرفها . . كانت مغبرة الوجه متسخة الثوب شاحبة الوجه متهالكة الخطى . . لا تزال مرارة تلك النظرة فى حلقى . . . وسألت عن أمرها فيما بعد ؛ فعلمت أن أهلها رفضوها بعد الطلاق . فأخذت مكانها كعضو جديد بين بنات الهوى الرخيصات . وأيضا احترفت تجارة المخدرات . . . ! !

ولو أننا جندنا من رجال الأحصاء ثلة ليدركوا عدد اللائى يماثلن فتاتنا فى المأساة ، ويشاركنها فى المصير . لتقطعت أنفاسهم إعياء ولما يشارفوا منتصف الطريق . . !

أين يعيش هذا الطراز من الآباء ، ومن البيوت ؟ ؟

فى غابة ، أم فى مجتمع ؟ ! . .

فى قطيع ، أم فى أمة ؟ ! . .

وهل تواتى الفضيلة قوما لهم مثل هذا السلوك ؟ ! . .

إننا لا نستطيع أن نطالب الحيوان بأن يكون فاضلا ، وعلى مستوى كريم من الأخلاق الرفيعة . . وهل الفتاة التى تعامل تلك المعاملة ، وتدفع كخرقة الثوب إلى أحضان بعل يتراءى لها بغلا . (!) ، هل مثل هذه تكون إنسانا حتى نطالبها بمكارم الأخلاق ؟ ؟

لقد قام واحد من كبار علماء النفس والتربية بتجربة طريفة . نقدمها هدية لبيوتنا جميعا . .

إنه أكره حصانا على أن يطأ فرساً قصيرة السيقان غليظة الجسم ، فبعد أن فعل ، أصيب أى الحصان بأسهال مفاجىء . . ثم لبث بعد ذلك زمنا طويلا يتحاشى أن يقع بصره على تلك الفرس داخل الحظيرة . .

وكان كلما مر بها أشاح بوجهه كأنه يعبر عن احتقاره لها ، واشمئزازه منها

فإذا كان الحيوان يملك حسا جماليا يدفعه إلى اختيار ما هو جميل ومناسب ، كما يدفعه إلى الاشمئزاز من القبح . . أفليس يملك الإنسان شعوراً بالجمال يلزمنا تقديره وإعطاؤه حقه وفرصته . . ؟ ؟

إن معظم الخيانات الزوجية ناجحة عن هذا اللون البشع من الأكراه . إكراه الفتيات على زواج لا يردنه ، ولا يحملن له مودة ولا توقيرا . .

وهذا الحكم لا نصدره عفو الحديث . ولكنه صورة يقين أثمرته الشواهد والمثلات . .

وللدلك الأكراه سمات شتى ؛ فليس هو فقط ذلك الذى يعتمد على العقوبة والتهديد والأرغام . . بل إن منه ذلك الذى يجىء عن طريق الخداع ، والاستهواء ، والتخدير الذى يسلب البنت إرادتها مؤقتا ثم تفيق بعد ذلك لتجد نفسها بين ذراعى ، أقصد بين جناحى غراب مفزع دميم . . ! ! !

لا بد أن يعرف البيت واجبه من جديد ، ويسوس ذويه وأبناءه بوحى من الواجب ، لا بسلطان من القوة .

إن بيوتنا تسلك سلوك الفتى المراهق الذى يستطيع أن يسير فى غبطة عشر ساعات على قدميه مع مظاهرة تصفق وتهلل معرضا نفسه بهذا للأذى والضنى وسوء الحساب . ولكنه يعجز عن أن يجلس ساعة واحدة مستقبلا مسئلة رياضية يحلها ، أو نظرية علمية يهضمها . . !

هكذا بيوتنا ، فهى تفر من الوسائل السليمة للتربية والتقويم ، لأن

هذه الوسائل تحتاج إلى مصابرة وحلم وجهد . وتتوسل بالقوة والقسوة لأنها لا تكلف أصحابها سوى حمل العصا ، وإصدار الأوامر . . ! !

إن تكوين العادات الصالحة ــ مثلا ــ أجدى على التربية من الأرهاب . فهل تستطيع بيوتنا أن تسلك بنا هذا السبيل ؟ طبعا لا ؛ ففاقد الشيء لا يعطيه ، والبيت المصرى بل العربى لا يزال يفقد العادات الصالحة حتى بين الآباء والأمهات . . !

هنا القوة يا رجال ويا آباء . .

القوة الشريفة التى تجعلكم قدوة تحتذى ؛ فهل تغلظون على أنفسكم قليلا لتبلغوا ذاك المستوى . ؟

إننا نفعل العكس تماما . . وهنا تنقلنا المناسبة إلى لون آخر من ألوان القوة الطاغية فى البيت وما تؤديه من خدمات سافلة . (!) .

فالواقع آن الآباء لا يستعملون العنف مع أبنائهم وحدهم . بل كثيرا ما يقع العنف على الأم أيضا . . وإنى لألقى سؤالا :

عندما يتشاجر الزوج مع زوجه ويكون من كرام الأزواج ماذا يفعل . . ؟

إنه يفض الشجار بالانسحاب ومغادرة البيت مؤقتا . . .

ونحن نعتبر هذا منه سلوكا كريما ، والحق أنه كذلك فعلا إذا قورن بسلوك الرجل الآخر الذى يفض الشجار بشج رأس زوجته أو إهدائها عاهة دائمة فى جسمها . . ! ! !

ومع هذا؛ فانظروا ما يسببه ذلك السلوك الكريم من جرائر وجرائم . .

إن أولادنا الذين يهربون من بيوتهم ، ويخسرون أخلاقهم ، وقد

ينتهى بهم المسعى إلى إحدى الأصلاحيات ، لم يفعلوا فى الواقع أكثر من تقليد آبائهم . .

فلطالما رأى الولد أباه يهرب من الشجار إلى الشارع ريثما تهدأ أعصابه ثم يعود . . فتكونت فى وجدانه فكرة عن أن الفرار من البيت هو العلاج الحاسم لما يلقاه من إعنات وشجار . . بيد أنه لن يكون مؤقتا كهروب أبيه الذى لا يزيد عن ساعات .

وإنما سيكون هروبا يناسب سن الفتى واضطرام عواطفه ، وضآلة مسئولياته . .

فسياسة القوة إذن فى كافة أزيائها ، عمل تخريبى للأسرة وللمجتمع ، وتمهيد موفق لنشر الرذيلة بين الجماعة كلها . . وتستطيعون أن تضيفوا لما ذكرنا من عواقب « الإكراه المنزلى » تلك الأمراض النفسية المدمرة التى تدمغ بها القسوة نفس الشاب وحياته ، من عصاب ، إلى صرع ، إلى انحراف ، إلى سلوك قتالى لا يحيا صاحبه بغير عدوان . . .

إننا بقانون الغابة الذى نستعمله مع أبنائنا نملأ بواطن أنفسهم بالصراع الذى لا يكاد يفارقهم أبدا . والصراع الداخلى فى النفس يضعف القدرة على أداء الواجب ثم يلاشيها .

ولو نعرف نحن مداخل هذا الصراع وتعبيراته لأدركنا أننا بقسوتنا على أبنائنا فى أى صورة من صور القسوة ، نهيئ المجتمع لحريق لا يبقى ولا يذر . .

فمن بين مرضى العالم « أوجست أيكهورن » مؤلف كتاب « الشباب الجامح » نلتقى بشاب يصلح أن يكون عبرة لنا . . وليس موطن العظة

فى نبأه خطورة مسلكه ، بل غرابة الأسلوب الذى عبر به « اللاشعور » عن انتقامه من أبيه .

ولنبدأ القصة ذاكرين أن القسوة التى وجدها الولد من أبيه فى هذه الواقعة لا تكاد بالنسبة لما يقترفه الآباء تسمى قسوة . . فكل ما فى الأمر أن أم الفتى توفيت ، وتزوج الأب بفتاة كانت صديقة للام الراحلة ، وكان الولد يحبها وأبوه لا يدرى . .

وأخذ هذا التصرف البرىء طبعاً صفة القسوة فى « لا شعور » الولد . . ثم لم تلبث أن تكونت فى « اللاشعور » أيضاً رغبة فى الانتقام . .

ما الشكل الذى برزت به هذه الرغبة المكبوتة إلى مسرح الشعور ؟

لقد كان الوالد يحترف تجارة الكحول غير النقى « السبرتو » فكان الولد يسرق الكحول الأحمر من زجاجاته ، ثم يبول فى الزجاجات الفارغة ليملأها بسائل يشبه فى لونه الكحول المسروق . . !!!

يقول « ايكهورن » الذى قام بتحليل الشاب وكشف عن لاشعوره : « إن الفتى قد استخدم فى الانتقام ـ دون قصد منه ـ نفس العضو الذى أحس أن أباه قد أساء إليه بسببه » . . ؟ !

سلوك فى منتهى الغرابة يقرع أجراس الحذر والنذير لندرأ بالرفق والواجب ما عسى أن تدفعنا القسوة إليه من تهلكة وبوار .

والآن . ماذا ينبغى أن نصنع لتطهير البيت والأسرة من هذا الذى وصفناه بقانون الغابة ، وبأى سبيل نتوسل لإنشاء علاقات منزلية جديدة تهتدى بالواجب ولا تتخضع للقوة . . ؟

* * *

السبيل أن ننشر عن طريق الأذاعة ثقافة منزلية واسعة . نبلغها فى كافة ألوان النشاط الأذاعى ـ المحاضرات ، والتمثيليات ، والأغانى . .

والسبيل أيضاً أن نوصى الأدب الموجه ليشبع حاجات هذا الغرض بالقصص القصيرة والطويلة ، وبالبحوث العلمية ، فى المقالات وفى الكتب . .

وعلينا أن نلاحظ بطء هذه الوسيلة التثقيفية ـ ولذا فنحن فى حاجة معها إلى وسيلة أخرى تكون سريعة الأجداء ، ونحن نرى أن تكون هذه الوسيلة « مكتب العلاقات المنزلية » . .

ماذا نعنى بهذا المكتب ؟؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال أقول لكم إننى هممت أن أسميه « محكمة العلاقات المنزلية » بيد أننى تذكرت المنهج الذى أسير وأدعو للسير عليه . ألا وهو حذف القوة ورفع سلطانها ما وجدنا لذلك سبيلا . .

وشىء آخر ؛ فنحن لا نريد أن تأخذ الأخطاء المنزلية صفة الخصومة بين الولد ووالده . وكلمة محكمة ووظيفتها أيضاً تشعران بالخصومة التى تتطلب المقاضاة .

إن مكتب « العلاقات المنزلية » ضروري لحياتنا وهو اليوم أكثر ضرورة منه غدا ، وضرورته فى غد أكثر منها بعد غد . .

أما وظيفته وعمله ؛ فتكون تقديم النصيحة والمشورة الملزمة فى الحالات التى تعرض عليه . .

وما هذه الحالات . . ؟ ؟

إليكم أمثلة منها :

«زينب» فتاة مضيئة يمكن لو تزوجت زواجا موفقا أن تكون سيدة

فاضلة ، وأما لفتيان ناضجين . ولـكن أباها يريد أن يقحم حمى حياتها رجلا لا تريده . .

فلماذا نتركها لنزوة أبيها إذا كان سىء الاختيار ، ولماذا ـ أيضا ـ نتركها لسوء فهمها إذا كانت سيئة الفهم والتقدير . .

لماذا لا يكون هناك من الأخصائيين الذين يزخرون بالود الإنسانى ، وبالوعى والمقدرة ، من يفصلون فى هذا الاتجاه المنقسم ، والخلاف الضـار . . ؟ ؟

إذا زفت « زينب » لعريس أبيها (!) أعنى للرجل الذى يريد الوالد أن يفرضه عليها . . ثم آل أمرها وانتهى مصيرها لمثل مصير التى ذكرت لـكم نبأها من قبل . فمن الذى سينوء بفسادها ، وانحرافها . . .؟ ومن الذى سيجنى العلقم من سلوك أبنائها الذين سيرضعون منها لبان الأفك المستهتر والحقد الضارى ؟ ؟

إنه المجتمع والدولة . .

إذن لماذا لا يتدخل المجتمع فى صورة مناسبة لا تأخذ صفة العدوان على الحرية والحق المـكتسب ؟

ومثـال آخر :

« توفيق » فتى ريان الشباب ، متوقد الذهن ، مشرق النفس ، لو سار فى الطريق المرغوب لأمكن أن يتطور إلى نبوغ عظيم قد يهب أمته مثل ماوهبوا أممهم والانسانية جميعا رجال مثل « أديسون » و « شكسبير » و « اينشتاين » و « شارلى شابلن » ! !

ولـكن أباه لا يريد أن يمضى فى الطريق المرغوب الذى تتحرق

شوقا إليه كل مواهبه وإمكانياته ؟

إن المأساة التي تملأ نفس « توفيق » بالفجيعة ليست فقط في أنه يدفع عكس هواه .. بل هي قبل هذا شعوره التعس بفقدان النصير . ! !

لماذا لا يناصره المجتمع ويعينه على أبيه إذا كان مخطئا ، أو يقنعه بوجهة نظره إن يكن مصيبا ؟ ؟

إن « مكتب العلاقات المنزلية » يستطيع أن يقوم بهذا العمل الجليل . ورأينا أنه بما سيمنح من سلطات معقولة ، يستطيع أن يحل أكثر مشاكل الشباب . تلك المشاكل التي تغوص في نفسه ثم توجهه أضغانها إلى كل عمل تخريبي عقيم . .

وطبيعي أننا لا نعني بمكتب العلاقات المنزلية ، مكتبا واحدا في مكان واحد . . بل سيكون مكاتب كثيرة متعددة حسب تعدد الحاجة إليها .

ولقد قلنا من قبل : إننا نؤثر تسميتها « مكاتب » لا « محاكم » . وهذا فيما يختص بالمشاكل القائمة بين الأبناء والآباء . . الأبناء الذين يوجهون رغم أنوفهم . ، أو الذين يهمل الآباء شأنهم لأنهم أبناء الزوجة القديمة (؟ !) . . . ، أو الفتيات اللاتي يكرهن على زواج بغيض .

ولكن إلى جوار هذه المكاتب ينبغي أن تقوم « محاكم العلاقات المنزلية » ، أو « محاكم الأسرة » . .

وقبل أن تسألوني عن اختصاصها . . أقول : إنه ينبغي أن تقوم على أنقاض المحاكم الشرعية ، والمجالس الملية . . أظنكم أدركتم الآن اختصاصها . ؟

وأرجو من الذين سيعارضونني أو ينفرون من رأيي هذا أن

يلاحظوا كلمة « ينبغى » . . إننى هنا ، وفى كل مناسبة أبدى فيها رأياً أراه ، لا أستعمل كلمة « يجب » بل أقول « ينبغى » . .

ذلك أننى لا أحب أن أفرض على أحد رأيى ، ما دمت أرفض أن يفرض أحد رأيه علىّ . . وكم أنا شديد الرجاء والرغبة فى أن تنتقل هذه العدوى للنقاد والمعارضين جميعاً ، لتستحيل الحراب المتلاحمة فى معركة الرأى إلى شموع نبصر فيها مسالك المعرفة والحقيقة . .

ما معنى أن يقوم فى بلد متحضر محاكم خاصة للمسلمين ، ومحاكم خاصة لغير المسلمين . . ؟؟

ومن الذى بدأ فصنع هذه التفرقة حتى نعرف الغرض الذى وضعت التفرقة لخدمته ؟

وما معنى أن نكل بأخطر قضايا المجتمع وأهمها شأناً ، وأولاها بالتقدير والاهتمام — وهى مشاكل الأسرة — إلى نفر من الشيوخ ، ومن القسس ، لم تؤهلهم دراساتهم أدنى تأهيل لإدراك المشاكل التربوية ، والنفسية ، والسلوكية ، والاقتصادية التى تعتمل فى الأسرة وتفرز كافة أخطائها وانحرافاتها ؟

وكيف ننشد « وحدة الشخصية » وهى بداية السير فى طريق الاكتمال الخلقى للفرد وللجماعة . .

أقول كيف ننشد « وحدة الشخصية » لمجتمع ممزق الكيان . هنا محاكم المسلمين . . وهنا محاكم النصارى . . ؟

وإذا كانت هناك ضرورة تدعو لتطبيق المنهج الدينى فى قضايا الأحوال الشخصية ، المنهج الأسلامى والمنهج المسيحى ، فلماذا لا يوحدان

فى قانون يحكم به قاض واحد ومحكمة واحدة . . بدلا من أن يكون هناك قاضيان ، مسلم ومسيحى . . ومحكمتان ، شرعية وملية . . ! ! !

حقا إنه « كرنفال » نصفه فاجع ونصفه مضحك . .

ثم من قال إن مشاكل الأسرة أحوال شخصية . ؟ !

شخصية . . ؟ ؟ !

إن البيت هو المجتمع ، والعائلة هى الأمة ، وليست خلافات المنزل والعائلة أحوالا شخصية تمس شخص الزوج أو شخص الزوجة . . إنها مشاكل الأمة والدولة والمجتمع . . إنها أولى بالاهتمام والعناية من قضايا تزييف النقود وخلط الدقيق . .

اصحوا يا نيام . .

واعلموا أن الأسرة ليست من الهوان وضعة الشأن بحيث تمنح ركنا جانبيا ، وعناية هامشية . .

واعلموا أيضا أن هذه التفرقة فوق تحطيمها للوحدة القومية ، ووحدة الشخصية ؛ فأنها تفتح للرذائل الخلقية كل باب . .

أسمعتم عن بيوت الطاعة ؟ ؟ إنه قانون المحاكم الشرعية . . مع الاعتذار لكلمة قانون حتى وهى مضافة لكلمة الغابة . . (! ! !)

لقد رأيت مشهدا لن أنساه . . فتاة فى ربيع صباها بنت أسرة كريمة فاضلة تفر مذعورة بقميص النوم إلى سطح المنزل ، ثم تقفز السطح فى مخاطرة بشعة إلى سطح منزل مجاور . .

أتدرون لماذا . . ؟

لأن أهلها فوجئوا بزوجها الخبيث الماكر يقتحم البيت خلسة ، ن

النافذة ومعه رجل الشرطة ، لكى يقبض على زوجته التى يسميها قانون المحاكم الشرعية . « ناشزا » ولكى يسوقها إلى سجن الطاعة . . معذرة أريد أن أقول بيت الطاعة . . ؟ ! !

ألم أقل لكم من قبل إنها بلاد السمع والطاعة ؟ ؟

مجتمع هذا ، أم « منسر » عظيم . . ؟ ؟

وكيف نوفق بين صراخنا العالى بضرورة التقدم ، والسير فى قافلة الحضارة ، وبين إصرارنا على هذه العاديات القديمة ، والزواحف المنقرضة . ؟ ؟ ! !

قد يبدو لنا صعوبة تنفيذ اقتراحنا الداعى لألغاء محاكم المسلمين ومحاكم النصارى . . واستبدالها بمحاكم الأسرة ، أو بمحاكم العلاقات المنزلية . . ولكن الأمر جد يسير .

فعدد المحاكم الشرعية فى الأحصاء الرسمى لعام (١٩٥٠) هو — (١١٩) محكمة . .

لكن تعداد وظائف القضاء بها حوالى مائتى قاض . .

وعدد المحامين الشرعين فى إحصاء عام (١٩٥٠) هو (٣٠٠٨) يترافعون أمام محاكمها العليا والكلية والجزئية . .

لنقل إنهم الآن حوالى (٤٠٠٠) محام .

وعدا القضاة والمحامين يوجد الموظفون الكتابيون والأداريون . .

أما هؤلاء ، أعنى الكتابيين والأداريين ؛ فيمكن وصفهم فى أعمال مماثلة فى المصالح الحكومية الكثيرة . .

وأما القضاة والمحامون ؛ فإذا افترضنا جدلا ، أنهم سيسرحون ؛ فأن

مستقبل وطن بأجمعه لا يمكن أن يبخل عليه بهذه التضحية ..

على أن الأمر لا يقتضى هذه التضحية بحال ، ولنفرض أننا نريد من اليوم أن نبدأ تنفيذ الاقتراح وعندئذ تكون الخطوات المطلوب انتهاجها هى :

(١) وضع التشريع الموحد الذى ستحكم به «محاكم العلاقات المنزلية» .

(٢) توزيعه على القضاة القائمين وعلى المحامين لدراسته . وأعطائهم فترة مناسبة لهذه الدراسة .

(٣) تحويل جميع قضايا المجالس الملية والمحاكم الشرعية إلى المحاكم الجديدة التى ستحكم بقانون جديد ، ليس هو قانون الشيخ . . ولا قانون القسيس . . بل قانون الدولة .

(٤) شغل المناصب القضائية التى ستخلو فى هذه المحاكم بموت أصحابها أو بتقاعدهم — شغلها بخريجى كليات الحقوق مع إفساح دراستهم القانونية لتوجيهات الدين وعلم النفس وعلم الاجتماع فيما يخص مشاكل الأسرة بصفة خاصة . .

وأما المتخرجون فى كلية الشريعة بالأزهر ؛ ففى مهنة التدريس متسع لهم . . ويمكن أن يتاح لهم إجراء « معادلة » تمكنهم من وظائف القضاء إذا شاءوا .

إن قضاء البلاد ينبغى أن يوحد ويهذب . .

ومحاكم المسلمين ومحاكم النصارى ، ينبغى أن تتحول من فورها إلى محاكم الأسرة أو العلاقات المنزلية ، التى ستكون بدورها جزءا من قضائنا العام ومحاكمنا الوطنية . .

ولا بد من تشريع جديد لهذه المحاكم يلائم روح بلادنا الجديدة ،

ويزامل تطلعها المصمم وشوقها الزاخر إلى مستقبل لالغو فيه ولا تأثيم . .

فإذا كان النزاع ـ مثلا ـ بين « بطرس » وزوجه « مارى » وصارت مصلحة الأسرة والأولاد تحتم التفريق بين مارى وزوجها . فليكن القانون من الفطنة والقوة بحيث يفصل بالطلاق ، ولو كان السبب شيئا آخر غير الخيانة الزوجية . .

هل يعتبر هذا خروجا على الكتاب المقدس ؟

ليكن ذلك ؛ فالكتاب المقدس لم يقل الكلمة الأخيرة فى كل شىء ..؟

وإذا كان النزاع بين « أحمد » وزوجه « فاطمة » واقتضت مصلحة الأسرة والأبناء أن يحرّم على أحمد الاقتران بالزوجة الثانية التي يريد الاقتران بها . مثلا ، فليكن القانون من الذكاء بحيث يحرم باسم المصلحة العامة ما جعله الدين مباحا . !

هل سيغضب ذلك العمل أبا حنيفة والشافعى ومالكا ؟ حسن . ، إنهم أيضا لم يقولوا كل شىء . .

أما أن نترك بيوتنا وأجيالنا وديعة نصوص واتجاهات استنفدت أغراضها ، فعمل غير صالح . وضلال يفضى إلى ضلال . .

وبهذا نضع حداً لرذائل الذين يتوسلون بتغيير الدين والعقيدة لمفارقة زوجة ، وتشريد ولد ، وهدم أسرة . . ! ، ونضع حداً لرذائل الذين يسرفون فى الطلاق ، ويسرفون فى الزواج .

إن مجموع المطلقات فى عشر سنوات أخيرة بلغ فى بلادنا ـــ حسب إحصاء الحكومة ـــ (٧٧١٨٥٣) .

فاذا افترضنا أن ثلث هؤلاء المطلقات بلا ولد . ، وجعلنا متوسط

الذرية للأخريات ولدين . . لزاد محصول مصر من الأطفال المشردين أو أشباه المشردين بسبب الطلاق فى هذه الأعوام على المليون . . ! !

ثم إن المأساة لاتجف بهذه الأرقام المفجعة . فقضايا الطلاق المنظورة فى عام واحد بلغت (١٨٨٢٢٧) وكثيرا ماينتهى الحكم فيها بالطلاق . ! !

إن بيوتنا آبار عفنة تضج بالأفاعى والجرائيم . والمحاكم الشرعية بنظمها والمجالس الملية بقوانينها تحمل من أوزار هذا التدهور ما يحتم على الدولة إعفاءها من مهمتها ، وتطويرها إلى ما ذكرنا من محاكم جديدة للأسرة . ، ذات نهج أسمى وتشريع أنضج .

ب — المدرسة

فاذا غادرنا البيت باعتباره وكراً للقوة المستعلية على الواجب ، إلى وكر آخر يحمل نفس السمت ، التقينا بالمدرسة . .

والحق أن المدرسة عندنا مكان تعس لطلاب تعسين . فهى تستقبل شبابا يحمل فوق كاهله الوهنان أثقال البيت وحماقاته ، كما يحمل فى أحيان كثيرة آلام عوزه وخصاصته . .

وهى أى المدرسة خاضعة لقانون القوة وسياستها ، خضوعا يسلبها نعمة الشعور بالواجب ، فضلا عن أن تهدى إليه ، وتدعو له .

فالاستعمار الداخلى فى نطاق التربية والتعليم يطغى ويتمدد حتى يخنق جميع أنفاس التربية والتعليم . . والروتين الحكومى فى هذا النطاق يصول ويجول كحصان ألقى بكل شكائمه تحت قدميه . وإن وطأته الضاغطة لتتجمع فى ثقل ماحق لتستقر آخر الأمر فوق هذا الشىء الضعيف

المرتجف المقرور الذى نسميه « مدرسة » . .

والمدرسة طبعا ، هى مجموعة التلاميذ والأساتذة . ومجموعة النظم التى يرتبط بها التلميذ والأستاذ ليؤديا واجبهما المشترك . ، والتلاميذ وأساتذتهم ، لا يعرفون عن هذه النظم إلا أنها « الأوامر التى وضعت لتنفذ » . فهم لم يشتركوا فى وضعها واختيارها . وإلى هنا قد يكون الأمر طبيعيا . ولكن موضوع هذه النظم والروح السارى خلالها ، والمهيمن عليها ، ثم الطريقة التى تفرض بها سلطانها ، كل هذه ينبغى أن تكون موضع البحث الواعى لننظر مدى ما تنطوى عليه من عناصر التوفيق أو من عوامل الأخفاق .

ونحن هنا لانعرض المدرسة كمشكلة اجتماعية ، بل كمشكلة خلقية . أى أننا لن نتقصى كافة مشاكلها وأوضاعها فليس هذا ـ طبعا ـ موضوع الكتاب . . وإنما نريد فقط أن نكشف عنها باعتبارها أحد العوامل التى تشحذ الخوف من القوة ، ولا تشحذ الإيمان بالواجب مما يساعد على التمكين لأخلاق العبيد فى مجتمع يريد أو يجب أن يريد الظفر بأخلاق حرة لقوم أحرار . .

فمن هذه الزاوية وحدها نلقى ضوء النقد على المدرسة . فنجد المدرسة فى بلادنا مرتعا سعيداً لسياسة القوة الباطشة . وكلاً يابساً قحلا لسياسة الواجب الملهم . .

وإذا أنت ألقيت بصيرتك على طلاب مدارسنا اليوم ، فأنك ملاقيهم واحداً من اثنين ، وقليلا ماتجد ثالثاً يقف فى الوسط . . إما تلميذ خانع ، وإما تلميذ وقح . . أما خنوع الأول فثمرة استسلامه لقانون الغابة

القائم فى المدرسة . . وأما وقاحة الثانى فثمرة تمرده ورغبته الطائشة غير المهذبة فى مقاومة هذا القانون . .

فى بعض مدارسنا الثانوية ، اعتدى طلاب كبار على أستاذ لهم بالضرب . . أتدرون لماذا . . ؟

لأن الطلاب اكتشفوا بمواهبهم الفذة أن شعب النشاط المدرسى تنقصها شعبة هامة . وقرروا أن يعاونوا الوزارة والمدرسة فى إنشاء هذه الشعبة على نفقتهم الخاصة . . وهناك فى ركن قصى غير مطروق، من فناء المدرسة ، اجتمعت شعبة النشاط الجديد ، وأبلت بلاء شاقا حسنا أثار إعجاب أحد الأساتذة ؛ فاتجه صوبهم . وسألهم .

— ماذا تفعلون يا أولاد ؟ ؟

فأجابوا فى هدوء : نشاط مدرسى يا افندم . .

— فسألهم ! وما علاقة النشاط المدرسى بتدخين الممنوعات ...؟ ؟

— فأجابوه فى هدوء أصحاب المزاج . .

— دى شعبة جديدة من شعب النشاط ياافندم . . ! !

ولما أبلغ الأستاذ أمرهم لناظر المدرسة أبعد الناظر اثنين كانا يتزعمان هذه « الشعبة » . . مما أثار الحفيظة فتربصا ومعهما آخرون بالأستاذ فى الخارج وضربوه . .

أسمع بعضكم يتساءل :

هل كان لابد أن تترك المدرسة أولئك الأشقياء فى نشاطهم الحرّ (!) لكى لايعتدوا على أستاذ بالضرب ؟ ؟

أبدا ؛ ونحن لا نقصد هـذا . . وإنما نذكر السبب ليزداد جرمهم

بشاعة . فإذا كان سبب العدوان كما ذكرنا يصير جرم المعتدى مضاعفا مرذولا . . ولكن ليس « العلاج » أن نقول للمجرم يا مجرم . ، بل هو اكتشاف أسباب إجرامه ودواعى موقفه وإمكانيات بعثه من جديد إنسانا فاضلا وديعا . . وفى مدرسة أخرى إعدادية لا تجاوز معظم أعمار تلاميذها الخامسة عشرة ، ضرب تلميذ أستاذه على وجهه ضربا مهينا ، فلما همّ الأستاذ ليدافع عن نفسه تصدى له تلميذ آخر باذلا عونه النبيل (!) لزميله المعتدى ؛ وأخرج من جيبه مطواة ، وشرع نصلها ، ولوّح بها فى وجه أستاذه قائلا :

— والله افتح بطنك . ! ! !

والذين لا يأخذ عدوانهم على أستاتذتهم هذا الشكل الطاغى المزرى من الطلاب يعتدون فى صور أخرى كثيرة لعل أكثرها ذيوعا تهديدهم الأساتذة برفع أمرهم للناظر . ناظر المدرسة . . . ؟ !

ولعلكم تذهلون ذهولا ينأى بكم عن تصديق الواقعة الآتية . ولكنها مع ذلك وقعت . وكان بطلها تلميذ بأحدى مدارسنا الابتدائية ، لم تجاوز سنه التاسعة . قال لمدرس الحساب وهو يزجره :

— والله لأقول للبيه الناظر يمدك . . ! ! !

ومعنى كلمة «يمدّك» يضربك على قدميك بعد تجريدهما من الحذاء . .

إن عبارة هذا الطفل ستكون دليلنا إلى اكتشاف العوامل الخبيثة التى تفرض القوة على الواجب فى المدرسة ، والتى تخلق فى نفوس الطلاب رغبة فى محاكاة ما يشهدونه فى معاهدهم من جهة ، وفى مقاومة الضغط المتوالى والقسوة الهابطة عليهم من جهة أخرى . فيسلكون

مع أساتذتهم ، وفى بيوتهم ، وفى الطريق ذلك السلوك القتالى الشاذ . .

فالمدرسة تستوحى كل مناشطها من القوة . . فهناك الضرب ، والتأنيب ، والطرد ، والأكراه في شتى مظاهره وألوانه .

وعلى الرغم من تحريم الضرب بقانون ؛ فمن السذاجة أن ننتظر احترام مثل هذا القانون . فالتعذيب البدنى فى مدارسنا قائم ما قامت حوافزه ودواعيه . . فما هذه الحوافز وتلك الدواعى . . ؟

ذات يوم رأيت أحد زملائنا يضرب تلميذا ضربا مرهقا . واقتربت منه فى وداعة هامسا فى أذنه : شيئا من الرحمة والرفق . . فأشاح وجهه عنى وهو يقول : إن المفتش لا يرحم . . ! ! وعاد ليستأنف الضرب المبهظ بعصاً تالمهث كأنها كلب مسعور . .

إن المفتش لا يرحم . . ! تلك هى المشكلة . وعسى ألا تكونوا قد نسيتم التهديد الطريف الذى توعد به التلميذ الطفل أستاذه قائلا « والله لأقول للناظر يعدّك » . .

فالناظر ، والمفتش مظهران للافة التى تجعل المدرسة مسرحاً للسلوك الذى شعاره ، القوة لا الواجب . .

فالمدرس — مثلا — يضرب التلميذ ، وسيظل يضربه ما دام ثمت شبحان يتراءيان لهواجسه كعفاريت الليل . . ويقذفان فى قلبه الهلوع الذعر والرهبة ، وذانك الشبحان هما . . « البك » الناظر . . و « البك » المفتش . ! !

إن أكثر من تسعين فى المائة من المدرسين مربّى النشىء ، لا يعنيهم أن يكوّنوا عقل التلميذ ، أو يساهموا فى تصميم مستقبله . . وإنما هم

يعملون فقط لملء ذاكرته ببضع قواعد ومعارف تدرأ عنهم نقمة الناظر ، وفضول المفتش . .

وهم لا يرهبون « المذكورين » رهبة صبيانية تزجيها الهواجس الباطلة . . بل يرهبونهما تنفيذا لقانون وزارة التربية والتعليم .

فالوزارة المذكورة تضع مستقبل الأستاذ فى يد الناظر والمفتش . وتغرى الناظر بكتابة « تقارير سرية » ، كما تترك للمفتش أمر تقدير المنزلة التى يستحقها المدرس من حسن أو جيد أو ممتاز . . ويدرك المدرسون هذا فيسارعون إلى إشباع رغبة الناظر الذى يريد بدوره نتيجة حسابية طيبة لمدرسته كى يرقى بها درجة . . ويسارعون إلى إشباع غرور المفتش الذى كثيرا ما تكون تعاليمه مناهضة لما تمليه خبرة المدرس بتلاميذه :

إن الهدف الذى يتلألأ أمام أبصار الاساتذة والذى تهوى إليه أفئدتهم ، ليس ذلك العقل النضير المثقف المتراحب الذى ينبغى أن يهيئوه للتلميذ ، وليس هو تلك الشخصية اليانعة النامية السوية التى يجدر بهم أن يمكنوا التلميذ من حيازتها . . ولكنه الكلمة المطرية فى التقرير السرى للناظر ، ودرجة جيد أو ممتاز ، فى التقرير السنوى للمفتش . . ولكى يظفروا بهذا الغرض السريع يتوسلون بالضرب ، المبرح ، وبالشتم المقتزع ، وبالتقريع المخزى . . وهكذا يطبعون وجدان الشباب بنشاطهم اللافح ، وسلوكهم الشرس . ومع الأيام يصير السلوك القتالى ــ شرعة التلميذ ومنهاجه . . . ! !

وسيظل انصراف طلابنا عن العلم والمعرفة مدينا بالشكر الجزيل لعصا الأستاذ وبطش المدرسة . . فالنفس الإنسانية تحمل أضغانا مؤرثة لكل ما يسبب لها العذاب والألم . .

ولعلنا نجد نسبة المتدينين بين شباب الجامعة ، أكثر من نسبة المتدينين من شباب الأزهر . . ولعلنا لوفحصنا حقيقة الأسباب نجدها راجعة لما عاناه طالب الأزهر وهو طفل فى سبيل القرآن والدين . . لطالما اتخذت عصا « الفقيه » من جسده الغض مرتعا . . لطالما ضربه وحبس وعذب وأوذى . .

وهكذا انطوى « لاشعوره » فى سن مبكرة على جزع أليم تفلت فيما بعد إلى مسرح الشعور فى صورة ذلك العزوف عن الدين ونبذ التعاون معه ، والاستجابة إليه . ، الأمر الذى لا يحدث لطالب الجامعة كبيراً ، لأن أسبابه لم تقتحم حياته صغيراً . . . !

فأكبادنا التى تمشى على الأرض .. ولدى وولدك . ، أخى وأخوك .. زهرات يومنا، ورجاء غدنا . . هؤلاء التلاميذ لن نصنع لكى نملأ نفوسهم ضغنا على العلم وعلى المعرفة وعلى الثقافة أكثر مما نصنع اليوم بهم فى البيت وفى المدرسة . . إخضاعهم لبأس القوة ، وعدم تعويدهم على الانفعال بالواجب .

إن روح السيطرة الشخصية تشيع بين مدرسينا شيوعا يدعو لوجوب تفهم بواعثها ووقف امتدادها . .

والمدرس لايعبر عن هذا الروح بالضرب ، والزجر ، والأسراف فى

إصدار الأوامر والنواهى فحسب . . بل إن ذلك ليتغلغل فى طبيعة رسالته ؛ فيشوّهها .

فمن النادر أن تجد مدرسا يطلب من تلامذته اختيار موضوع الأنشاء الذى سيتحدثون فيه اليوم ، مثلا . . .

فالمنهج الدراسى مظهر من مظاهر امتهان شخصية التلميذ وتجاهلها . ذلك أننا لا نستطيع أن نأخذ رأى الطلاب فيما سنقرره عليهم من مواد وكتب وموضوعات . . بيد أننا نستطيع أن نشعرهم بالمشاركة عن طريق المدرس ساعة إلقاء الدروس وتوزيع المنهج . . ولـكن هذا لايحدث ، لأن شخصية المدرس تموج بالعقد التى لا تسمح له أن يكون ديمقراطيا فى مهنته وعمله ، وردّ الفعل المحتوم لسيطرة الناظر والمفتش ووطأة التقارير السرية ، والعلنية ، تجعل منه إنسانا مريضا وشديد الرغبة فى الانتقام غير المقصود .

والسيطرة الشخصية المستبدة هى وسيلة للثأر والانتقام . . .

فارفعوا عن المدرس إصره ، والغوا التفتيش فإنه « زائدة دودية » وارفعوا الناظر فوق مستوى الجواسيس ، واستبدلوا بالمفتش نظام المدرس الأول واحصروا مهمته فى التوجيه المهذب ، والتعاون المتكافىء . .

حرروا المدرس من مخاوفه ، فإن عدوى العواطف تنقل كل نقائصه النفسية إلى تلاميذه وإن روح التسلط الهابطة عليه من ناظره ومفتشه لتتخذه آخر الأمر قنطرة تعبر فوقها إلى التلميذ نفسـه فتسحقها وتلاشيها . .

إن فلسفة « من علمنى حرفاصرت له عبدا » قد أفسدت أخلاق المدرسة وعطلت رسالتها ..

وإن سياسة القوة المسيطرة على المدرسة لتجعل من التلميذ أداة إعداد المستقبل . . . مستقبل المدرس والناظر ، لا مستقبل التلميذ . . !!!

وإن إمكانيات التلميذ ليضحى بها من أجل تلك الغاية المسيطرة . . ترقية المدرس ، وترقية الناظر ، وموقف المدرس من ناظر المدرسة ومن المفتش يحدد نوع سلوكه مع تلميذه ، وهو إلى الاستغلال أقرب منه إلى التربية السوية القويمة . .

حرروا المدرس من أغلال القوة التى ينوء بها ومكنوه من أن يستلهم فى عمله الواجب ، ليختص بعنايته وجهوده مستقبل التلميذ ، ومستقبل التربية ، ومستقبل السلوك الإنسانى فى هذه البلاد .

وبعد ؛ فليس فى حديثنا هذا عن البيت وعن المدرسة ما ينفى وجود مناسبات تقتضى استعمال القوة بل والأرغام من الوالد ، أو من المدرس ..

بيد أن هذه المناسبات ينبغى أن تكون طارئة ونادرة بحيث لا تأخذ كما هو حادث عندنا صفة القاعدة والدوام . .

هذا أول . .

والأمر الثانى هو أن التدخل القاهر الطارئ من البيت فى حياة أبنائه ، أو من المدرسة فى توجيه تلاميذها ، لا يضر شيئا عندما يكون نظام البيت والمدرسة قد سادها بالفعل روح الواجب . لأن هذا التدخل القاهر سيكون حينئذ أخلاقيا ، لأنه يتم باسم الواجب ، وفى رعاية مبادئه ووسائله وغاياته . الواجب الأخلاقى ، لا الواجب المهنى . .

ج — الجزاء الاجتماعى

وننتقل الآن إلى مظهر آخر من مظاهر إرباء القوة على الواجب فى بلادنا ومجتمعنا — حيث نجد الإيمان بالقوة كوسيلة وحيدة لتقويم السلوك ، يأخذ علينا كل سبيل لبعث الأحساس بالواجب فى نفوسنا وفى سلوكنا .

وسنسمي الوضع الذى تتمثل فيه هذه الظاهرة المزعجة .

— « الجزاء الاجتماعى » . .

ونعنى بالجزاء الاجتماعى ، العقوبات التى يرتبها المجتمع لخطاته ومذنبيه . . نعنى الأسلوب الذى يشرع به المجتمع الجزاء والعقاب ، والأسلوب الذى ينفذ به تشريعه وقوانينه .

ونسارع فنعلن أننا لا نريد إلغاء القانون . ووقف التشريعات التى تحمى سلامة الجماعة وتنظم علائقها . بل نريد أن يكون القانون فى بلادنا علاجا ، لا عقوبة . .

أجل ، هذا التعبير يحدد تماما ما نريد . . « العلاج لا العقوبة » .

وإنا لنلاحظ أن القوانين فى بلادنا العربية كلها إنما توضع للعقاب والتشفى والانتقام . . وليس للعلاج أو الوقاية . . ومعذرة إذا كان فى كلامنا عن « قوانين البلاد العربية » كثير من التجوز والتفاؤل . . !

فالحق أن هناك فى بعض تلك البلاد أوامر فقط ، لا قوانين . . أوامر يتجشأها فى صلف وجهالة وإسراف ، حكام كرعاة الغنم ، أو شيوخ تختفى فى أرديتهم جلائل الموبقات . ؟ !

ومعذرة مرّة أخرى إذا استعملنا نفس القدر من التجوّز والمبالغة فيما أسميناه « سجون البلاد العربية » . . فالسجون فى بعض تلك البلاد شىء لايزال ينتظر المعجزة التى تستطيع أن تختار له اسما مناسبا . . . ! !

إنك تظلم القبور ، إذا سميتها قبرا . .

وتظلم الحظائر ، إذا سميتها حظيرة . .

وتشوه سمعة « السلخانات » إذا سميتها « سلخانة » ولقد رأيت بنفسى بعض المناظر والصوَر الفوتوغرافية ، أخذها بعض السجناء خفية لسجون تلك البلاد ، وجاءونى بها لأنظر ، وأرى . .

ألا صلوا من أجل الشيطان إبليس ، فإنه — إن يكن موجوداً — ليكونن أقرب إلى رحمة الله من أولئك الذين يزجون بالضحايا فى تلك الظلمات التى تسمى سجونا . . ! ! !

ولكم وددنا لو استطعنا إلقاء هذه البلاد من حسابنا ، لنستريح من الهموم الثقال التى يؤودنا بها التفكير فى ضلال حكامها وقادتها . ، وفى تعاسة شعوبها وشقوتها . . ولكن كيف نستطيع ذلك ، والذين هناك جماهير مثلنا ، إخوان وعشيرة ، وناس ينتظرون من كل إنسان كلمة تسقط عن كاهلهم ظلما ، أو تبعث فى نفوسهم رجاء وأملا . .

فإذا رجعنا إلى بعض البلاد العربية المتمدنة مثل بلادنا نجد نفس المشكلة ، لكنها من غير شك فى مستوى أعلى . . أى نجد روح التشريع والجزاء عندنا تعتمد على القانون كعقوبة لا علاج . .

والأسراف فى العقاب والزجر لم يعد طريقا إلى الفضيلة . بل هو فى معظم ظروفه أقرب الطرق إلى الرذيلة . . والبلد الذى يستمرىء هـذا

الأسراف فيحلّ بقانون ، ويحرّم بقانون ، لا يلبث أن يصير كالمدينة التى أهلكها السكوت . .

أتعرفون نبأها . . ؟ إنى أقدمه هدية لمصر وما حولها . .

كانت « إميكلى » إحدى مدن اليونان القديمة ، وكانت تزعجها الأشاعات عن قرب غزو الاسبرطيين لها ؛ فصدر قانون شديد يحرّم على أهلها ذكر كلمة « اسبرطة » ، أو «جيش اسبرطة» ، أو « غزو اسبرطة » وبعد حين وصل الاسبرطيون الغزاة ، فلم يجرؤ أحد على إنذار قومه . . ودخلوا المدينة واحتلوها فوصفت فى التاريخ بأنها « المدينة التى أهلكها السكوت » . . . ! ! !

إن البلاد التى تسرف فى التحريم بقانون لا تلبث أن تهلك وتتداعى تحت وطأة ما كانت تحذره وتخشاه .

أفيعجزنا أن نلتمس من واقعنا الشواهد على إسرافنا فى التشريع الحاظر ، وعلى نظرتنا إلى القانون كعقوبة لاعلاج . . ؟ ؟

كان عندنا يوما « بغاء رسمى » ؛ فصدر قانون يحرمه . .

هذا القانون عقوبة ، ولو كان علاجا ؛ لفكر قبل تحريم البغاء فى عواقب هذا التحريم حتى لا تفشو فاشية البغاء السرى ، والشذوذ الجنسى ، والكبت المدمر . . .

لا تظنوا أننى آسف على البغاء الذي ألغى . ؛ ولا تحسبوا أننى من النادين بعودته . فالبغاء رق بشع ، واستعباد وقح . . والذين يدعون لعودته ويرون فيه علاجا جنسيا يفكرون تفكيرا مراهقا مريضا

ولو أن لهم بالمجتمع أدنى خبرة ، لأدركوا أن علاجه الجنسى فى الصداقة .. لا الفاحشة .

وإذن فنحن نضرب قانون ألغاء البغاء مثلا لنضع أمام القارىء صورة للروح الذى يسيطر علينا فى تشريعاتنا . ، والذى لا يحاول أن يجعل من القانون علاجا . . حسبه أن يقول : لا تفعل . غير ناهج بالناس سبيلا قيما ينأى بهم عن مضاعفات المنع والتحريم ، وغير باذل لهم عونا بتشريع آخر أو بنهج جديد يخفف من غلواء الحظر . ويأخذ بأيديهم إلى الفضيلة فى سكينة وسلام . .

وقانون آخر صدر ونحن ندفع بأصول هذا الكتاب إلى المطبعة — قانون إلغاء القمار . .

إن القمار رذيلة تهيب برذائل كثيرة ، كالسرقة والاختلاس . بيد أننا حين حرمناه كرذيلة .

فالقمار — أولا — كأى شىء آخر يحرم بعنف ، لا ينتهى . بل يختفى . وفى السر والخفاء يزداد انتشاره وتعظم ضراوته . لأن التحريم يلازمه الأغراء دائما . حتى إننا لو حرمنا على الناس أكل الجمر الملتهب ، لتمنوا أن يذوقوه . . ! ! !

وشىء آخر . هو أن لعب القمار فى مصر ذو صبغتين . .

فهناك أندية خاصة به وحده . يلعب فيها الهواة والرواد بمبالغ فادحة . ، هذه مستقر عصابات ولصوص . . .

وهناك أندية اجتماعية وثقافية تتخذ من « اللعب » بمبالغ طفيفة

تسلية وترويحا دون أن يكون الأثراء عن طريق اللعب غرضا ـ أدنى غرض ـ للنادى أو لأعضائه . .

وقد تسأل : لماذا إذن يلعبون بهذه المبالغ الطفيفة . . ؟

إن الإجابة على هذا السؤال هى أيضا موضوع نقدنا للتقنين الذى يجيد أن يكون عقابا . أكثر مما يجيد أن يكون علاجا . .

فأعضاء هذه الأندية يلعبون على مبالغ طفيفة لأن هـــذه المبالغ تذهب إلى النادى . .

وأنا أعرف بعض الأندية التى كان هذا اللعب الهامشى يدرّ لها كل شهر مبلغا يتراوح بين مائة وخمسين جنيها ومائتى جنيه .

وسوف تغلق بعض تلك الأندية أبوابها تحت وطأة هذا العجز المالى . .

فلماذا لم يفرق القانون بين أندية القمار الخاصة ، والأندية الاجتماعية التى تتخذ منه تسلية عابرة لأعضائها وسبيلا لدعم وجودها . . ؟

وإذا كان هذا النوع الأخير من « اللعب » ضارا ويجب حظره . ؟ فهل فكر التشريع أو المشرع فى طريقة يعوض بها الأندية الاجتماعية والثقافية ذلك العجز الذى سيهدد بقاءها . .

كلا . . فالقانون لم يشر لذلك قط ، وأغلب الظن ، بل أغلب اليقين أن الذين شرعوه ووضعوه لايعلمون شيئا عن هذه التفرقة التى ذكرناها . .

إن الأندية الاجتماعية المهذبة تؤدى للفضيلة دوراً ساميا . .

إنها تأخذ أعضاءها من المقاهى ، ومن الحانات المبتذلة ، وتشغل بأشياء لا بأس بها ، وقت الفراغ الذى ثبت أنه الوحش الضارى الذى يلتهم أخلاق الناس .

وأنا شخصيا ، أوافق على إلغاء القمار فى شتى صوره ومظاهره . حتى فى تلك الأندية التي أدافع عن مستقبلها . ولكنى أستنكر الطريقة التى نستعمل بها القانون لمحاربة الرذيلة .

فمثلا ، لكى يكون هذا القانون علاجا خلقيا ، كان ينبغى أن يدرس أولا كافة الظروف والملابسات . ثم ينتظم نصا بتعويض الأندية الاجتماعية من صندوق وزارة الشئون ، بديلا من المبالغ التي كانت تحصل عليها من « لعب التسلية » حتى لا تضطر إلى إغلاق أبوابها حيث تنفتح بهذا الأغلاق أبواب شرور كثيرة ورذائل شتى .

وخذوا مثلا آخر . ذلك القانون الذى صدر منذ عام وبضعة شهور .. والذى يجعل الصلاة إجبارية فى المدارس . . ! !

ترى هل يعلم الذين أصدروا هذا القانون ، أن مظاهر الصلاة فى المدرسة أصبحت منذ صدوره أكثر خفوتا وتلاشيا . . ؟ ؟

لا بد من رفع وطأة القانون عن الأخلاق ، إذا كنا جادّين فى نشدان أخلاق سوية لأمتنا . فالقانون قد يفلح — بعض الوقت — فى أن يهب بعض الناس أخلاق العبيد ، أخلاقا تحفز إليها الطاعة والخوف . . لا الاقتناع والواجب . . ، ثم هو فيما وراء ذلك فاشل فاشل . . . ! !

وتعالوا نجب معاً على هذا السؤال :

ما علاقة القانون مثلا بالكذب ، والجبن ، والنفاق ، والغرور ، بل وبالزنا نفسه عندما تكون المرأة راضية . . ؟ !

هل نستطيع أن نكافح رذائل النفاق، والخنوع، والكذب بقانون .. ؟؟

وإذا كان القانون هو النص الذى يتضمن الجزاء والعقاب .. ، فأن السجن ، هو الأداة التي ينفذ بها المجتمع أو الدولة مضمون ذلك التشريع . أجل ـ القانون نص . . ، والسجن أداة . .

والاثنان يشبهان حجرى الرحى . يطحنان فى بلاهة وقسوة كثيرا من احتمالات الهداية والفضيلة والخير . . ! !

إن السجن فى بلادنا يقوم بدور فعال فى تعويق المسلك الخلقى المجتمع . وسأحدثكم عن هذا بعد أن أسألكم : هل تعرفون شيئا عن الحياة داخل سجوننا . . ؟ ؟

هل قرأتم ـ تلك الحكمة التى تتلألأ على جبين كل سجن كبير « السجن تأديب ، وتهذيب ، وإصلاح » . . ؟ !

فى عام « ١٩٣٧ » أخذت إلى سجن مصر متهما بتحريض الطلاب على الحكومة القائمة يومذاك . . وإلى أن يفصل القضاء فى المعارضة المرفوعة منى ومن زملائى الذين سجنت معهم ، كان لا بد أن نقضى بضعة أيام فى ذلك السجن المهيب . .

وفى « زنزانة » حجرة صغيرة تصلح عشا لعصفور ، وضعت وهناك .
كان فى استقبالى داخل هذه « الزنزانة » أربعة زملاء يفرض قانون السجن عليك صداقتهم وزمالتهم فرضا . .

أولهم — « برش » تفرش به الأرض . .

وثانيهم — « برش » تتقى به البرد . .

وثالثهم — « إناء » تتبول فيه . .

ورابعهم — « إناء » تشرب منه . . ! !

وقضيت الليلة الأولى .. وفي الصباح فتح الحارس الباب وناداني قائلا :

— يا اللا ياجدع شيل . .

فأجبته : أشيل إيه ؟؟

فقال . « البلاوى بتاعتك دى » . . وأشار إلى وعاء البول . .

وكنت حتى هذه الساعة أظن أن هذا العمل ليس من اختصاصى .. فسألته :

— أأنا الذى سأحمله وأريقه . . ؟؟

فأجاب وهو يقهقه :

— لا . . دا البيه مأمور السجن هو اللى يشيله ويغسله . . ! !

وأطلق من حلقومه صرخة كرئير الأعصار . طالبا منى أن أحمل « البلاوى بتاعتى » وقد كان . .

وفى اليوم الثانى فتحت الأبواب ، وساقنا الحرس فى طابور إلى الطبيب . . وهناك رأيت قطيعا مكدسا كالأغنام . بل إن هذا التشبيه ليقتضينا أن نعتذر للأغنام . . ! !

وفى اليوم الرابع ، صاح فينا مناد من الحرس . أن هيا إلى العروسة ...

وسألت الرجل :

— عروسة أيه . . ؟

فأجاب : دلوقت تعرفها . .

وهناك فى فناء من أفنية السجن ، وقفنا تجاه « العروسة » . . هيكل من الخشب على صورة إنسان مبسوط الذراعين ، منفرج الساقين .. !

وعرفنا من السجناء القدامى نبأ هذه العروسة . . إنه الجهاز الذى يثبت عليه ويشد إليه كل سجين توقع عليه عقوبة الجلد . .

وازددنا معرفة . عندما استقبلنا « جاويش » يخبرنا أننا سنشهد الآن زميلا لنا سيجلد . .

لماذا . . ؟

لأنه خالف تعليمات السجن . .

وأخبرنا أننا نشهد عقوبته وجلده . ليكون لنا فيه عبرة وعظة . . !!!

فى أربعة أيام فقط ، رأيت هذه المشاهد الموبقة البشعة ، فهل هذا هو كل ما هناك . . ؟

فى عام — ١٩٥٠ — وقف متهم أمام قاضيه الذى وجه إليه الحديث قائلا :

إن « سوابقك » فى الأجرام قد بلغت التاسعة والعشرين . والجريمة التى تحاكم الآن عنها ترتيبها الثلاثون . .

ولم يصبر المتهم حتى يتم القاضى حديثه فصاح وفى كلامه رنين الصدق :

— « والله يا بيه ، أول مرة كانت بتاعتى صحيح . ، والباقى كله بتاع الحكومة » . . . !

ولما سأله القاضى إيضاحاً قال : إنه ارتكب أولى جرائمه بمجهوده الشخصى وخبرته الخاصة ، أما بقية جرائمه فقد تعلمها فى السجن من زملائه وكان كلما عاد إلى السجن تعلم شيئا جديدا . .

ومن الطريف أن القاضى سأله :

— أليس يعلمكم السجن شيئا غير الجريمة . ؟ أليس هناك محاضرات دينية ، وواعظ يبث فيكم روح الخير والهدى . .؟ ؟

فأجابه المتهم . .

— واعظ . . ؟ دا احنا مرّة خليناه بيوعظ وسرقنا سبحته الـكهرمان . ! ! !

إن اعتراف هذا المسكين التعس تصوير دقيق وصادق لسجوننا .

إن السجن فى بلادنا أبعد ما يكون عن التأديب والتهذيب ، والاصلاح . . ! !

إنه « معمل تفريخ » للجريمة والمجرمين . وهو بنظمه القائمة لايمكن أن يكون إلا هكذا . .

ولـكى تتصوروا عواقب حياته الحميدة (؟ !) فى أخلاق الأمة ، فليس عليكم إلا أن تبصروا تلك الصفوف الطويلة التى تدخله كل عام ، وتلك التى تغادره كل عام . ثم تتصوروا مجموع هؤلاء وهؤلاء فى عشرة أعوام مثلا . .

ستجدونه بئرا عميقاً تقذف إلى المجتمع دوماً وباستمرار بشرّ الجرائم وأشدها ضراوة وفتكا . .

إن السجن كالقانون يجب أن يتحوّل من عقاب إلى علاج . . ومن أداة تعذيب ، إلى وسيلة تهذيب . .

وذلك يقتضى انقلابا شاملا فى نظمه وتقاليده .

لماذا يحرم السجين المتزوج من لقاء زوجته كل عام بضع مرات . . ؟ ؟

وماذا ننتظر من السجناء أن يفعلوا تجاه هذا الحرمان ؟

إن سجلات الحوادث فى السجون تجيبنا فى خجل واستحياء . .

فالرجال هنـاك يعانون حرمانا جنسياً ساحقاً ؛ فتنجرف طبيعتهم اليائسة شطر « المثلية » ، يلتمسون فيها العزاء . .

وإن لنا لعبرة فى المأساة التى كان أبطالها « توفيق محمد حسن ، وعبد الغفار سعداوى ، وطه محمد مهدى » السجناء بسجن « ليمان طره » فقد تنازع « توفيق ومهدى » الرجل الثالث وتغلب « توفيق » فاستأثر به لنفسه . . . وذات يوم والثلاثة يعملون معاً فى مصنع صابون السجن فاجأ « مهدى » غريمه « توفيقا » بضربة قاتلة تركته جثة هامدة ، واعترف بسبب جنايته . . والعجيب أن « مهدى » القاتل كان مسيحيا واسمه « اميل ميلاد حنا » وقد أسلم فى الأيام الأولى لدخوله السجن ، واستعان بالاستقامة وبالصلاة . ولكن حياة السجن ونظمه لم تمهله إلا قليلا . . حيث وجد نفسه مضطرا لاغتنام الجرائم والرذائل التى انتهت بالشذوذ وبالقتل . .

قد يسأل سائل ، عما إذا كنا ندعو لتدليل السجناء وتحويل السجن إلى منتدى يضم وسائل الترفية ومباهج النعيم . . ؟ !

ونجيب من فورنا : نعم ، نريد أن يكون السجن منتدى يضم كل وسائل الترفيه ، بيد أننا لا نرى فى هذا تدليلا ، بل علاجا وإصلاحا .

وإنا لنسأل بدورنا : ما الحكمة المرجوّة من سجن المذنب . إصلاحه ، أم تعذيبه ؟ ؟

إذا كان إصلاحه هو الغاية ؛ فما أبعد القسوة عن أن تكون علاجا أخلاقيا ، وما أعجز سجوننا بنظامها القائم عن أن تهدى ضالا ، أو ترشد حيران . .

وإذا كان التعذيب والعقاب هما الغاية من سجنه ، فنسأل سؤالا آخر :

— هل نعاقب المذنب لأنه أساء فى الماضى ، أم نعاقبه كى لا يسىء فى المستقبل . . ؟ ؟

إذا كان الأول ؛ فما أشد حماقتنا وأدعاها للرثاء لأننا نعاقب على عدم ، ونفعل كالمعتوه الذى ينشر النشارة . . .

وإذا كان الثانى ؛ فإن خطأنا إذن لوبيل . فالجسد الذى نعذبه ، والروح التى نشوهها ، مجنى عليهما . إن الفاعل الأصلى هو الأرادة بما يكتنفها من ظروف صاحبها ، ودواعى بيئتها . والأرادة الإنسانية لا ترتدع بالقسوة . بل كثيراً ماتشدّ القسوة فيها زناد المقاومة والانتقام . .

وهبوا السجن بما فيه من تعذيب وتنكيل استطاع أن يهزم إرادة المذنب ويبيدها . فماذا سنكون قد ربحنا . . ؟

لا شىء . . بل سنخسر إنسانا . . .

على أنه هيهات أن نمحو «الارادة الإنسانية» من إنسان أونهزمها . إن المجرم المصطلى بعذاب السجن لاينهزم فيه إلا جسده . . أما إرادته ؛ فهناك فى أقصى كيانه تصطك أنيابها المدّخرة ليوم لاريب فيه .

على أن نظرتنا للمجرم جديرة بالتعديل والتعلية ، إذ هى تنطوى على تجاهل ظالم لظروف ارتكابه وانحرافه . كما تنطوى على ضحالة الإدراك لحقيقة هذا الذى نسميه مجرما .

إن شر أنواع المجرمين عندنا هم أولئك الذين تعوّدوا الأجرام . .
ومع هذا فوراء ذلك فى نفسية المجرم فضيلة باهرة يكشف عنها العلامة الفرنسى « جويو » ألا وهى الشجاعة وحب الخطر . .

أجل ، إن المجرم الذى تعوّد الأجرام رجل قامت بينه وبين الأخطار مودّة وألفة ؛ فلم يعد يخشاها أو يفرّ منها — أفكم تكون مغانمنا جزيلة إذا استطعنا استثمار هذا الطراز من الناس ، وحولنا شغفهم بالخطر من ذلك الخطر العدوانى إلى الأخطار الجليلة الرائعة الهادفة . . ؟ !

لقد كانت الأمة الانجليزية ذات يوم أمة من المجرمين . . أى أمة تعودت الأخطار ، وعشقت المغامرة . . ولعل هذا يعطينا تفسيراً لفضيلة الثبات التى يضربها الشعب البريطانى عندما تدمدم عليه الحروب والأزمات والكوارث .

فليكن هذا الفهم رائدنا ونحن نعالج مشاكل الجريمة والمجرمين فى بلادنا . .

إننا لا نصنع شيئا ذا قيمة عندما نكدس السجناء داخل جحور خربة معتمة . بيد أننا نصنع لحاضرنا ومستقبلنا كل خير عندما نبذل من جانبنا جهداً نحول به جريمة المجرم إلى بطولة ، فنستثمرهم فى المشروعات التى تحتاج إلى جهد ومغامرة . ونعاملهم كأناسى وبشر . .

إن السجن المصرى كما ذكرنا قبلا ، بئر بعيدة الغوْر تعج بما تقذف به إلى المجتمع من ميكروب وجراثيم . فلنعد النظر فيها جميعا على ضوء ما ذكرنا وما نذكره فى هذه السطور ، وعلى ضوء حاجتنا الملحة إلى تطويرها وتهذيبها .

لمـــاذا نباعد به الرجل وزوجه خمس سنوات ، أو عشرا ، أو خمسا وعشرين . . ؟

وماذا تفعل الزوجة خلال هذا الدهر الطويل . ؟

ذات ليلة مر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بامرأة قد أضناها السهر . وكانت تنشد حسراتها فى هذه الأبيات من الشعر :

تطاول هذا الليل وازورّ جانبه ... وليس إلى جنبي حليل أداعبه

فوالله ، لولا الله لارب غيره ... لزلزل من هذا السرير جوانبه

مخافة ربى ، والحياء يكفنى ... وأكرم زوجى أن تنال ركائبه

واقشعر كل ما فى ابن الخطاب من صلابة وجبروت . وسأل عن نبأ المرأة ؛ فعلم أن لها زوجا طال غيابه فى جيش المسلمين الذي توجه لبعض الغزوات والفتوح . .

وذهب إلى ابنته « حفصة » يسألها :

— يا حفصة ، كم تصبر الزوجة على زوجها ؟ ؟

وإذ تخجل «حفصة» وتوارى وجهها بردائها ، يصرخ فيها عمر قائلا :

— أجيبى ، وأنقذى أباك من عذاب أليم . . !.!

وتجيبه « حفصة » :

— تصبر شهرين يا أمير المؤمنين ، وتجالد نفسها بعد الثالث . وتفقد صبرها بعد الشهر الرابع .

ويخرج عمر فوراً ، ليضع قانونا يحرم على قواد الجيوش أن يستبقوا « متزوجا » بعد أربعة أشهر . بل يرجع إلى أهله ويقضى بينهم وقتاً كافيا ثم يعود . . .

ما أحوج سجناءنا إلى قانون كقانون عمر الذى اشترعه منذ ثلاثة عشر قرنا . . !

لابد من وضع نظام يتيح لكل سجين زوج ، أن يقضي مع أهله أسبوعا أو أسبوعين فى فترات مناسبة . . ولن تكون حوادث الهرب ، كما ستصورها لنا مخاوفنا أبدا . .

ولابد من وضع نظام يتيح للسجين العزب الذى يريد الزواج أن يتزوج . .

ولابد من تحويل السجون إلى أندية تنتظم كل وسائل التسلية والترقية مع ما يتيسر من وسائل الإنتاج . .

ولابد من إدخال « السينما والراديو » على نطاق واسع فى تلك السجون التى ستتحول إلى أندية ، لينساب رىّ الثقافة والفن فى النفوس الجافة اليابسة فتزدهر فضائلها الكامنة وتترعرع .

ولابد من إلغاء مظاهر الوحشية كافة ، من جلد ، وتعذيب ، وأبراش . و « حمل البلاوى » فى الصباح وفى المساء . . . ؟ !

ولابد من تغيير ذلك اللباس الردىء الكالح الذى نلبسه سجناءنا . .

أقسم ، لو أن « ملاكا » لبس هذا اللباس شهراً واحداً لنفث فى روعه شعوراً ماحقا بالهوان والضعة والتعاسة ، ولا اكفهرت كل فضائل نفسه المزدهرة وخبا ضياؤها . . !

وكذلك نرى أنه لابد من اختصار المدة المضروبة للسجن المؤبد . . وجعل حدها الأقصى خمسة عشر عاما . وإلغاء « المراقبة » التى نطارد بها النزيل بعد مغادرته السجن .

إننا نعاقب المجرم كما قلنا لنزجره عن الأساءة فى المستقبل . وخير

ما نصنعه لبلوغ هذا الهدف ، هو التقويم ، لا التحطيم . . وسجوننا بحالتها الراهنة لا تستطيع إلا أن تحطم إنسانية السجين وتشوه روحه . . أما تقويمه ، فأنى لها ذلك وليس فيها من وسائل التقويم والتربية شيء . . ؟

بقيت واحدة . . ياليتنا نوفق للاقتناع بها . .

إلغوا كلمة « السجن » . . وضعوا بديلها « المرفأ » . .

سموا السجون « المرافيء الاجتماعية » فالحق أنها يجب أن تكون كذلك . . يجب أن يكون السجن « مرفأ » يستجم فيه المذنب من أمراض نفسه وسلوكه حتى يعافى . .

صحيح أنه ليس فى دول العالم من استعمل هذه التسمية . . ؟

ولكن أى بأس فى أن نقدم نحن للعالم هذه الهدية . . ؟ ؟

إن المستقبل القريب للأنسانية لن يعترف بكلمة سجن . بل لن يعترف بالسجون نفسها . .

فليذكر التاريخ أن أمتنا أول أمة حولت السجون إلى « مرافيء » ونجت الإنسان من وطأة التسمية البغيضة « السجن » . .

ولكن هذا الافتراح يتحول إلى سخرية إذا أعطينا سجوننا هذا الاسم وهى على وضعها القائم . . فلنحولها إلى مرافيء بالقول وبالفعل . .

احذفوا من منهج القضاء كلمة « شاقة » فإنها كلمة غير إنسانية . . بل واحذفوا كلمة « أشغال » واصطنعوا بديل الكلمتين كلمة حلوة وديعة هى . . « العمل » .

ألا ما أروع تلك الساعة وأبهجها التى تصدر فيها أحكامنا القضائية هكذا :

« يا عبد الفتاح . . لقد اقتنعت المحكمة بأنك مسيء . . ورأت أن تحكم فى قضيتك باستجمامك خمس سنوات فى المرفأ الاجتماعى مع العمل . .

إنكم تلاحظون أننا وضعنا كلمة « مسيء » مكان « مجرم » أو « مذنب » وكلمة « الاستجمام » مكان كلمة « السجن » وعبارة « المرفأ الاجتماعى » مكان كلمة « السجن » وكلمة « العمل » مكان عبارة « الأشغال الشاقة » وتلاحظون أيضا ، أن الكلمات التى ندعو لحذفها جارحة ومتوحشة ، تنهش كرامة الإنسان نهشا وبيلا . .

والمذنب مهما يكن ، إنسان . وليس الخير فى تحطيمه بل فى تقويمه .

وكما قال السيد المسيح « إن الله لايسر بموت الشرير . بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا » . .

وبهذا القدر من الحديث عن « الجزاء الاجتماعي » نكون قد أشرنا إلى أثر القانون والسجن فى دعم أخلاق العبيد الناجمة عن سيادة القوة والأرغام . فلنتجه الآن إلى مكمن آخر من مكامن هذه الآفة . . مكمن لعله لم يخطر ببالنا أن يكون صاحب دور مخرب فى محاولة الاكتمال الخلقى الصاعد للأمة . .

أتعرفونه . . ؟ ؟ ها أنذا أقدمه لكم :

الرأى العام . . . ! !

يلعب الرأي العام دوره كقوة ملزمة يخشى الناس عصيانها ويهابون نفوذها . حتى أشدهم بأسا ، وأمضاهم قوة ، من الزعماء والقادة ،

كثيرا ما يذعنون للرأى العام إذعانا ليس من دوافعه الاقتناع بما لهذا الرأى من وجهة نظر ، وكم من قائد وزعيم أودت به السايرة الجارفة للرأى العام ، وصيرته من الهالكين ...

وعند ما يكون الرأى العام ضحلا ، غير ممتلىء بالمعرفة . . فجا ، لم تنضجه الخبرة والتجربة . ؟ فأنه يكون من الممكن أن يتحول إلى كارثة غير ممتعة . . .

بيد أن ذلك لا يبرر تجاهله أو قهره . إذ لا غنى لجماعة إنسانية عنه . وإنما يدفع إلى إفساح طريق النمو أمامه ، وتهيئة جميع الفرص التى تشد أزره ، وتشحذ إمكانياته .

والحظ الواجب توفره للمجتمع كى يتكون فيه رأى عام مستنير وحر . . هذا الحظ من الثقافة ، والتجربة ، والحرية ، والذى لم يتوفر لمجتمعنا العربي على الوجه المطلوب . يجعلنا نقرر مطمئنين أن الرأى العام فى هذه الرقعة من الأرض ــ مصر وما حولها ــ لا يزال جنيناً ، يدعونا للحذر منه . . والحذر عليه . . ويهيب بنا كى نعمل صادقين لأعطائه فرصة .

أجل ، إن فى بلادنا طلائع رأى عام تشجع على الثقة بمستقبله . وأن يرتكب أحدنا ــ حاكما كان أو محكوما ــ جريمة أشنع من الحجر على هذا المستقبل . والضغط على الطلائع البازغة كشعاعات الفجر . وتضليل زحفها الميمون وخطواتها الباسلة . .

إن الرأى العام ضرورى للأمة ، ضرورة للصباح فى أرض يطمسها الظلام وتغمر أرضها الشظايا والحفر . .

وإذا كان موضوع البحث سيقصر حديثنا على حتميته الأخلاقية ،

فلن يكون معناه أننا نتجاهل حتمياته الأخرى السياسية ، والاجتماعية والثقافية . .

والآن . ما صلة الرأى العام بالمسلك الخلقى للمجتمع . ؟

إن الإنسان كما نعلم — كائن اجتماعى — يتأثر عن طريق المشاركة الوجدانية وغيرها من النزعات والغرائز بسلوك الجماعة ورأيها .

ويستطيع كل امرىء منا أن يذكر الرغبات والشهوات التى يتنازل عنها ، لا زهداً فيها . ولا بدافع من خوف دينى . . بل بحافز الخوف الاجتماعى . الخوف من نقد المجتمع ، وقسوة حكمه وتقديره . .

كما نستطيع أن نبصر تلك الفضائل التى نفعلها كارهين . لكى نظفر برضاء الجماعة وحسن تقديرها لنا . .

ومعنى هذا أن الرأى العام يقف على رأس البواعث الخلقية . ونجد أنفسنا مضطرين فى كثير من الأحايين إلى استحسان ما يستحسنه واستهجان ما يستهجنه . فإذا كان على إدراك سليم للفضيلة الصحيحة . والرذيلة الحقة ، فإنه يكون ميزانا دقيقا وصالحا للسلوك . أما إذا أدرك مسائل الأخلاق إدراكا غبياً ، وقاس الفضيلة والرذيلة بمفاهيم جاهلة أملتها عليه رواسبه وتقاليده ؛ فإن الأمة تتحول من حيث تدرى أو لا تدرى إلى وكر عظيم من أوكار الرذيلة والضلال .

وإذا كان من المؤسف أن نعترف بأن رأينا العام من هذا الطراز ؛ فإن من الخير أن تحفزنا هذه الظاهرة إلى تلافى ما ينجم عنها من مخاطر وأضرار . .

قلنا إن رأينا العام لا يزال جنينا ، علينا أن نحذره ونحذر عليه . .

ونحن نعنى بالحذر منه ألا نستسلم لميوله ونزواته وأحكامه ، ونعنى بالحذر عليه ، ألا نضائل من فرص تطويره وتنميته . فالسبيل الحق لوقاية الأمة شر الانتكاسات الوبيلة يتمثل أكثر ما يتمثل فى إحياء كل الطاقات الذهنية ، والشعورية ، والأرادية فى رأى عام شامل يستعصى على الاستهواء الباطل ، والمكر الخبيث . وما لم نفعل ؛ فسيظل رأينا العام كما هو . دمية يعبث بها الحواة الذين لا تخلو منهم أمة . والذين يموتون فور ظهورهم إذا جاء هـذا الظهور وسط جماعة يقظة ، ورأى عام فطن وحصيف . .

وقد يتوهم الذين يعيشون فى العاصمة وجود رأى عام شامل . بيد أن الريف يموج موجاً بالذين لايعرفون إلا أنهم لا يعرفون . . الذين إذا هبط أحدهم عاصمة بلاده فكر فى شراء « ترام » أو « ساعة » من ساعات الميادين العامة . . !

وحتى الذين يعيشون فى العواصم والمدن يندر فيهم من نجد له مكانا فى الطليعة الواعية الناشئة التى قلنا إنها تمثل بداية مشجعة لرأى عام فسيح .

هذا الرأى العام فى بلادنا مريض بالجهل وبما يستتبعه الجهل من آفات التزمت ، والتعصب ، والخوف . . والنفاق الاجتماعى الذى يصد عن طلب الحق ونشدان الكمال . ومن هنا تجىء جنايته على الفضيلة والأخلاق . .

كيف يتصور « رأينا العام » الفضيلة . . ؟؟

إذا كنت تصلى ، وتصوم ، وتجتنب الخمر ، وتنأى عن النشاط الجنسى المحظور . فأنت قديس عظيم . حتى حين تكون شخصيتك منحلة

انحلالا كاملا . فتؤثر الجبن على الشجاعة ، والمداهنة على الصراحة ، والهوان على الأنفة ، والشح على الجود ، والجمود على التطور ، وتأكل الحرام ، وتتحايل على الحق ، بل وتمثل دور « يهوذا » من أجل مطمع فان وغرض زائل . . كل هذه الموبقات لن تخلع عنك صفة الصلاح والاستقامة فى نظر الرأى العام الذى لايكاد يعرف شيئا عن هذه الشوارد التى تسمى « الأنفة ، والصراحة ، والحقيقة ، والتطور » . . ؟ !

لسوف نتحدث إن شاء الله فى الفصل القادم عن مأتي هذا القصور والعى والبلاهة التى يدرك بها « رأينا العام » مسئلة السلوك الإنساني.. وحسبنا هنا أن نكشف عن خصاله المعرقلة لنموه ، وأيضا لنمو اكتمالنا الخلق الذى نريده .

إن الرأى العام عندنا يحصر الفضيلة والرذيلة فى « المسئلة الجنسية » أكثر مما عداها . ونحن لانريد أن نغض من قيمة « الاستقامة الجنسية » أو أن نضائل من شأنها وحتميتها . ولقد أكدنا هذه الحتمية فى كتابنا السالف « هذا . . أو الطوفان » .

وحذرنا من « العربدة الجنسية » كهواية ، أو كعلاج . . وقلنا إن الانطلاق الجنسى الجامح يفر بصاحبه من كبت خطير إلى كبت أخطر ، هو كبت « الحاسة الخلقية » . ثم دعونا إلى الاعتدال ورسمنا له منهاجا . .

إذن ، فنحن حريصون على وضع الاستقامة الجنسية داخل منهجنا الخلق . . بيد أن ذلك لايعنى أن نترك الأحساس بها يطغى على وجداننا ، ويتحول إلى « هستيريا مقدسة » . . إن ذلك الأغراب فضلا عن كونه

غير منطقى وغير سوى . فهو يسدل ستاراً كثيفا على الجوانب الأخرى للسلوك وللفضيلة وللرذيلة . ويحرمنا بالتالى من معظم فضائل العصر ومحاولاته الأخلاقية الرفيعة . . .

وأضرب لكم مثلا : الاختلاط . .

إن الاختلاط الجنسى فى العمل ، وفى المعهد ، وفى النادى . قد صار رغم بعض الأخطاء التى يفرزها ، فضيلة من فضائل عصرنا ، ووسيلة مجدية للاستقامة الجنسية اليانعة . .

ومع هذا ، ورغم الطرقات العنيفة والمتساوقة التى نزلت ولا تزال تنزل على وعينا الحليم (١) فلا يزال « رأينا العام » يحذره ويخافه ويستنكره . . ! !

بل إن الجامعات العلمية عندنا لتقدم لنا شر ألوان هذا الحذر وأغناه بالفكاهة والفجيعة . فالطالبات فى بعض المدرجات يتخذن صفوفا خاصة بهن . وإذا حدث أن اقترب منها بعض الطلاب غضبن . ؟ فإذا تدخل الأستاذ ليقنع الطالبات بأنه لا بأس بأن يتسع الصف لزملاء . لا سيما وهم فى قاعة علمية ، لا فى صالة لهو . . تجيب بعض الطالبات :

— والله ، دى أوامر البيت . . . ؟ ! حدث هذا فعلا .

مع أن كثيرا من بيوتنا الفاضلة (؟) التى تريد أن تدير الجامعة من المطبخ . لا تعلم شيئا مما يجب أن تعلمه عن البيت نفسه . . .

وكم من فتاة تتظاهر بالعزوف عن الاختلاط الشريف المهذب . ، وكم من فتى يتظاهر أيضا ، ثم لا يكون هذا التظاهر سوى تعبير مبين

عما يعجّ به « اللاشعور » من رغبات لاهثة مسعورة ، وما ينطوى عليه السلوك من نقائص مستورة . .

إن جهل « رأينا العام » وصخريته يدفعانه إلى التزمت ، والتعصب وهنا يتجلى دوره كعامل من أهم العوامل الممكنة لسياسة « القوة . . لا الواجب » .

فالتزمت والتعصب لا يدعان ضحيتهما يعترف بوجهة النظر الأخرى . ولا بجدوى الاقتناع فى ثبات الفضائل ورسوخها . ويحفزانه إلى التوسل بالأكراه والقسوة لبلوغ الغرض المظلم الذى يحتضنانه . . وحين يرفع الرأى العام سوط نقمته ليهوى به على الخارجين عن طاعة تزمته وجهالاته ؛ فأن الطريق ينفتح لكل رذائل النفاق ، والضعف ، والكذب ، والجمود . . ويحاول الناس أن ينتحلوا لأنفسهم شخصيات مستعارة يستردون بها فى السر ، ما يسلبه منهم الأذعان للرأى العام فى الجهر . . فيظهرون فى أردية الشرفاء عندما تقع عليهم الأعين . حتى إذا خلوا إلى أنفسهم أتعبوا رذائل الأرض ، وأنهكوا قواها . . .

وليس ذلك فحسب . بل إن تزمت رأينا العام ليؤخر مجىء الحقيقة ، ويحول دون ظهورها . ولقد علمنا قبلا أنه بدون حقيقة لا توجد فضيلة . . وكذلك يطارد الشجاعة الأدبية اللازمة للبحث عن الحقيقة . .

إن أرضنا قلما تنجب رائداً باسلا وتجود بمفكر حر يضع كل ترغيب الحياة وترهيبها تحت قدم الحقيقة ، ثم لا يفتنه عن الولاء لها شىء من أشياء الوجود . .

وهذا الطراز من الرجال ، هو المعراج الذى يأخذنا صاعدين إلى

الكمال الميسور . ، وما دام حظنا منه قليلا ؛ فلا أقل من أن نتيح الفرصة لرواد الدرجة الثانية ، والثالثة . . لينموا ويعوضوا عقمنا المؤذى وهل نجود بفرص الأنماء هذه ، حين نلوح بالوعيد والتهديد للذين إذا جاءوا بما لاتهوى أنفسنا وتقاليدنا ، قتلناهم ، أو ألجأناهم ، للهرب والانزواء . . ؟ ؟

أبدا . . وإن الكارثة لتجل عن الوصف إذا كان الرأى العام هو الذى سيتولى مهمة الأجهاز عليهم ، أو ترويعهم . . هنالك ، تموت الشجاعة ، وتموت فى أثرها الحقيقة ، وتندرج معهما فى كفن الواحد ، الفضيلة . . .

وأضرب لكم مثلا — ذلك العالم الغربى الذى اشتغل بالطبيعيات حتى حتى كفر بالله . ورد إلى الطبيعة وحدها كل ما فى الوجود من موجود . .

وبعد سنوات ألف كتابا ينادى فيه بصوت جهير :

— يا أيها الناس . ، يا أيها الشباب . ، ارقصوا . . . وهو طبعا ، لا يعنى بالرقص الذى مجده ودعا إليه ، رقص البطون المألوف عندنا . . بل يعنى تلك الحركات التوقيعية المعبرة التى يؤديها الرجل والمرأة معاً فى تسام وتعاطف .

ترى لو كان ذلك العالم الشهير فى مجتمعنا ، وفعل هذا ، أكان رأينا العام سيتلقى صيحته فى فهم ، أو حتى فى إعراض هادىء . . ؟ ؟

طبعا لا . . لماذا . . ؟ لأن رأينا العام لا يعرف عن المرأة إلا أنها أداة للهو الجسد . . ولا يعرف فى المرأة شيئا يدعو لعشقها واحترامها سوى مفاتنها المثيرة . ليس فيها من الفكر ، ولا من الروح ما يجذب

ويدعو . . وكل خطوة نحوها فهى خطوة إلى الفاحشة . وإذا كان يجفل من الاختلاط فى دور العلم فكيف به يسمح بالرقص مهما يكن نظيفا .. ؟؟

إن هذا الرجل ـ إذن ـ مارق ماجن أفاك . . .

ومع هذا ؛ فاسمعوا بقية النبأ . ، إن ذلك العالم بعد أن هرب من الله عاد إليه ، وجعل عنوان الكتاب الذى تحدث خلاله عن الرقص .

« الرجوع إلى الله » . . وتحدث فيه عن البواعث التى ردته إلى الإيمان ، والتى رأبت صدع نفسه ، وجمعت شتات سكينتها . ومنها الرقص . .

قد يكون الرجل مخطئا . بل لنفترض هنا أنه كذلك فعلا . . مخطىء ضل سواء السبيل ولكن ، هل هذا هو الخطأ الوحيد الذى وقع ... ؟؟

إن المجتمع ـ أى مجتمع ـ يشهد كل يوم حشداً هائلا من الأخطاء الفنية ، والسياسية ، والاقتصادية . فيتسامح معها ويكتفى بإصلاحها . . فلماذا لا يتسامح أيضا مع الخطأ الخلقى . ، على فرض أنه كذلك . . ؟؟

هنا تظهر الآفة واضحة . . وهنا يستبين الفارق الكبير بين الرأى العام المستنير والرأى العام المظلم . .

فالأول وقد برىء من الجهل والتزمت ، يزن الخطأ الأخلاقى بنفس الميزان الذى يزن به الخطأ الفنى ، أو الخطأ السياسى . .

أما الثانى ، فيأرز به جهله وتزمته إلى حماقة مضحكة . تتمثل فى تسامح سخى مع الخطأ الفنى ، أو العلمى . . وحرب مجنونة على الخطأ الخلقى .

وهذا ينقلنا إلى لون آخر من ألوان الخطر الماحق الذى يتهدد به الرأى العام عندنا قضية السلوك والأخلاق . .

إن الجهالة المزمنة تضفى بل تنفث فى رأينا العام تزمنا ضاريا . يميل به عن السلوك السوى الذى يجب أن يسلكه تجاه المخطئين خطأ أخلاقيا . . فكم من أناس كان من الممكن أن يرجعوا عن الشر وهم فى بداية الطريق ، لولا الحقد المتبادل بينهم وبين الرأى العام الذى ينظر إليهم فى بلاهة وقسوة ، ويعالج عدوانهم بعدوان أشد وأنكى . .

ألا إن عجز الرأى العام عن التسامح مع الخطأ الخلقى ليغرى بالمزيد منه ، ويفضى إلى إدمانه . ؟ فالنفس البشرية بطبيعتها تسمو فوق نزواتها كلما أحاطت بها اهتمامات الآخرين ومشاعرهم الحفية الودودة . .

وكذلك تزداد عثراتها الخلقية كلما أحست أنها موضع استهجان وعدم مبالاة . هنالك تمضى فى رذيلتها إلى آخر الشوط ، وتشرب من كأسها حتى الثمالة يسوقها ذلك الشعار : « أنا الغريق ؟ فما خوفى من البلل » . .

وهكذا نجد الرأى العام الجاهل المتزمت كالطاغية تماما . كلاهما مزرعة للرذيلة . يغرى بها ، ويدفع ضحاياها إليها دفعاً وبيلا .

وكأى من فتيات انتحرن لأن خطأ أخلاقيا ارتكبنه كان مستورا ثم تكشف . . وكثيرا ما يكون هذا الخطأ من الضآلة بحيث لا يستحق التكفير عنه بالاعتذار . . فضلا عن الانتحار . .

رأيت — فيا رأيت — أسرة ، كل نسائها وبناتها يمارسن البغاء السرى . . ورجال الأسرة من أزواج وإخوة لا يعلمون شيئا . .

ونساء الأسرة عبارة عن أم ، وبنتها المتزوجة . . وبنتين طالبتين . . والأم يشارف عمرها الستين . وهى التى تدير مأدبة الرذيلة وتقدم للضيوف فى حذر ومهارة بنتها الزوجة ، وبنتيها الطالبتين . . (؟ !)

لماذا تفعل الأم هذا وترتكبه ؟ إن الظروف المعيشية كما رأيتها ، لا يمكن أن تكون سببا . والرغبة المشتهية ، لا وجود لها بين الحوافز على الأقل بالنسبة للأم ، وبنتها الزوجة . .

لا أستطيع الزعم بأنى عرفت الباعث الكامن فى جوف المأساة . . ولكنى تأكدت من قصة « الأم » التى سأرويها لكم الآن .

كان أبوها تاجراً كبيراً ، وكانت أسرتها تقيم بأحدى مدن العواصم الصغيرة . وعلى الرغم من صلاح أبيها ومحافظته ، فقد كان رجلا متسامحا إلى حد غير قليل . .

أحبت الفتاة شابا يعمل فى تجارة أبيها ، وسار حبهما فى تكتم واستحياء . . وذات ليلة ، وأخوها راجع من عرس كان يشهده ، والفجر يقرع أبواب يوم جديد ، « ضبطها » بين ذراعى فتاها فى ذلك المكان الذى يسميه الناس « بير السلم » . .

لم تكن تصنع وحبيبها ساعئذ ، كما لم يصنعا من قبل أكثر من النجوى . وما تثيره النجوى من فضول خفيف ترتكبه الشفتان والذراعان . . .

وطبعا أخبر الأخ أمه وأباه . وأصرت الأم على طرد الفتى من عمله . . واكتفى الأب بتوجيه نافع أسداه إليه وشفعه بالتهديد بالطرد إن هو عاد . . بيد أن الأم صممت على الطرد وغاضبت زوجها من أجل هذا . ثم عادت إلى بيت زوجها بعد أن انتصرت مشيئتها . وخلال هذه الظروف والأيام ، كان الخبر قد تفلت من ثقوب النوافذ ، وتلقفته آذان الطريق . وصار الوالد حديث الناس وموضوع تندرهم .

كيف يسكت على ما حدث . . ؟ كيف لايقتل الفتى ، وليس فقط يطرده . . ؟ بل كيف لايغسل العار بدم ابنته نفسها . . ؟ . والعواطف تعدى ، والأيحاء يضلل . .

وهكذا ، فأن « الرأى العام » فى تلك المدينة الصغيرة أنسى الرجل عقله وتسامحه . . وذات يوم أصلى ابنته ضربا أليما . وعاشت الفتاة فى جو خانق من التحقير والأهانة . . وحددت إقامتها وروقبت حركاتها بشكل ضاغط مثير .

وبعد سنوات تزوجت ، ثم طلقت ، ثم تزوجت رجلاً بالقاهرة وبقيت فى عصمته حتى توفى . . وهى لا تنكر أنها وهى معه وفى عصمته كانت تفعل — دون علمه — ما تشاء . . (؟)

إن بنتها المتزوجة كذلك . تفعل بأرشادها ما تشاء (؟) والزوج لا يعلم . . بل إن الزوج ليتحدث عن زوجته فى ثقة غامرة . حتى لكأنها قديسة عذراء . . ! !

مرة أخرى ، لا أزعم أننى أعرف حقيقة الباعث الذى ألزم الأم هذا السلوك المرذول . ولكننى مطمئن ، وهى طمأنينة لا أكلفكم أن تتقبلوها — أقول إننى مطمئن إلى أن الدورَ الأجرامى الذى لعبه الرأى العام فى ذلك « البلد » الذى كانت تقيم فيه الأسرة . والذى ألب الوالد على بنته وحرضه . . والذى خلق من شىء تافه ، فضيحة مزلزلة شوهت روح الفتاة ، وشحنت نفسها بالحقد الضارى . .

هذا الرأى العام الجاهل المنافق التعس ، هو المسئول الأول عن هذه المأساة وعن ذلك الحشد الكبير من المآسى المماثلة .

سألت الأم — ذات مرة — :

— أليس الأفضل أن تجنب بنتيها الطالبتين ذلك الطريق حرصا على مستقبلهما . ؟ ؟

فأجابتنى وهى تضحك :

— مستقبل . . ؟ ؟ الحياة ما تستاهلش . . ! ! !

أجل ، لقد أقنعناها بتفاهة الحياة ، وتفاهة كل ما بها من قيم ، يوم وقفنا منها وهى فتاة بريئة طاهرة ذلك الموقف الغادر المخزى . . ويوم حظرنا عليها أن تتنفس . .

يومئذ ، دفعها الرأى العام بكلتا يديه إلى الرذيلة والشقاء .

ولقد يسأل سائل :

— أتريد من الرأى العام أن يسكت على الرذائل ، أو يصفق لها . . ؟؟

وأجيب : لا . . ولكنى أريد ألا يسلك تجاهها مسلكا غبيا يضاعف من ضراوتها وانتشارها . .

والحد الوسط بين الأفراط والتفريط ، بين التهاون والتزمت — هو ما ندعو إليه . مدركين أن الظفر به يتطلب جهوداً مخلصة شريفة تبذل فى سخاء لتطوير رأينا العام وتنويره ،

ما نوع هذه الجهود اللازمة . . .

أستطيع أن ألخصها فى كلة واحدة هى « المعرفة » . . .

وأنتم تعلمون أن فى مقدمة وسائل المعرفة ، الكتاب . والصحيفة . .

وتعلمون أيضا احتياجاتنا العارمة إلى الكتاب الموجه ، والصحيفة الباعثة . .

أما الكتاب ، فلا مناص من إطلاق جميع الأمكانيات اللازمة

للكاتب من حرية ، وتشجيع ، ولا بد من إلغاء كافة الملابسات التى تبعث فى نفس الكاتب القنوط والسامة . . وأيضا لا بد من كتاب ومفكرين يكرسون مواهبهم للنضال ضد ما فى الحيـاة من كذب وألم وعجز . . ويعيشون للحق . ويؤثرون الواجب على المنفعة . . بيد أنه ينبغى إدراك ظاهرة هامة . . هى أن الكتاب يقاتل فى معركة شبه يائسة ، إذا لم تسلك الصحافة نفس الطريق المستقيم الذى ندعو الكتاب للسير فيه . لأن ضجتها التى لا تنتهى . وإيحاءها الموصول النافذ يجعلانها أكثر هيمنة ، وأعلى صوتا ، وأوفر نفوذا . .

والحق أن فى صحافتنا خيرا لا ينكر . . ولها دور مذكور ومشكور فى إنشاء الرأى العام ، وشد أزره . . لكن من الحق أيضا أن فيها شرورا لا تطاق . . ولها دور تمس فى تضليل الرأى العام واعتياق نموه . . !

فإذا قلنا إنها تأخذ بالشمال ما تعطى باليمين لم نكن إلا صادقين . .

ونحن لا نكاد نعلم كيف تستطيع صحيفة تلعب القمار مع القارئ ، وترسم سياسة توزيعها فى غيبة فضائل المهنة ، والشعور بتبعات الفكر . . . كيف تستطيع أن تكون معلما ومرشدا . . ؟ ؟

لقد قلنا إن الناس يصوغون سلوكهم وفق القيم التى تسود مجتمعهم . وصحافتنا طبول تقرع لقيمة واحدة هى المنفعة . . ! !

والسباق اللاهث المسعور الناشب بينها نحو التوزيع الأكثر . جعلها تمرغ كل التزاماتها الشريفة فى التراب والوحل .

عندما تواظب الصحيفة على إبراز الحوادث التافهة وتعطيها من الأهمية ما تعطيه لأعلان حرب عالمية . من العناوين الضخمة ، والعرض المثير .

فأن ذلك لا يعنى قط سوى شىء واحد . هو إتلاف الملكات الذهنية للقراء الذين يتكون منهم رأينا العام . .

وعندما تنشر صحيفة بنفس الطريقة السالفة ، نص محادثة بين رجل وزوجته ، أو رفيق مع صديق . ؟ فأنها بهذا تلبس الرذيلة ثوب الفضيلة . بل ثوب البطولة . وتقنع قراءها بأن التجسس على الأسرار التى أعلنت قداستها حقوق الإنسان . ليس سوى عمل شريف وبطولة تستأهل الحفاوة والأعجاب . . !

وعندما تعالج الصحافة القضايا القومية بروح حزبية . أو القضايا الإنسانية بروح غير إنسانية . .

وعندما تلتمس للباطل المعاذير والمبررات . فأنها نصيب الرأى العام بشر ما يمزقه . وتعرقل فى همة باغية كل وسائل التربية ومحاولات التفوق الخلقى للجماعة . .

فكيف نأخذ بزمام هذا المارد الضارى إلى الخير والحق والواجب ؟؟

ألا إنه لعبث أكبر أن نتقدم للصحافة بموعظة . . ؟

وأيضا ، إنها لحماقة مزعجة أن نطالب بوضعها تحت وصاية . . نحن الذين نرى أن أفضل علاج لأخطاء الحرية . هو المزيد من الحرية . . .

إذن ، فما السبيل . . !

هناك سبيل نقترحه وندعو له هو أن نحرر الصحافة ـ قدر الاستطاعة ـ من وطأة المنفعة . التى تضلها ، وتضل معها الجماهير .

وسنتوسل لهذا بالقانون .. وإنه ليؤسفنا ونحن ندعو لأحياء الشعور بالواجب . ونحذر من الأسراف فى الاعتماد على القوة حتى حين تتمثل

فى قانون . . يؤسفنا أن نلجأ مضطرين هنا إلى القانون لنتقى بمادة أو مادتين ، شرورا قد تحتاج بعد لقوانين شتى ، وعقوبات جمة . .

أما المادة الأولى من القانون المقترح ؛ فتحرم تحريما قاطعا القمار الذى تمارسه صحفنا . . وسنربح بهذا التحريم ، انطلاق الجهود الفنية والعقلية فى كل صحيفة لرفع مستواها حتى تتفوق على غيرها . . ومهما يكن الأمر ؛ فستكون المنافسة بين الصحف على هذه الصورة الكريمة سبيلا يتسامى بتحريرها وبقرائها . .

أما المادة الثانية ؛ فتعيد تنظيم الجريدة من جديد . تنظيما ينفى عنها مظهر الأقطاع وسلوكه وصلفه وبهتانه . .

ـ كما نطلب من الذين ينشئون « جمعية » أو « هيئة » أن ينتخبوا المشرفين عليها . ويلتزموا النهج القانونى الذى يردهم عن المحاولات غير المشروعة . . فكذلك يجب أن يكون الأمر بالنسبة للصحافة . . فالواقع أن كل صحيفة بموظفيها . عبارة عن هيئة تمارس عملا مشتركا يقوم بتوجيه المجتمع . فكيف نترك هذا العمل الجليل والخطير لفرد واحد ، هو صاحب الجريدة . . ؟ ؟

ينبغى ـ إذن ـ أن يكون لكل صحيفة مجلس إدارة يشترك فى انتخابه جميع محررى الصحيفة وموظفيها . .

وهذا المجلس الذى نفترض أنه سيتكون من عشيرة أعضاء ، يصير بمثابة « جمعية عمومية » وينتخب بدوره « ثلاثة » يشرفون على التحرير ويكونون مسئولين عنه . .

إننا نعلم ـ سلفاً ـ أن أصحاب الصحف سيخادعون القانون ، ويصلون

إلى تكوين مجلس يوانق هواهم . . ولكن ذلك لن يضيرنا شيئا ، لأن كل تشريع جديد معرض للعبث الذى لايلبث أن يزول كلما تفاعل الناس مع واجباتهم إزاءه . . على أن قليلا من الضمانات نحوط بها المحررين والموظفين ، سيجعل كل محاولة للعبث هباء باطلا . .

إن مثل هذا التنظيم للصحافة هو — فى رأينا — السبيل الأوحد لتقويمها والانتفاع بها — فتوزيع المسئولية على جماعة ينتخبهم العاملون فى الجريدة سيحيى فيها وفيهم الشعور بالمسئولية . . ويرفع عنها وعنهم استبداد صاحب الجريدة . . ويحدّ من نشاطه الفردى الضار حين يعلم أنه لم يعدله من الأمر شىء — وأن الجريدة لم تعد إقطاعا يسيطر عليه غروره . . وأن سياستها لم تعد معلقة بكلمة تخرج من فمه المملوء بالمطامع والشهوات . . بل صار ذلك كله فى أيدى المائة ، أو المائتين الذين يعملون معه ، ويحملون فوق كواهلهم المتعبة مشاقّ العمل وأوزاره . .

وإذا سئلت ، ماذا أبقيت إذن لصاحب الجريدة ؟ ؟

أجيب ، أبقيت له الربح الذى سيجنيه من جريدته . بعد أن صار أو سيصير ربحا حلالا مشروعا . . وأيضا أبقيت له نصيبه من الأشراف على سياسة الجريدة وتوجيهها مع الآخرين ما دام سيظفر بتزكية الناخبين . . .

إننا نهيب بالمسئولين فى كافة بلادنا العربية أن يضعوا هذا الاقتراح موضع الاعتبار . . وسواء علينا أن يجئ هذا التنظيم فى صورة تشريع

وزارى تضعه الحكومة ، أو نقابى ، تضعه نقابة الصحفيين . المهم أن يتم ذلك حثيثاً ، ليقف ذلك المد « اللا أخلاقى » المدلل من عبث الصحافة ، وتكالبها على الربح وعلى الانتشار .

إن الصحافة فى بلادنا تنمى فى رأينا العام غريزة القطيع . وتلاشى منه عقل الجماعة . مما يساعده على إدمان الرذائل الاجتماعية من تعصب ونفاق ، وجبن ، وكذب ، وجمود ، وانحطاط . وهكذا يتعطل انطلاق الجماعة إلى أعلى . فلتبحث الصحافة عن طريق أهدى للحق ، وأصون للأمانة التى تحملها ولنساعدها نحن على هذا بتنفيذ ما اقترحناه .

والآن . ، وقد تعقبنا أهم مظاهر القوة والقهر العاملة الناصبة فى مجتمعنا . والمعطلة لذيوع الواجب الأخلاقى كباعث ومحرك . ، فأننا نختتم هذا الفصل بالحديث عما نعنيه بالواجب .

ماذا نعنى بالواجب . . ؟

تتنشق الرئة المريضة الهواء النقى ، فتحوله إلى سعال . .

وتهضم المعدة السقيمة الغذاء الشهى الغنى ، فتحوله إلى مرض . .

ويتلقى العقل المخبول الكلمة المضيئة ، والحكمة المترعة ، فيحولها إلى هذيان . .

وللمجتمع قيم إذا نخرتها العلة أو أخذ مكانها نقيضها . تتحول جهود الناس إلى هباء . .

ولقد ذكرنا من قبل أننا نصوغ سلوكنا وفق القيم السائدة فى المجتمع ، فإذا كانت قيما ضالة جاء سلوكنا ضالا مثلها . . وإن تك قيما فاضلة ، يكن سلوكنا فاضلا . .

وإذا رفع المجتمع لأبنائه قيما مريضة مسفة ، فيجب عليه ألا يلومهم على ما يرتكبون وما يقترفون .. فسيكون للناس من العذر المشروع الصادق مثل ما لصاحب المعدة المريضة ، والرئة التالفة ، والعقل المخبول . . !

إن كل جهد يبذل للتسامى بالسلوك سيتحول إلى النقيض . . تماماً كما تحول المعدة الممروضة الغذاء الشافى إلى مرض ، وربما إلى موت . .

ففى ظل قيم منحرفة يتحول جهدك المبذول من أجل إحراز الصدق ، لحساب الكذب . .

وجهدك للظفر بالشرف ، يتحول لحساب الخسة . .

وجهدك لكسب الشجاعه ، يتحول لحساب الخور والفزع . .

وجهدك لاستشراف الحقيقة ، يلتهمه منك رصيد الخرافة . .

وجهدك الصاعد نحو التفوق ، يتحول إلى انتكاس مروع صوب الانحطاط . . . !

وهذا هو التفسير الصحيح للواجب الذى نعنيه . . فالناس عندما يجاهدون جهادا أخلاقياً فى ظل الواجب كقيمة . فأنهم يجنون أشهى ثمرات جهادهم . . وحين يبذلون كل طاقتهم لبلوغ نفس الغاية فى ظل القوة كقيمة ، فأنهم لا يكونون أسعد حالا من الذى يتحول التفاح الجيد فى معدته إلى عصارة فاسدة . . ! !

إننا فى ظل القوة نعمل الفضيلة مضطرين ومكرهين ، فإذا زالت ظروف اضطرارنا واستكراهنا ، لم يبق معنا من الفضيلة شىء .

أما الواجب ، فهو كما يقول « جويو » ليس شعورا بضرورة ، ولا بضغط ، بل هو الشعور بقدرة . ولذا فهو يدفع بكل حسنا الأخلاقى

إلى المعركة . لأنه يوحى إلى الشعور بالاحترام العميق لقوانا ومحاولاتنا .
والتوسل بالقوة ينمى معنى الرق فى وجداناتنا . بينما الواجب يرفعنا ، ويحلق بنا فى الفضاء الحر . ومعنا أخلاق الأحرار . لا أخلاق العبيد ...

والقوة إرادة صناعية ، تأخذ مكان إرادتنا الطبيعية الذاتية . وهكذا نعيش بأرادة ليست منبعثة من صميمنا . وتحصرنا تلك الأرادة الدخيلة داخل نفسها ، فتهتاج فينا التمرد عليها ، والرغبة فى الانتقام منها . وتنمى فينا من النزعات ما يجعلنا أكثر توحشا .

أما الواجب ، ذلك الذى ينبعث من اقتناع صميمى لنا وليس هناك من قوة خارجية توجيه سوى الضرورات العادلة المنبعثة من حياتنا الاجتماعية ؛ فهو وحده الذى يبدل خوفنا أمنا ، وتوحشنا الغرزى ائتناساً وجدانياً وهو الذى يهبنا نورالشخصية بما يبعثه من ثقة بقدرتنا الداخلية ، وبما يصنعه من تحرير لرقابنا ...

والقوة تعتمد على فرض أحكامها وأوهامها ، من غير أن تربطنا بواجبات مفهومة ، ومن غير أن تعطى الباعث الخلقى الاهتمامات اللازمة لبعثه وشحذه وتعليته .

أما الواجب ، فيخاطب الباعث رأساً ، ويروضه على إدراك واجب أخلاقى توجيه وتحميه قوانا النامية ، وأفكارنا المقتنعة ، وعواطفنا المتطلعة لخيرما فى الناس من مكارم، والمزاملة لأسمى مايبذلون من محاولة .

وهكذا نجد القوة حين تتحول إلى قيمة عليا تناط بها محاولاتنا أو بتعبير أصح ، يناط بها إذعاننا الخلقى — نجدها أكثر نأياً بنا وابتعاداً عن الفضيلة الراسخة ، والسلوك القويم .

يقول ما كولى : — « إن خير معيار لخلق الرجل ، هى الأشياء التى يفعلها فى خلوته حين يتأكد أنه لن يطلع على سره أحد . »

ويقول هوايتهد : — « الدين هو ما يصنعه المرء فى خلوته » .

أجل ، إن الوحدة لتنضو عن الإنسان ما يستر حقيقة نفسه .

وهذا أجمل وأصدق تصوير للفضيلة . . فحين تكون وحدك . لاسلطان لأحد عليك ، تبرز حقيقتك ، وتظهر كل خفاياك .. وإذا كنت خبيث الطوية فأن مسرح الواقع يموج بمواهبك الشريرة التى ستنطلق ساعية كحيات وأفاعى انطلقت من جراب حاو أو ساحر . . ويذهب عنك الانسان الذى يتصبب فضيلة ، ويزخر بالود للناس ، والغيرة على الحق ، ويتجلى شخصك الطبيعى الذى صنعته القوة ، وأنمت ضراوته ..!!

إن هذا الذى نستطيع أن نتبينه فى أنفسنا حين نخلو بها ، .. وحين نفكر فى نفعية ، وغش وأنانية .. ليكشف عن خيبة القوة وإخفاقها فى خلق الفرد الصالح والمجتمع الصالح . ذلك لأن القوة لا سلطان لها على داخلنا ، وعلى ما فى هذا الداخل من بواعث ورغبات . . بخلاف الواجب الذى يدعم بنياننا من الداخل دعماً قويا يحمى هيكلنا من أن يقوض ويسوى بالتراب ..

حولنا بلاد تكافح السرقة .. كما تكافح الخطيئة الجنسية بالقتل وغيره.، ومع هذا فللرذائل الخلقية هناك نشاط هائل لا يكف عن الحركه ، ولا يفتر عن الارتكاب ..!!

وفى بلاد أخ كسويسرا ، أو كالدانمرك . . لا تبتر الأيدي ، ولا ترجم الزانى بالحجارة حتى يهلك ويموت . . بل ولا تنظر للرذائل إلا

نظرتها إلى مرض يعالج فى رفق وأناة . . نجد الفضيلة مترعرعة ، يملأ الأفق عبيرها ، ويضيئه سناها . .

حدثنى أستاذ ثقة كان فى « لندن » بعد الحرب الماضية وغشيت البلاد أزمة فحم خانقة . وطلبت الحكومة من الناس أن يكفوا عن استعمال الفحم ثلاث ساعات كل يوم حددت ميقاتها .. وفى هذا الوقت من كل يوم لم يكن بين سكان « لندن » جميعاً من يخالف رغبة الحكومة . ولقد حاول صاحبنا أن يتأكد من هذا ؛ فكان يتعمد زيارة بعض معارفه من الانجليز خلال تلك الساعات . . وحين كاشف أحد الانجليز بعمله هذا ، ضحك وقال له : لقد أتعبت نفسك . إن الشعب الانجليزى يحترم القانون لا لأنه قانون . بل لأنه كلمته ... هو يقولها ،وهو ينفذها وحين يقولها لا يقولها اعتسافا أو اعتباطاً ، بل يستمدها من الضرورات العادلة لمجتمعه . فتأخذ صفة الواجب . وحين ينفذها يستبعد نهائياً كلة « صعب » ...!!

وحدثنى نفس الأستاذ أنه يوم نزل « لندن » لأول مرة طالباً فى إحدى جامعاتها ، أعطى ملابسه للكواء .. وفى اليوم الثانى فوجىء حين عاد إلى منزله بلفافة كبيرة موضوعة أمام باب المنزل على الطريق العام .. واقترب منها فوجد بداخلها ملابسه .. ومن ذلك اليوم علم أن مثل هذا العمل شىء عادى هناك وليس ثمت من تسول له نفسه خيانة مثل هذه الأمانات مهما يطل مكثها أمام الباب ...!!

ليس هناك مشانق للمذنبين ، ولا سجون تغص بأدوات التعذيب . ، ولا قوانين يتجشأها فى إسراف مجتمع مبطون ..

ولكن هناك أمة عشقت الحرية وتشبثت بها ، كما لم يتشبث بها أحد .. وولاؤها العريق للحرية ملأ روعها ووعيها بصوت الواجب .. الواجب الذى تمليه ضرورات عادلة تتمثل فيها مصالح الأمة والجماعة .. ومن ثم يكون واجباً أخلاقيا نبيلا . لا ذلك الذى تمليه مخاوف طغيان باغ أو تقاليد مجتمع متخلف ..

فى كتاب «الأخلاق بلا إلزام ولا جزاء» يحدثنا المؤلف عن طفلة فرنسية ، أعطتها أمها قرشاً لتشترى شيئا للمنزل . وإذ هى تعبر الطريق دهمتها سيارة ألقت بها على الأرض وأصابتها بجروح . واحتوى الطفلة إغماء طويل بيد أنها ظلت قابضة على القرش فى حركة عصبية عنيدة .. ولما أفاقت ، وجراحها تنزف ، وجدت أمها أمامها ، ففتحت يدها المقبوضة وبسطتها إلى أمها تناولها « القرش » قائلة :

— قرشك يا أمى .. لم أضيعه ..!!

يقول العلامة « جويو » معلقا على هذه الواقعة الرائعة « لقد كانت الحياة عند الطفلة أدنى قيمة من القرش الذى اؤتمنت عليه » ..

ومنذ عام شهدت القاهرة واقعة مماثلة ..

ضابط بوليس مصرى ذهب يحمل حقيبة بها — خمسة وثلاثون ألفاً من الجنيهات — ليضبط بها عصابة تهريب .. كان الموعد بينه وبين العصابة فى منزل رئيسها . وذهب ومعه واحد من رجاله .. ووقفت القوة بعيداً عن البيت ..

وداخل البيت ، قدم لهما « كوبان من الشاى » ما إن ذاق الضابط منه رشفتين حتى ذاق فيه طعم الغدر فقد مزجته العصابة بمخدر ..

وأدرك أنه أحيط به وبرجله الذى معه . والذى ألقاه المخدر كجثة هـامدة بعد أن تجرع (فنجان الشاى) فى سرعة وهو يقول — ما أشهاه . . ؟! !

وطلب الضابط من أفراد العصابة وكانوا أربعة أن يفتحوا باب الشقة وهنا أسفروا عن مكرهم وطلبوا اليه أن يسلم المال الذى معه فى هدوء أو فليكن الموت له . . . .

ونسى الفتى نفسه ، وذكر واجبه ورجع إلى الوراء خطوتين حيث احتمى بمائدة الطعام التى فى البهو . وتبادل مع العصابة الرصاص . .

كان وحيداً بينهم ، والقوة هناك لا تسمع شيئا ولا تبصر . وتشبث بحقيبة النقود فى استبسال جنونى . . وبدلا من أن يحمى صدره بها ، حماها بصدره . . ! !

وهداه ذكاؤه فمزق زجاج النافذة برصاصة . نقل دويها نبأ المعركة للقوة المرابطة فى الخـارج .

وهاجمت القوة المـكان وخرج الضابط يتهاوى ويترنح .

وفوق السلم قابله رئيسه يسأله فى هلع — هل أصابك مكروه . . ؟؟

بيد أن الفتى لم يكن هنـاك فى ذاكرته وعلى لسـانه سوى عبارة واحدة هى :

— تفضل فلوسكم . . . لم يضع منها شىء . ! !

نفس الـكلمات والحروف التى قالتها طفلة فرنسية منذ عشرين عاما فى موقف مماثل . . ! !

لمـاذا . . ؟

لم تـكن الطفلة هى التى صمدت وتـكلمت ، ولم يكن الضابط هو

الذى صمد وتكلم .. بل كان شيئا آخر حل فيهما .

ولو تعدّد المشهد فى آلاف الرجال والنساء وكان هذا الشىء حالا فى ذواتهم ومقيما ، لرأينا نفس الصورة ، ولسمعنا نفس الـكلمات ..

أما ذلك الشىء فليس سوى .. الواجب .

ألاأن رحلتنا إلى الـكمال الانسانى لتبدأ من إيماننا بالواجب ، واعتمادنا عليه ، والتبشير به ، والتوسل لأقراره فى النفوس بكل سبيل مستطاع .

والآن ، لنحاول معا أن نبلو العلة الأساسية التى تعرقل نمو الواجب فينا .. وأن نصطنع النهج الحق الذى يأخذ بأيدينا إلى حيث نريد .

إن الذى فى أقصى ذواتنا من إذعان للقوة وإيثار لها لم يكن ثمرة الطغيان السياسى وحده . بل لقد امتزج ذلك الطغيان بعامل آخر كان له خطره البعيد . . ذلك العامل هو « الهيمنة الدينية » . .

فماذا نعنى بالهيمنة الدينية . . ؟

سنجيب .. ولـكن دعونا قبل هذا نخبركم أن السلوك الانسانى اليوم يناديه رائدان أخلاقيان ، يلتقيان حيناً ، ويفترقان أحياناً . .

ذلكما الرائدان هما : الأخلاق الدينية . . وأخلاق المدنية ..

ونعنى بالمدنية ، الحضارة والارتقاء . .

فمع أى هذين الرائدين نمضى . . ؟

سنمضى ـ طبعاً ـ مع أكثرهما استهجاناً للقوة والهيمنة والقسر . .

سنمضى مع أقربهما للواجب وأكثرهما حفاوة بنا ، وحناناً علينا ، وإدراكا لحقيقة المشكلة التى نعانيها . . ؟

أجل . مع أكثرهما فهماً للحقيقـــة ، وتعاوناً مع المســتقبل سنمضى . . فأيهما يكون . . ؟ ؟

أَخلاقُ المدنيَّة . أَهدَى . .

« حين يفقــد الحقيق ضرورته ، يصير
« غير حقيق .. والماضى والحاضر والمستقبل
« شوط واحد لانهائى ، تحقق الحياة به
« غرضها الأوحد . . . التقــدم »

- قبل أن نبــدأ . . . . . . :
- الأخلاق الدينية ، غير الدين
- خصائص الأخلاق الدينية
- فلنأ كل آ لهتنا ، ولنتحرر من القدر
- المدنية ، هى الدليل

قبل أن نبدأ ..

فى كتابنا الأول « من هنا . . نبدأ » تحدثنا فى فصل « قومية الحكم » عن الحكومة الدينية ، ونفينا إمكان قيامها . .

وفى كتاب « الديمقراطية . . أبدا » تحدثنا فى فصل « ديمقراطية التشريع » عن القوانين الدينية ، مؤكدين أنه لا يمكن أن تكون هناك قوانين دينية ، إلا بالقدر الذى يسمح بأن تكون هناك « كهرباء دينية » و « مواصلات دينية » . . ! !

واليوم ، وفى هذا الفصل نناقش فكرة « الأخلاق الدينية » متوسلين بالفهم المستأنى غير المتحيز لمعرفة حقيقتها . وهل استنفدت غرضها . أم لا يزال لها هدف تريده ، وواجب تبذله . .

ودعونى أصارحكم ، أننى أسمع غمغمة استنكار وتذمر . وأسمع أيضا ، همهمة سؤال يتحرك نحونا .

هذا السؤال يقول :

— إذا كنت قد نفيت عن الدين ، الحكومة الدينية ، والقوانين الدينية ، وتوشك اليوم أن تنفى الأخلاق الدينية . . فماذا أبقيت للدين إذن . ؟ ؟ وما هو . . ؟ ؟ وما رسالته . . ؟ ؟ ولماذا يبقى . . ؟ ؟

وأعترف فى صدق ، أنه سؤال عادل . . بلغ من العدالة والجدارة حدا يجعل تقبله والأجابة عنه من حتميات للوقف الذى أؤتمنا على تبعاته . . موقف الذين يبحثون عن الحق دون أن يهربوا مما يجىء مع الحق من مشقة وخطر .

والجواب عن هذا السؤال . بسيط بساطة الحقيقة . فنحن حين نفينا الحكومة الدينية ، لم نقل إن الدين ليس له رأى ـ أى رأى ـ فى شكل الحكومة . .

ومثل ذلك فى القوانين الدينية ، لم ننف أن يكون للدين توجيه فى إنشائها وتنظيمها . .

وإنما قلنا إن الدين لم يرسم شكلا محددا ومعينا للحكومة بحيث إذا لم تقم الحكومات بهذا التصميم الخاص تصير حكومات لا دينية . . (١)

كما لم يبسط فى تفصيل كامل ، قوانين معينة اشترط الحكم بها والاحتكام إليها ، بحيث يصير العدول عنها إلحادا وهرطقة . .

إذن ماذا فعل الدين . . ؟؟

لقد اكتفى بأن رسم الأطار الصالح للحكومة الصالحة ، فاختار نظام الشورى ، وهدى إليه قائلا « وأمرهم شورى بينهم » تاركا للناس ممارسة التفاصيل وابتكارها . كل أمة حسب ظروفها ،، وكل جيل حسب العصر الذى يعيش فيه . .

ولو فعل غير هذا ، لكان حجراً على المستقبل ، ولما استحق أن يكون ديناً . .

وسلك مع القوانين مسلكا مشابها ؛ فاشترط أن تكون أداة لأرساء الحق والعدل . ، وهى لا تكون كذلك أبداً إذا تحجرت فى نصوص معينة . ولا بد لها إذا أرادت أن تصون الحق ، وترفع لواء العدل أن

---

(١) راجع الفصل الثالث فى كتاب « من هنا . . نبدأ » .

تطوّر ، وتتغير ، بحيث تجيء دوما استجابة صحيحة لمقتضيات العقل الأنسانى ومنطقه . ، وتلبية واعية لاحتياجات العصر ومشاكله . . .

وليس أدلّ على هذا من أن الإسلام نفسه أبقى على بعض قوانين الجاهلية ، واستصحبها دون أن يغير منها شيئا (١) .

وليس يعقل أبدا ، أن ينسخ الله بعض أحكامه المنزلة فى القرآن ، ويستجيب لمصالح الناس ؛ فيغير اليوم حكما نزل البارحة . . ثم يحظر عليهم بعد ألف وأربعمائة عام بالنسبة للاسلام ، وبعد ألفى سنة بالنسبة للمسيحية ، أن يطوروا القوانين ويغيروها حسب ما تمليه ضرورات حياتهم النامية ، ومصالحهم المتغيرة . . !

ومثل هذا الذى قلناه عن الحكومة الدينية ، والقوانين الدينية . . نقوله عن الأخلاق الدينية . .

فنحن لا نعني أن الدين قاتر الاهتمام بالفضيلة ، أو محذوف الرعاية للاخلاق . .

ولا نعنى أيضاً أنه فشل فى إصلاح النفس البشرية وإرباء هداها . .

وإنما نعني ، أنه لم يلزم الناس بنهج أخلاقى متحجر . ولم يحدد الوسيلة المفضية إلى مكارم الأخلاق . . وإنما أكد للناس أن الخير ، هو وصية الله الخالدة . وأن الشرّ طريق الهالكين . ورفع أمام أعينهم من القيم السامية ما هو جدير بتكريس الجهد البشرى فى سبيل بلوغه .

أما الوسائل التى نحقق بها جهدنا هذا ، ونبلغ بها قيمنا تلك ؟

(١) راجع الفصل الثانى من كتاب « الديمقراطية . . أبدا » .

فأمرها متروك للناس . يكيفونها حسب أزمانهم وعصورهم . . وليس هناك إذن ما يمكن أن يسمى « أخلاقا دينية » تحدد نوع الوسيلة ، وتختار للسلوك نهجاً واحداً لا تبديل له ولا تطوير فيه . . !!

ولو فرضنا ـ جدلا ـ أن هذا النوع من الأخلاق وجد لنفسه مكاناً في الماضي . ؛ فهيهات أن يجد له مكاناً اليوم . حيث يقود العقل قافلة التقدم في فطنة باهرة وعرفان للجميل .. جميل القوى الخيرة التي سبقته ، والدين على رأسها . والتي لا تزال تزجي للموكب نفحات تشد عزمه وتنعش قواه . .

أجل ، إن إنسان هذا العصر إنسان جديد . . خالق قيم ، ورائد حضارة . . وهو إذ يرفض أن يكون امتداداً أفقياً لسلفه ، يريد أن يكون امتداداً رأسياً صاعدا . . ولم يعد هدفه في الحيـاة أن يفلسفها ، بل أن يحياها . .

وليس هناك عبث أكثر من عبث الذين يحاولون أن يسلكوه في شكيمة . ويفرضوا عليه قيما موروثة لم يمنحها عقله الحرّ جواز المرور . .

كان عمر بن عبد العزيز من خير الذين حملتهم الأرض فوق ظهرها ، فهما ، وعدلا ، وزهدا . . ولقد كان له دعاء جدير بكل متدين صالح ورع أن يفقهه ويرتله . .

كان الخليفة الصالح يدعو ربه ويقول :

ـ « يارب انفعني بعقلي . . واجعل ما أنا صائر إليه ، أهمّ إلى مما أنا مدبر عنه . . . » !!

أهناك حفاوة بالعقل ، وارتباط بالمستقبل أصدق من هذا ، سيما حين

يجىء من رجل كعمر بن عبد العزيز الزاهد القانت الأواب . . ؟؟

إن الفلسفة اليوم تنأى عن وصف الانسان بأنه « كائن » . وتنعته بأنه « صائر » إشارة إلى تطوره المتحرك أبدا . . فتأملوا فى ضوء هذه اللفتة الفلسفية ، كلمة عمر بن عبد العزيز وهو يقول أجعل ما أنا «صائر» إليه ، أحب إلىّ مما أنا مدبر عنه . .

لست أعرف لطمة توقظ الغافلين الصالحين الذين يرون فى «الصيرورة إلى أفضل » جنوحا وكفراً ، مثل هذه التى تأتيهم من رجل يجل عن النظير فى طهره وصدقه وتقواه .

فلنسأل الله معه أن ينفعنا بعقولنا ، وأن يجعل اهتمامنا بالمستقبل أكثر من اهتمامنا بالماضى . .

بل لنستعمل نفسه كلمته ؛ فقد قال « أحبّ » ولم يقل « أكثر »

والحق أن الذكاء المتألق فى كلمة « أحب إلى» يزيد فتوننا بصفاء هذا الرجل العظيم . فحاجتنا شديدة إلى تحويل قلوبنا عن الماضى إلى المتسبقل. وبذل الكثير من حبنا له . إننا نحب الماضى . . نحب القديم . . كما يحب المريض علته ، مؤثراً إياها على مرارة الدواء ومشاق الشفاء . .

نؤثر الماضى على المستقبل ، فراراً من تبعات الانتقال التى تتطلب أول ما تتطلب تغييراً فى عالمنا العقلى . .

من أجل هذا تعظم حاجتنا إلى تحويل مودتنا وحبنا للمستقبل . . الذى نحن صائرون إليه . !!

إن وصل الأمة — أى أمة — بالتقدم الإنسانى رهن بطبيعة الموقف الذى تقفه بين الماضى ، والمستقبل ..

ونحن كقوم نحاول أن نكون راشدين ، علينا ألا نهدم الماضى ، وفى نفس الوقت علينا ألا نرتبط به بل نتخذه وسيلة وموردا لمستقبل متطور وحياة متقدمة نامية .

أما الذين يريدون لنا أن نحكم من وراء القبور نجد خاطئين — وإنهم ليستطيعون أن يروا أنفسهم ، ويطالعوا عاقبة أمرهم والمصير . إذا هم شاهدوا أسطورة «السيد الكبير» فى فيلم «طريق الأفيال» ..!!

لقد كان «السيد الكبير» يتحكم فى الحياة وفى الأحياء من قبره ، بنفس القوة التى كان يتحكم بها حياً .

وكان أكثر الناس إذعاناً لذاكره ، وانبهاراً بالماضى وتعبداً له ذلك الذى يدعى «أبوهامى» .

إنه صورة حية لعبيد الماضى وسدنة التقاليد .. ويوم زحفت الأفيال كمد المحيط على القصر الذى تحداها به «السيد الكبير» وقطع به طريق الماء . . جاء «أبوهامى» مستطار اللب ، مفزع الفؤاد إذ رآها تسحق قبر سيده سحقاً . وهمّ ليحمى رفاته .. فتقدم إليه فيل متواضع ، والتقطه بخرطومه . ثم طوح به إلى منيته كأنه بعوضة . . !!

هكذا يفعل التقـــدم بكل من يقف زحفه ، ويتخذ من الماضى قبلته وإمامه .

إن الحياة تجدد وصعود مستمرين . . وكل حقيقى فيها يتحول إلى

النقيض حين يفقد ضرورته .. والماضى ، والحاضر ، والمستقبل ، تقسيم وضعى ونسبي ليس أكثر .

والزمان فى نظر الحياة ، ليس سوى شوط واحد لا نهائى تريد أن تحقق به غرضها الأوحد .. ألا وهو التقدم ..

فالتحيز الماضى عمل يرفضه الماضى نفسه ؛ لأنه يفقـــد وجوده وموضوعيته ، فى نفس اللحظة التى نعزله فيها عن حاضر الزمان ومستقبله كما أن جحود المستقبل ، والتبرم بفضائل العصر ومناهجه . يعتبران من فورهما ، جحوداً الماضى وإنـكارا لفضائله وتعاليمه . . لأن ذلك المـاضى نفسه ، كان يوما ما ، حاضرا ، ومستقبلا . وكان الولاء لتعاليمه الجديدة مروقا وإلحاداً .

وما أصدق الشاعر الذى قال :

قل لمن لا يرى المعاصر شيئاً — ويرى للأوائل التقديما

إن ذاك القديم كان جديداً — وسيضحى هذا الجديد قديماً .

وإذا كان التعاون مع التطور ، والاتجاه صوب المستقبل لازمين لتحقيق أغراض الحياة كافة . ؛ فهما أكثر حتمية ولزوما لتحقيق غرضها الأخلاقى .. لأن التطور والمستقبل ، يعنيان المدنية والتقدم :

والمدنية كما سنرى خلال الصفحات القادمة ضرورية للأخلاق . بل هى الفضيلة ، وهى الأخلاق . إنها تنمي كافة مصادر السلوك من عقل ، وشعور ، وإرادة . وتنقل الأنسان بوسائلها الـكثيرة المجدية من الفردية

والعزلة اللتين ترعرعان الشهوات الضالة إلى الغيرية التي تحول اللذة الشخصية إلى وجدان عام يتحرك داخل موكب خير ، يستهدف خيراً مشتركا .

وإنه لمن الخير أن ندرك حقيقة هـــامة — هي أن الدين في كافة أزيائه .. اليهودية ، والمسيحية ، والأسلام . إنما انتصر ورسخ وتفتحت له القلوب ، لأنه كان في أيامه الأولى يمثل مدنية جديدة . ، مدنية أخلاقية على الأقل .. وإن المرسلين عليهم السلام لم يتوج كفاحهم ضد خصومهم العتاة بالفوز ، إلا لأنهم كانوا يمثلون طلائع المستقبل والغد . ، بينما شد خصومهم إلى الوراء بسلاسل وثيقة من حرص مشئوم على تقاليد عفنة ، وتعصب ذميم لجهالات راسخة ، وتطلع مسعور إلى مغانم باطلة . .

أجل . لقد كان موسى دعوة للمستقبل والتقدم إلى فرعون ..

ألم يناد ببشريته بدل ألوهيته ..؟؟

ألم يلخص أمر إرساله موضوع رسالته التقدمية . ، حين قال الله له « اذهب إلى فرعون إنه طغى » ..؟؟

ألم تـكن مناضلة الرجعية السياسية المتمثلة في فرعون ، والرجعية الاقتصادية المتمثلة في قارون عملا من أعمال التقدم الأنساني ، والحضارة الزاحفة ..؟؟

أليست مدنية فاضلة ، هذه التي قالت في ذلك اليوم البعيد جداً ، للطبقة الـكادحة المعذبة (جئت لأحرركم من الرق ، وأجعلـكم أئمة ،

وحكاما ، وأجعلكم الوارثين لملك فرعون . وأمكن لكم فى الأرض . لينظر الله كيف تعملون » ..؟؟

والمسيح .. ؟؟

لقد كان هو الآخر حين أهلّ يمثل مدنية أخلاقية .

استمعوا للحيثيات التى طالب رؤساء الكهنة «بيلاطس» بأعدام المسيح من أجلها :

— « إننا وجدنا هذا يفسد الأمة .. ويقول للناس لا تعطوا الجزية لقيصر . فأنه عدو الله وعدوكم ..

« إنه يهيج الشعب . ويعلم فى كل مكان . مبتدئا من الجليل إلى هنا » .

أليس الأنسان الذى يحمل هذه المبادىء ، ويقدم رأسه وحياته ثمناً متواضعاً لها — رسول حضارة خلقية جديدة فى أيامه تلك التى كاد الناس فيها ينسون ما هى الفضيلة ..؟؟

وانظروا .. إن الذين يلحون فى طلب صلبه وإعدامه هم الكهنة .. رعاة مدنية آفلة أفسدها أصحابها وذووها .. هم رجال الدين يطالبون برأس من جاء يجدد للدين ضوءه الخابى ، وشبابه الضامر . فى تعاليم جديدة ..

احفظوا هذه العبرة ، واذكروها ؛ كلما حرضكم على عداوة الفكر دجال ..

إن « بيلاطس » يقول للكهنة : « كيف أقتله ، وأنا لم أجد فيه علة واحدة . ؟ » .

فيتراكضون كخنازير تساق إلى الذبح .. ويصرخون :

— « اصلبه .. اصلبه .. إن أطلقته ؛ فلست محباً لقيصر » . ! !

باسم الدين دفع جسد المسيح إلى العذاب والموت .. وبكلمة من رجال الدين وكهنته تماما ، كما حدث ل « جان دارك » وكما حدث لغيرها من قبل ومن بعد .. وكما يحدث الآن بصورة مخففة عند ما يقف بعض المخلصين ليفصموا الأجزاء الميتة من ديانة قائمة . وليرصفوا بتضحياتهم العذبة طريق التقدم البارّ .

ونغادر المسيح لمحمد ...

ألم يكن أيضاً رسول التقدم والمستقبل ؟؟ ذلك العظيم الفذّ الذى أعلن ملء عزمه ويقينه ، الأله الواحد . . الذى ليس هو من خشب ، ولا من ذهب ، ولا من حجارة .، والذى ليس له قاعة عرش . وليس له فى الأرض كلها حامل أختام « ! ! » والذى ليس سوى إرادة واعية منبثة فى السكون .

اسمعوه وهو يسأل من أصحابه : يا رسول الله كيف رأيت ربك ..؟؟

فيجيبهم : نور أنى أراه .!!

أى تحرير للعقل . ؟ أى إفساح المعرفة . ؟

ثم أى تقديس المدنية والمستقبل ، حين يقول عليه الصلاة والسلام « سيساق منكم إلى العذاب يوم القيامة أناس . . وأنهض لأشفع لهم .. فينهاني ربى ويقول لى : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك .. لقد كانوا يمشون القهقرى على أعقابهم .. فأقول : سحقاً سحقاً » ...

لوأن الإسلام اختصر فى هذا الحديث وحده .. هذا الحديث ولا شيء معه . . لكفل له البقاء ما دام هناك حياة . فهذا هو دستور الحياة

الخالد : لا تسيروا القهقرى ، فليس وراءكم سوى أرض منهوكة منزوفة . ولكن امضوا إلى الأمام . وإلى الأمام دوما حيث «اللانهائى» فى انتظاركم ..

— كانت الأديان إذن تمثل مدنيات أخلاقية فى أوانها ..

ترى ، هل لا تزال كذلك ؟ ؟

أخشى إذا قلت : نعم ، أن أكون قد خدعتكم . . وإذا قلت لا : ، أن أكون قد كذبتكم . فالموضوع — فى رأينا — أضخم من أن يفصل فيه بكلمات سريعة وعجلى . . وأنتم تعلمون أننا نعقد هـذا الفصل من الكتاب لا لنتحدث عن الدين ، بل عن الأخلاق الدينية .. وهى كما سترون الآن ، شيء مختلف عن الدين تماما .

أما الدين ، كوحى ، ومنهاج أساسى يريد أن يظل ممسكا ببعض الزمام . ، فأنا متفق مع نفسى أن يكون لى فى هذا الموضوع بحث خاص أرجو الله أن يوفقنى إليه ، ويجمعنى بالحقيقة خلاله . . أما هنا فحسبنا أن ندير خواطرنا على الأخلاق الدينية كمشكلة من مشاكل السلوك الإنساني .

والآن ننتقل إلى نقطة تالية ، لننظر . هل الأخلاق الدينية هي الدين . أم لا .. ولماذا . . ؟ ؟

الأخلاق الدينية غير الدين :

سنبدأ حديثنا هذا ملاحظين أن البيئات التى بدأت فيها وانطلقت منها ، اليهودية ، والمسيحية ، والأسلام — كانت بيئات متخلفة تتمتع بحظ كبير واف من الجهل ، والجمود ، والعزلة . . فلم يكن من الطبيعى »

والأمر كذلك أن يختص الدين بدعوته ، العقيدة وحدها . . بل لا بد من أن يعاون هؤلاء العزل من المعرفة ، ومن العزم ، على ترقية أحوالهم، وتهذيب سلوكهم . ومن هنا كان الدين يعنى بالعقيدة التى جاء يبثها . ، وبمصالح الجماعة المعيشية . ، ثم بأخلاقها وسلوكها ..

ولنترك العقيدة جانباً ، لنرى ظاهرة قيمة . هى أن كل دين من الأديان الثلاثة ، كان يعالج مصالح الجماعة التى ظهر فيها ، وأخلاقها بأسلوب ملائم لظروف الجماعة وعرفها ...

وقبل أن نستخلص من هذه الظاهرة نتيجة ما ، دعونا نضرب لها مثلا .

كان لنساء بنى إسرائيل فى الدهر الأول عادة شاذة يستعملنها فى العراك فكانت الواحدة منهن إذا رأت رجلا يشتجر مع أخيها ، أو زوجها ، أو ابنها ، تهب لنجدته . فتهجم على خصمها ، وتقبض بيدها فى ضغط على « خصيته » حتى يهلك ، أو يستسلم ..؟؟

فكان لا بد أن يهذب الدين هذا السلوك الشاذ الفاسد ، فكانت الآية الحادية عشرة من الأصحاح الخامس والعشرين فى سفر التثنية . والتى تقول :

ـــ « إذا تخاصم رجلان . بعضهما بعضاً . رجل وأخوه ، وتقدمت امرأة أحدهما لكى تخلص رجلها من يد ضاربه ومدت يدها وأمسكت بعورته (؟) فاقطع يدها ولا تشفق عينك » ...

وأيضا كانت ظروف إسرائيل ، ومغامراتهم الحربية « فى أرض سيحون ملك الأموريين ، وأرض عوج ملك باشان » كانت ظروفهم

فى تلك الأيام تدعوهم للتكاثر والانطواء على أنفسهم . وخلق مجتمع عنصرى لا ينفتح بابه لسواهم . . فجاءت تعاليم موسى عليه السلام من المبالغة بحيث تصوغ سلوك الناس هناك وفق هذه الحاجة فقال فى الآيات الأولى من الأصحاح المذكور :

— « إذا سكن إخوة معاً ومات واحد منهم وليس له ابن ، فلا تصر امرأة الميت إلى خارج لرجل أجنبى . .

« أخو زوجها يدخل عليها ، ويتخذها لنفسه زوجة ، ويقوم لها بواجب أخى الزوج . . والبكر الذى تلده يقوم باسم أخيه الميت لئلا يمحى اسمه من إسرائيل . .

« وإذا لم يرض الرجل أن يأخذ امرأة أخيه ، تصعد امرأة أخيه إلى الباب ، إلى الشيوخ . وتقول : قد أبى أخو زوجى أن يقيم لأخيه اسماً فى إسرائيل . لم يشأ أن يقوم لى بواجب أخى الزوج . .

« فيدعوه شيوخ مدينته ، ويتكلمون معه . فأن أصر ، وقال لا أرضى أن أتخذها ، تتقدم امرأة أخيه إليه أمام أعين الشيوخ ، وتخلع نعله من رجله وتبصق فى وجهه ، وتصرح وتقول ، هكذا يفعل بالرجل الذى لا يبنى بيت أخيه؛فيدعى اسمه فى إسرائيل بيت مخلوع النعل » . !!

أرأيتم ؟؟ أيكم يود أن يكون مخلوع النعل . . ؟؟

إن عيسى لم يفعل هذا ، ولم يأمر به . . ومحمد أيضا . . فلماذا . . ؟ لأن ظروف البيئة التى ظهرا فيها لم تكن بحاجة إليه .

ومثل آخر ، قد يكون أكثر إيضاحاً .. فالتوراة ترسم أخلاق الحرب فى قسوة لا يحتملها ضمير بشر . !!

فانظر ما ذا كانت تقول لليهود وهم يحاربون الحثيين ، والأموريين ، والكنعانيين :

— « .. تهدمون مذابحهم ، وتكسرون أنصابهم ، وتقطعون شواربهم ، وتحرقون تماثيلهم بالنار ..

« لا تقطع لهم عهداً ، ولا تشفق عليهم ..

وتأمرهم أن يدمروا فى « أريحا » كل شىء ، ويقتلوا جميع ما فيها ، ومن فيها من إنسان وحيوان وطير ..

فهل من الخير ، أن ننادى اليوم بأخلاق الحرب هذه ، لأنها كانت يوما ما أخلاقاً دينية ، ووصايا رسول ، وكتاب مقدس .. ؟؟

فأذا أردنا مثلا من تعاليم المسيح وجدنا شيئا مغايراً .. إن الظروف التى كانت تجعل سلفه موسى يؤجج كل شىء حتى الكلمات ناراً وسعيراً ، لا وجود لها ، وطبيعة الداعى هنا وهو المسيح ، مختلفة عن طبيعة الداعى هناك ، وهو موسى ..

والتكييف الأخلاقى للسلوك كان فى أيام موسى مشبعا بروح الحقد والمقت والمغالاة ، أما هنا ، « فباركوا لاعنيكم وأحبوا مبغضيكم » .

من أجل هذا نلتقى داخل إهاب يسوع بأنسان عذب رقراق ، أقصى ما تبلغه انفعالاته من عنف وحدة ، لايتمثل فى غير قوله « يا أولاد الأفاعى » ..!!

نلتقى بالمسيح وهو يفتح ملكوت الله « للخطائين والزوانى » ..

هل تتصورون هـذا . . ؟ ؟ نعم ، ففى موعظته لحجاج الهيكل وقف يقول :

— الحق أقول لـكم ، إن الخطائين والزوانى يسبقونـكم إلى ملـكوت الله ، لأن يحي جاءكم بالحق ؛ فلم تؤمنوا له » . .

ومع هذا ، فلا نستطيع أن نجعل الأخلاق الدينية فى شريعة المسيح ، أخلاقا لعصرنا هذا ، أو على الأقل،لانستطيع أن نتخذ بعضها كذلك . .

إنه يرى النظر إلى وجه المرأة والفتاة ، التى هي اليوم زميلتك فى الجامعة ، أو فى العمل، أو فى الطريق . . يرى النظرة المشتهية إليها زنا . .

« فأن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها » . . !

« وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها » . . !!

وعثرة العين النظر ، وعثرة العين فى هذا المقام اللمس ونخشى أن تـكون المصافحة . .

ولا تتزوج امرأة مطلقة ، ولو أعجبتك ، لأن « من يتزوج مطلقة فأنه يزنى » . . !!

« ومن لطمك على خدك الأيمن ، فحول له الآخر أيضا . ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا » . . !!

والحياة عبث ، ومباهجها لغو ، والمال شر والأنسان لا يقـدر أن يخدم الله والمـال . .

« لذلك أقول لـكم لا تهتموا لحياتـكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون » .

والمستقبل فناء وعدم . . فاطلبوا « ملـكوت الله وبره ، ولا تهتموا

للغد . لأن الغد يهتم بما لنفسه ويكفى اليوم شره » .. !!

وأنعم الحياة ، وتيسيرات الحضارة ترف يحرم أصحابه من الجنة ومن ملكوت السماء فمن كان يريد الفردوس « فخبز الشعير والنوم فى المزابل مع الكلاب كثير » .. !!

أجل ، هكذا يقول المسيح ، وهكذا يريد .. فهل تسمح ظروفنا الماثلة ، ونمونا العقلى والاجتماعى لمثل هذه الأخلاق الدينية أن تكون واقعية . وأن يصاغ منها اليوم سلوك حى .. ؟؟

إن الاقتصاد والادخار من يوم نجد فيه ، ليوم قد لا نجد فيه .. يقف على رأس فضائل عصرنا . بل ضروراته .. فهل نأخذ بهذه الفضيلة أم نطرحها ونحمل فضيلة « العراء » التى يدعونا إليها المسيح فيقول :

— « لا تقتنوا ذهبا ، ولا فضة ، ولا نحاسا فى مناطقكم ، ولا مزودا للطريق ولا ثوبين ، ولا أحذية ، ولا عصا » ... ؟ !

إن المسيح وحده بما أودعه الله فيه من شموخ الروح ، وصلابة الأرادة ، وربانية الرغبة .. هو وحده يستطيع أن يصوغ سلوكه وفق تعاليمه هذه .. أما بقية الناس ، فلا ..

ونغادر المسيح إلى محمد عليه السلام لنأخذ أيضا منه مثلا ..

والحق أن الرسول أكثر واقعية .. والحق أيضا أنه كما وصفه ربه « على خلق عظيم » شأن إخوانه المرسلين جميعا الذين اصطفاهم الله واختارهم . بيد أن هـــذا لا ينفى أن بين تعاليمه أخلاقا كانت تلائم روح العصر الذى ذهب . وهى اليوم أبعد ما تكون عن ملاءمة عصرنا ونحن نبادر ، فنحذر الذين قد ينكرون علينا وضع تباين العصور

موضع الاعتبار ، نعم نحذرهم ، لأنهم بأنكارهم هذا يزفون أنفسهم إلى موقف ذميم لا يطيقون تبعاته .

ذلك أننا سنسألهم : إذا لم يكن لاختلاف الأزمنة ، وتباين العصور شأن ؛ فلماذا أرسل الله موسى ، ولم يكتف بالذين سبقوه من الأنبياء والمرسلين . . ؟ ولماذا جاء المسيح بعد موسى مكملا ناموسه ومنهاجه . . ؟

ثم لماذا لم يكتف الله بهذا ؟ فأرسل محمدا . . ؟ ؟

أليس ذلك احتراما من الله ذاته للشيء الذى تنكرون علينا احترامه . وهو تباين الزمان والعصر . . وبكلمة واحدة — التطور . . ؟ ؟

ولقد تسألون بدوركم : لماذا لم يرسل الله بعد محمد أحدا . . ؟ ؟

وعلى الرغم من أن هذا السؤال لا يفيدكم فيما نحن بصدده ، نجيبكم قائلين : لسبب بسيط جدا . هو أن العقل الإنسانى ، والحضارة البشرية ، بلغا من السموق والتفوق ما يجعلهما جديرين بالسير وحدهما مكتفيين من التجربة الدينية بما حققه موسى وعيسى ومحمد ، وإخوانهم الذين سبقوهم بأيمان .

لسائل أن يسأل ويقول : إن الدين يدعو لمكارم الأخلاق جميعا ، مثل الصدق والأمانة ، والشجاعة ، والعفة ، والوفاء ، وغير هذه من الفضائل . ، وهى كلها أخلاق دينية . . فهل نفهم من حديثك عن الأخلاق الدينية ، أن يتخلى الناس عن الصدق ، والعفة ، والشجاعة ، والأمانة ، وبقية الفضائل التى حث الدين جميعه عليها . . ؟ ؟

وجوابنا ، أن الصدق والأمانة والشجاعة إلى آخر ما ذكرنا ، ليست أخلاقا دينية . . بل أخلاقا إنسانية . . عرفها الإنسان قبل أن يعرف

الدين . وعلى أرضنا وفى عصرنا هذا ملايين من البشر لا دين لهم . ومع هذا فهم يعلمون أن الصدق والأمانة والعفة والسخاء فضائل . ولو أننا أخذنا مائة رضيع ، ونشأناهم بعيداً عن المجتمع الإنسانى بمؤثراته من دين ومعرفة ، لتعلموا عن طريق التجربة جدوى هذه الفضائل وحتميتها . فدور الدين إذن فى هذه المسئلة لم يجاوز الحث والتزكية.. وهو دور عظيم جد عظيم. أجل ، إن الوحى لا يثبت للأفعال قيمتها ،، بل يخبر عنها فقط..

ثم إننا نلح فى أن تفهم وجهة نظرنا فى الموضوع على وجهها الصحيح فنحن لا نرفض الأخلاق الدينية ، بل نحدد صلتها بالدين . حتى إذا علمنا أنها ليست من عقائده التى يلحد منكرها ، زالت وطأتها المقدسة عنا ، وبهذا نستطيع أن نتقبل منها ما يساير العصر ، وننحى ما استنفد غرضه ، وفقد صلاحيته .

وكذلك ، لا نتحدث عن مفردات الفضائل كالصدق ، والشجاعة والأمانة . . بل نحاول نظرة أكثر عمقاً ، وأبعد غوراً

أجل ، إن الذى يهمنا قبل سواه ، هى المعايير الخلقية التى تنتظم فى اهتمام وعناية — الباعث الأخلاقى .. والوسيلة الخلقية . .

فالأخلاق الدينية مثلا — قد ترى الطريق إلى فضيلة العفة، الانفصال فلا ترى المرأة رجلا ، ولا يراها رجل ..

ولربما كانت هذه الوسيلة أكثر إجداء من غيرها فى العصور السالفة .

أما اليوم ؛ فأخلاق المدنية ترى ، بل تؤكد ، أن الوسيلة المجدية لعفة صادقة ودائمة هى ، الاختلاط ... الاختلاط الهادف إلى إنشاء زمالة مؤنسة فاضلة بين الجنسين ، المرأة والرجل ..

فبأى النظرتين نأخذ .. ؟

إن هذا المثال يكشف عن ضرورة الاعتماد على أخلاق المدنية ، سيما وقد رأينا أن الأخلاق الدينية كانت تستلهم احتياجات البيئة ، وظروفها واستعدادها .. فلماذا نحظر اليوم على أنفسنا ذلك الذى أبيح بالأمس لغيرنا ؟ .

لنفهم هذا جيدا ، . إننا لا نستطيع أن نكون أخلاقيين حتى نعيش فى زماننا . .

وإن الدين لا يعنيه إلا أن يعيش الناس عيشة صالحة . وأن يرتفعوا بأنفسهم ، وبفضائلهم إلى الكمال الميسور .. أما وسيلتهم لهذا ؛ فلا يمكن أبدا أن تتحجر فى نص ، أو أن تحتبس فى منهاج .

إن الدين ينشد رعاية شاملة للخير ، وعزوفاً دائبا عن الشر .

ولقد وضعت المسيحية ذلك المبدأ حين قالت :

— « لا يغلبنك الشرّ ، بل اغلب الشرّ بالخير » ووقف الإسلام نفس الموقف حين قال :

— « خالق الناس بخلق حسن ، فأكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقا »

وعلينا نحن . وعلى كل جيل من الناس أن يستمد من ظروف تطوره ، وإمكانيات حضارته ، الوسائل التى يغالب بها الشرّ ، ويخالق الآخرين بأحسن الأخلاق ،

وعندئذ نحقق مشيئة الدين ، وإن لم نحقق مشيئة الأخلاق الدينية .. فالأخلاق فى الدين مبدأ ، وفكرة .. وهى فى الأخلاق الدينية سلوك ومنهج .

فإذا أراد الدين عفة . . وحددت الأخلاق الدينية طريقها بالفرار من المرأة ، وإلزامها قعر دارها . . فأن موقفنا يتمثل فى أننا ننفذ مشيئة الدين ؛ فنؤثر العفة . . ثم نختار الوسيلة الناجعة ، والملائمة لسنى تطورنا وتقدمنا وتجاربنا . وهنا نجد أنفسنا معرضين عن الأخلاق الدينية باسم الواجب ، وباسم الفضيلة ، بل وباسم الدين ذاته . . وسائرين فى زمالة الأخلاق الحضارية التى امتحنت الأشياء وقلبت وجوه النظر ، ثم جاءتنا تعلن فى ثقة أن الانفصال بين الجنسين أقرب الطرق لكافة الرذائل الجنسية التى عرفها الإنسان من عهد الغابة حتى اليوم . . وأن الاختلاط سبيل قويم لفضائل الجنس ، وفضائل النفس (١) .

وهنا يتقدم إلينا سؤال آخر يقول :

— إذا أخذنا بوجهة نظرك التى سلفت ، فماذا يكون موقفنا من الوحى الذى حدد الوسائل واختار البواعث . ؟ ؟

وبعبارة أخرى : إن الدين هو الذى اختار الانفصال بين الجنسين كوسيلة للعفة والبعد عن مواطن الزلل والرذيلة . فإذا آثرنا اليوم وسيلة مغايرة ومضادة لتلك التى اختارها الدين ونزل بها الوحى . ألا نكون مهرطقين وضلالا ؟؟

والدين أيضاً اعتبر الختان من فضائل العادة الممهدة لفضيلة العفة بالذات . . فإذا رأت أخلاق المدنية العكس ، وآثرناها . . ألا نكون عصاة مذنبين ؟؟

---

(١) يراجع ما كتبناه بإفاضة وإسهاب عن المجتمع الانفصالى والمجتمع الاختلاطى وعن الاختلاط والتربية الجنسية فى كتابنا « هذا . . أو الطوفان » .

ونجيب ، بأن الأخلاق الدينية تستمد غذاءها من مصادر ثلاثة .

ـ أولها ـ ، الدين الصحيح . أى التعاليم الصادقة التى نادى بها الرسول ، ولم تنلها يد التحريف والتزييف . .

ـ ثانيها ـ ، التعاليم المدخولة المدسوسة على الدين وليست منه . وكلنا نعرف أن هناك عشرات الآلاف من الأحاديث المكذوبة الموضوعة . نسبت إلى رسول الله عليه السلام زورا وبهتانا . .

ـ ثالثها ـ ، التقاليد التى اختلطت بالحركة الدينية خلال تطورها وفتوحاتها ، ودخول الأمم والجماعات فيها ، سواء فى المسيحية أو فى الإسلام . .

فأما مصدرها الأول ؛ فهو وحده الجدير باحترامنا . وموقفنا منه ينبغى أن ينطوى على ما يستحقه من إصغاء وتوقير .

كيف . . ؟ ، وما السبيل . . ؟ ؟

قلنا من قبل ، إن ما يريده الدين بأصرار وحسم ، هو مزاملة الخير ، ومقاطعة الشر . . وقلنا إن فى الدين جانبا لا يتغير . وكل تبديل فيه يعتبر تسريحاً للدين وإنهاء له . . ذلك هو جانب العقيدة وما يلتحم بها من فرائض العبادات . وفى الدين جانب آخر يخضع للتعديل والتطوير ، هو جانب الفقه الذى ينظم للناس معيشتهم ، وسلوكهم . .

ولقد حدث كما ذكرنا من قبل ، أن الله ذاته غير فى القسم الثانى وبدّل ، وهو العليم الخبير الذى يعلم ما كان وما سيكون . . والذى ليس بحاجة إلى أن يضع علمه موضع التجربة والاختبار .

أليس ذلك أذاناً منه — سبحانه — إلى الناس كى يحسنوا تكييف الشريعة وفق ظروفهم ، ومصالحهم ، واستعدادهم . ؟؟

أجل ، الأمر كذلك حقا . ولقد رأينا من كبار علماء الأسلام وأكثرهم ورعا وتقوى من يقول : إذا تعارض النص من قرآن وسنة ، مع المصلحة ، قدمت المصلحة على النص .. لأن النصوص إنما جاءت لرعاية المصالح لا لتعطيلها . » ....!!

إذن ، فموقفنا من الأخلاق الدينية التى ترتكز على نص دينى صحيح هو تفسير النص وتكييف وجهته بحيث يتواءم مع ضروراتنا التى يكشف العلم والتطور عن حقيقتها ..

أما الأخلاق الدينية التى تستمد وجودها من المصدرين الآخرين — الخرافة ، والتقاليد .. فمن البداهة أن ندرك مدى ما نسديه للدين ، وللفضيلة من صنيع حين نحطمها ، ونسحقها ، ثم نذروها فى الهواء ..

مرة أخرى أقول لكم : إن الدين يهتم بالموضوع لا بالشكل ، وبالمبدأ لا بالتفاصيل ، خاصة حين يكون الأمر متصلا بشئون المجتمع والحياة ..

هذا هو المسيح يسأله رجل وهو يلقى موعظته :

— يا سيد ، قل لأخى يقاسمنى الميراث .. فيجيبه يسوع :

— يا أنسان ، من أقامنى عليكما قاضيا ، وقاسما .. ؟؟

وهذا هو رسول الله محمد ، يقول لأمته :

— « إذا حدثتكم عن الله . فأنى لا أكذب على ربى . وإذا حدثتكم بشىء من شئون الدنيا ، فأنتم أعلم بشئون دنياكم » . .

والآن ، وقد نزعنا عن « الأخلاق الدينية » قداستها نريد أن نعرف من خصائصها ما يجعلها جديرة بأن تترك مكانها — مشكورة — لأخلاق أخرى جديدة ، أخلاق العلم ، والمدنية :

• الأخلاق الدينية أمر مطلق . .

الأمور المطلقة ، ليست هى مالا يناقش فحسب .. بل هى أيضا التى تبرم فى غيبة أصحاب المصلحة الأولى فى وضعها . .

فالدولة الفاشية ، أمر مطلق . بمعنى أن أوامرها فوق النقاش وإبداء الرأى . . وبمعنى أن الذين يصطنعون هذه الأوامر ويبرمونها ، ليسوا أصحاب الحق فى إبرامها ، وهم أفراد الشعب وممثلوه فى برلمان حر مريد . .

والأخلاق الدينية ، كالفاشية ، أمر مطلق لايناقش. وأيضاً لم يستشر فيه صاحب الحق الأول والمصلحة الأولى ــ وهو هنا ، الطبيعة الأنسانية .

فللطبيعة الانسانية حقوقها التى لا ينبغى أن تغفل أبدا عندما يراد انتهاج خطة لسلوك أصحابها (١) .

غير أن الأخلاق الدينية لم تعبأ بالانسان ، ولا بطبيعته .

وأكاد أسمع همهمة قوم يقولون : أليس الله خالق الانسان ومصور طبيعته ، وهو أعلم بها وباحتياجاتها وبمصالحها ؟؟

وأقول لهم : نعم ، ولكن لا تنسوا ما قلناه منذ قريب ، من أن الأخلاق الدينية بالمفهوم الذى ذكرنا ، ليست من عند الله . . ولكنها

تكلمنا عن حقوق الطبيعة الإنسانية واحتياجاتها فى فصل « طبيعتنا الحرة . . أعلم » كتاب « هذا . . أو الطوفان » .

ظاهرة اجتماعية تكونت خلال الأزمان من عناصر شتى.، وحين نناقشها ، فنحن لا نناقش الله . .

نعود ؛ فنقول : إنها أمر مطلق ، تعتمد على الألزام الناجز . وأخلاق هذا شأنها لا تكون عوناً على الفضيلة والخير . . لماذا ؟؟ ، لأن الألزام والأكراه ، ينالان من الإرادة الانسانية حتى يوهناها . . ونحن نعلم ، أو ينبغى أن نعلم أن نصيبنا من الفضيلة ، مساو لنصيبنا من الشعور بقوة إرادتنا ، وكما يقول العلامة « جويو » — « إننا حين نقوم بواجب خلقى ، لا نفعل أكثر من الكشف عن حدود إرادتنا ، وقوتنا » .

إذن ، فكل تعويق للأرادة ، إساءة للفضيلة ذاتها ، والألزام القاهر تعويق ، أى تعويق . . ! !

ولقد يسألنا سائل : ألم تدع للواجب كباعث وقيمة . . ؟ . وأليس الواجب إلزاما . . ؟

ونجيب بأن الواجب الذى دعونا إليه ، هو الواجب الأخلاقى . فألزامه سيكون أخلاقيا مثله . لأنه منطلق من الأرادة ، لا متسلط عليها . . ثم إن الواجب الأخلاقى ليس أمرا مطلقا مقدسا . بل هو فضيلة متطورة منبعثة من مدركات العصر ، وليس من أقاصى الغيب . .

ومثل هذا ، يقال عن الألزام الطبيعى الذى ينطلق من طبيعتنا ، ويدفعنا للواجب . . إنه هو الآخر مختلف عن الألزام الهابط علينا من الأخلاق الدينية . لأنه ، وهو جزء من طبيعتنا ، لن يكون مسيطرا عليها . بل معينا لها . .

ولكى يستبين الفارق أضرب لكم مثلا .

عندما تغزونا دولة أجنبية ، فأننا نعتبر كل أوامرها وإلزاماتها تسلطا يستحق التمرد . . .

فإذا قالت هذه الدولة ، لماذا لا تطيعون أوامرى كما تطيعون أوامر دولتكم ..؟ يكون جوابنا : أن أوامر دولتنا ، أوامرنا نحن . لأنها منا ، وإلينا . . أما أنت ، فقوة دخيلة متسلطة بغير حق . .

كذلك الالزام المنبعث من طبيعتنا ، هو جزء منها ، جزء من دولة هى نحن ، ونحن هى .. فلا يكون وطأة ثقيله على الأرادة . بل منبها لها بخلاف ذلك القادم من خارج ، فأنه يعطلها ، ويذلها ..

فأذا سئلنا : أليست أخلاق المدنية إلزاما بسلوك معين . . ؟ أحلنا السائل على نفس الإجابة السالفة ، وزدناه بيانا قائلين : ان أخلاق المدنية ، ليست أمرا مطلقا . وليست لها قداسة لاهوتية تصد الناس عن مناقشتها ، وتطويرها . . بل هى وليدة العصر ، وثمرة التجربة والعقل .

وليس يشفع للأخلاق الدينية ما قد نحسبه احتراماً للعقل تبذله وتبديه . . فالدعوة إلى تحكيم العقل ، وإلى التفكير الحر ، غير مجدية شيئا إذا كانت تنطوى على حرماننا من وسائل تحقيقها . .

وهل الأخلاق الدينية كذلك . .

نعم ، فهى باعتمادها على التحريم الدينى المقدس تسلبنى حق استعمال العقل ، وفرصة التفكير الحر . . وهذا ينقلنا إلى خاصية أخرى من خصائصها . .

• التحريم والتجريم ..

تعتمد الأخلاق الدينية على التحريم والتحريم اعتماداً غير صالح ..
فهي تحرم ما تشاء من ألوان السلوك . ثم تجرّم في غلظة من يرتكبون محظوراتها ، وتسلكهم في عداد المجرمين .. !!

وإذا شئنا ضرب مثل يزيدنا اقتناعا بوجود فارق شاسع بين الدين ، والأخلاق الدينية .. ؟ فهذه مناسبة طيبة للمثل المنشود ..

فالأخلاق الدينية ، تتخذ من التحريم المتواصل سوطاً تردع به الناس عن الرذيلة . وإسرافها في التحريم مصحوب دائماً بتضخيم شأن الخطيئة ..

وهذا شيء نلاحظه ، عند كل دعاة الأخلاق الدينية كافة من وعاظ ، وأئمة ، وكتاب ، ومؤلفين ، وشيوخ طرق ..

فهل الدين كذلك .. ؟

أبدا . بل هو على النقيض عند من يحسن فهمه .

إن رجلا يجيء للرسول هلوعا مفزّعا . من أجل ذنب ارتكبه .
فيسأله الرسول : هل شهدت معنا الصلاة .. ؟ فيقول : نعم ..
فيقول له الرسول : إذن غفر الله لك . إن الحسنات يذهبن السيئات .!!

بل أكثر من هذا يقول : « والذي نفس محمد بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون ؛ فيغفر لهم » .. !!

ماذا يفيد التحريم ما دام ليس له على بواعثنا الأخلاقية سلطان .. ؟

وماذا يفيد تجريمنا ، وتشويه أنفسنا أمام أنفسنا ، سوى الشعور المقيت المذل باحتقار ذواتنا ، وسوى إشعال حرب أهلية بين المرء ونفسه

أسلحتها اللوم ، والتقريع واليأس من التفوق والاكتمال . . ؟ ؟

فهذا هو الطريق إلى مكارم الأخلاق . ؟ ؟ !

على أن الأنصاف يقتضينا القول بأن الأخلاق الدينية فى مسئلة التحريم هذه ، تعتمد على الدين فى كثير من مظاهره ـ نعنى مظاهر التحريم . . بيد أنها مسئولة ، أو دعاتها هم المسئولون عن عدم توجيه النصوص المحرمة وجهة ترفع وطأتها عن الفضيلة والأخلاق ، وتمنع الخلط بين المسئلة الأخلاقية ، وغيرها من أسباب ذلك التحريم . .

ونضرب لهذا مثلا . .

ن الدين يحرم أكل لحم الخنزير . ويحرم ترك الصلاة . . ويحرم التختم بالذهب على الرجال . . ويحرم شرب الخمر ، قليلها وكثيرها . .

وتجىء الأخلاق الدينية ؟ فتعطى هذا الحظر مفهوماً أخلاقياً ، وعلة أخلاقية . فتسىء إلى قضية الأخلاق إساءة كبيرة . .

ما علاقة لحم الخنزير بالفضيلة . . ؟

أليس يمكن أن يأكله إنسان فى الصباح ، وفى المساء . ثم يكون متحليا بمكارم الأخلاق . صادقا ، شجاعا ، أمينا ، مستقيما . . ؟؟

وأليس بين تاركى الصلاة أناس فضلاء هم إلى الله والفضيلة أقرب من بعض الذين يعانون الصلاة . . ؟ ؟

والخمر . . ؟ ؟

إن الأسراف فى تعاطيها إلى حد العربدة ، هو الذى يجعل المسرف غير أخلاقى . . أما الشرب الهين ، والتعاطى الوئيد . ما صلته بالأخلاق ؟؟

لا تحسبوا أنى أحرض على ترك الصـلاة ، وتعاطى الخمر ، والتهام

شرائح الخنزير . . كما أن موضوع البحث ليس تحريم هذه الأشياء ، أو عدم تحريمها . . بل هو الكشف عن العبث الذى تقترفه الأخلاق الدينية حين تعطى كل تحريم دينى علة أخلاقية ، ومفهوما أخلاقيا . . وهو عبث نستطيع أن نلمح آثاره وعواقبه فى رأينا العام الذى يقيس أخلاق الناس بهذه التحريمات ، مما يسبب له ارتكاسا وخيما فى أحكامه الفجة على الناس . .

كان « أحمد ماهر » سياسياً نظيفا ، وأخلاقيا ممتازاً . . ومع هذا ؛ فقد استطاع خصومه السياسيون إقناع العامة والجماهير ، بأنه فاسد ومرذول .

أتدرون لماذا .. ؟؟

لأنه كان يشرب خمراً .. ويراهن على الخيل فى حلبة السباق ..!!

وفى هذه المثلبة التافهة أغرقت فضائله الجليلة التى ينوء بحملها أولو العزم من الرجال .

وفى كأس خمره الصغيرة ، تلاشت شجاعته الأدبية ، وإخلاصه الوطنى ونزاهته ، وحسن بلائه ، وذكاءه المتقد ، وإيمانه العميق .

أجل ، نسى العامة كل هذا ، لرجل لا يمر طرازه بالحياة إلا قليلا . ولم يذكروا له . وعنه ، إلا أنه يشرب خمراً . . ويغشى حلبة السباق (!!!).

إن الأخلاق الدينية لا تعطى مفاهيم صحيحة متطورة للفضيلة ، وللسلوك القويم . وهذا يجعلها خطراً عليهما . .

• إرهابية الباعث ، ورجعية الوسيلة :

وثالث خصائصها أنها تعتمد على باعث غير إنسانى ، وتهتدى بوسيلة غير متطورة . .

نحن نعلم ، أن أهم عناصر الفضيلة ، هو الباعث الذى يحفزنا إليها . . ولقد قلنا من قبل ، إن أعمالنا لاتوصف بالحسن ، ولابالقبح إلا تجوزا . والذى ينعت بهما حقيقة هو الباعث على العمل . وضربنا لهذا مثلا — القتل . . فهو جريمة إذا كان الباعث عليه العدوان الشخصى للسلب ، أو الانتقام — وهو فضيلة إذا كان باعثه الدفاع عن وطن ، أو حياة . .

وفى التربية الحديثة التى تقدمها لنا أخلاق المدنية والعصر ، نرى اهتماما واعياً بتطهير الباعث من الذعر والخوف . . بل ومن الرغبة أيضاً . . والاتجاه به نحو الواجب . . والأخلاق الدينية لا تستطيع أن تهبنا عونا فى هذا السبيل .

إن باعثها يتمثل فى أمرين . .

الرجاء فى ثواب الله . . والخوف من عقابه . .

وطبيعة الناس أن ينفعلوا بالخوف أكثر مما ينفعلون بالرجاء ، الأمر الذى تحاول التربية الحديثة أن تصل إلى نقيضه ، والذى حققت فيه نجاحا مبدئياً يبشر بفوز عظيم . . ومن قديم الزمان ، حيث كانت الأخلاق الدينية تعمل فى الميدان وحدها . وحيث الناس القدامى يخافون أكثر مما يرجون . . ذهبت الأخلاق الدينية تصول وتجول مركزة جل اهتمامها فى التخويف الشديد حتى صار هو باعثها للفضل ، وحافزها المجرب .

ولا بد من الاعتراف بأنها استمدت معظم خاماتها من الكتاب المقدس فى المسيحية ، ومن القرآن والسنة فى الأسلام .

ففى الكتاب المقدس نلتقى بآيات النذير والرعب .

— « ها أنذا ، جاعل كلامى فى فمك ناراً ، وهذا الشعب حطباً ، فتأ كلهم .. ها أنذا أجلب عليكم أمة . كلهم جبابرة يأ كلون حصادك وخبزك الذى يأ كله بنوك وبناتك يأ كلون غنمك وبقرك . يأكلون جفنتك وتينتك . يهلكون بالسيف مدنك الحصينة ... إياى لا تخشون يقول الرب ، ألا ترتعدون من وجهى .. »

إن التخويف هنا أقسى من التخويف بعذاب الآخرة لأنه آت فى يوم قريب ..

« على بيت هكاريم ارفعوا علم نار ، لأن الشر أشرف من الشمال وكسر عظيم ، الجميلة اللطيفة ابنة صهيون أهلكها » ...

« الأشرار يبادون جميعاً ؛ وعقب الأشرار ينقطع » ..

« ويل لك يا كورزين .. ويل لك يا بيت صيدا ..

« وأنت يا كفر ناحوم المرتفعة إلى السماء . ستهبطين فى الهاوية » ...

« .. قد اقترب منكم ملكوت الله . وأقول لكم إنه سيكون لسدوم فى ذلك اليوم حالة أكثر احتمالا مما لتلك المدينة » .

وفى القرآن نلتقى بآيات التخويف تكاد تتأجج ..

« .. وذرنى والمكذبين أولى النعمة ؛ ومهلهم قليلا .. إن لدينا أنكالا وجحيما . وطعاما ذا غصة وعذاباً أليماً » ..

« كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » ..

« إن زلزلة الساعة شئ عظيم . . تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون » . .

« خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » . .

« إن شجرة الزقوم ، طعام الأثيم . كالمهل يغلى فى البطون . كغلى الحميم . . خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم » . .

« من ورائه جهنم ، ويسقى من ماء صديد » . . ؟؟

« قوا أنفسكم وأهليكم نارا . . وقودها الناس والحجارة . عليها ملائكة غلاظ شداد » . .

بعد عرض هذه الشواهد ، نعود لحديثنا قائلين إن الأخلاق الدينية تستمد بعض ترهيبها من الكتاب المقدس ومن القرآن . . ولكنها تقف من هذه النصوص موقفاً انتهازيا باطلا . .

فالكتاب المقدس من ألفى عام ، أو أكثر ، لم يكن يستطيع أن يتفاهم مع تلك البشرية القديمة المتخلفة التى عاش بينها بغير أن ينذرها ويرهبها ويخوفها بطش الله . .

لم يكن ثمت من الثقافة ، ومن التربية ، ومن التقدم الإنسانى مثل الذى معنا اليوم مما يمكن أن يغنى عن التوسل بالزجر والتخويف . ، ومثل هذا يقال عن القرآن . . فآيات التخويف فيهما . الكتاب المقدس والقرآن ، ذات مفهوم مجازى ودلالة وقتية . .

وإذا سألنى سائل : أتريد أن تحذف آيات العذاب من القرآن ، وتستبعدها . . ؟؟

أجيبه : عفا الله عنك ، ما لهذا قصدنا . وإنما نقول إن دلالة هذه الآيات مجازية تصويرية . تريد أن تحمل الناس الذين يخافون ولا يخجلون ، على طاعة الله ، وترك السوء . .

وإنا لنعلم أن فى القرآن آيات نسخ حكمها ، ونفد غرضها . . ومع هذا فهى باقية لمجرد التلاوة دون أن يكون لها حكم نافذ ، أى حكم . .

فآيات العذاب باقية للتلاوة ، وللتاريخ . تصور لنا حال مرحلة من تطورنا الإنسانى كان الخوف فيها هو المعراج الذى يصعد بالناس إلى الكمال . .

أما أن نعتمد على التقريع الشديد ، والتخويف المدمدم فى محاولاتنا الأخلاقية اليوم ، كما تفعل الأخلاق الدينية فعلا ، فعمل غير صالح ، بقدر ما هو غير دينى .

من هذا الذى قال : « ما أرسلت نقمة ، بل أرسلت رحمة » ؟ ؟

والقائل « إنى أريد رحمة لا ذبيحة » . .؟؟

أليس هو المسيح . . ؟

ومن قال أيضا « إنما أنا رحمة مهداة » . . ؟ ؟

أليس هو محمد . . ؟

أجل ، إن آيات العذاب التى يتوسل بها دعاة الأخلاق الدينية اليوم لتستعمل استعمالا ظالما . وتسخر لمعركة لم تستشر فيها .

ولقد اعتمد عليها الدين فى ذلك الزمن البعيد . يوم لم يكن منها بد . .

ومع هذا ، فقد كان يستعملها فى حذر ورفق . .

هذا هو رسول الله عليه السلام ، يبصر أما تضم طفلها إلى صدرها .
فيسأل أصحابه الذين معه قائلا : — أترون هـذه الأم طارحة ولدها فى النـار . ؟ ؟

فأذا أجابوه ، كلا ، يارسول الله . .

قال لهم : « والذى نفسى بيده . إن الله لأرحم بعبده المؤمن من هذه بولدها . . »

أى إنه لن يطرح إنسانا واحدا فى النار . . أى اطمئنوا ، ليس أمامكم نار ، ولا غسلين ، ولا مقامع من حديد . . ! !

وهناك أبلغ من هذا دلالة على ما نقول : فذات يوم أسرّ إلى معاذ حديثاً ، فقال معاذ ووجهه يتهلل بشرا :

— ألا أبشر الناس يارسول الله . ؟ ؟

— فأجابه عليه السلام : لا يا معاذ . حتى لا يتكلوا . .

وتأملوا كلمة « لا يتـكلوا » تدركوا كل شىء . . .

أما هذا الذى أسره الرسول لمعاذ . فهو « يا معاذ بن جبل . من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة » .

ألا إن جميع الناس ليموتون غير مشركين بالله شيئاً وإن بدا لنـا . بل وإن بدا لهم أنفسهم أنهم مشركون . ! !

إن استعمال الخوف كباعث فى عصرنا هذا ، يعتبر عملا غير إنسانى . . مما يجرد الأخلاق الدينية من إنسانيتها . .

فاذا غادرنا الباعث إلى الوسيلة ، وجدنا رجعية ضارة معتاقة . .

بم تتوسل الأخلاق الدينية للفضيلة . ؟ ؟

إنها تتوسل بذات الوسائل التى كانت منذ ألفين من الأعوام . . ! !

إن الله لم يكتف بموسى فبعث المسيح يكمل الناموس . . ثم لم يكتف بالمسيح فبعث محمدا فى أثره مجددا وهاديا إلى طريق جديد . .

أنريد نحن اليوم أن نسير على المنهج الذى أكلته القرون والدهور . . ؟ ؟

أجل ، هذا ما تريده الأخلاق الدينية . . وهى هنا أيضا تستغل الآيات المقدسة استغلالا رجعيا جاهلا . .

فالكتاب المقدس مثلا يرى من آداب السلوك أن تغطى المرأة شعرها فيقول :

— « إن كانت المرأة لا تتغطى ؟ فليقص شعرها » ويقول « حسن للرجل ، ألا يمس امرأة » .

ويرى القرآن مثل ذلك فيقول :

« يأيها النبى قل لأزواجك ، وبناتك ، ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن » .

ويقول الرسول : « إن المرأة إذا بلغت المحيض ، لم يحل أن يظهر منها إلا هذا . . وهذا . . مشيرا إلى الوجه والكفين . . » .

وتتجاهل الأخلاق الدينية ، أن هذا تشريع خاص بمسائل اجتماعية ، وليس ملتحما بالعقيدة . .

وتتجاهل أيضا ، أن الرسول قال « أنتم أعلم بشئون دنياكم » فتوغل فى التشبث بنفس التفصيلات والوسائل التى كانت تصلح لزمان

غير زماننا ولقد أوقعها هذا فى مأزق وبيل ، وأوقع معها ضحاياها . .
وذلك المأزق هو : حصرها المشكلة الأخلاقية فى الجنس . . .

أجل ، إن الأخلاق الدينية لتنفعل بالجنس انفعالا مريبا . وتبالغ فى تصوره مبالغة تدفع حتما إلى الولوغ فى رذائله . وإنك لترى المرأة فى بلادنا ـ بلاد الشرق العربى كله ـ مخلوقا عجيبا . لا ينبغى لمسه ، ولا النظر إليه ، ولا إفساح المجالس له ، ولا الاقتراب منه . . ! !

مع أن العقل الإنسانى قد انتهى نهاية سعيدة ، إلى أن خير الفضائل وأزكاها ، هى التى تترعرع فى مجتمع زالت فواصل الجنس منه ، وتفوق على مركبات النقص التى ملأته بها الأخلاق الدينية . .

لا تستطيع الأخلاق الدينية إذن أن تهدى للفضيلة . ما دامت تعتمد على الأرهاب وتتوسل بالرجعية فهى استبداد ، والأخلاق حرية . . وهى جمود ، والفضيلة متطورة . .

وإرهابها هـــذا ، ورجعيتها تلك يزجيان لها نقيصة أخرى تمثل شر خصائصها . .

• التعصب ، والانطواء . .

رأينا فى الفصل الأول من هذا الكتاب كيف يجىء التعصب ثمرة حتمية لطغيان الحكومة . وقلنا هناك ، إنه يجىء كذلك نتيجة لازمة لطغيان التقاليد والخرافة . ووعدنا بالحديث عن هذا فى فصل قادم والآن قد جاء أوان الوفاء . .

الأخلاق الدينية بطبيعة تكوينها وفلسفتها لا تستطيع إلا أن تكون

متعصبة . لأنها مرتبطة بالماضى ، وكل ارتباط بالماضى وبالغيب وإهمال ما عداهما من مصدر وسبب . أمر يفضى قطعاً إلى التعصب . وأخلاق متعصبة ، لا يمكن أن تكون فاضلة ، ولا طريقاً للفضيلة . .

فالتعصب كذب ، وظلم . . كذب ، لأنك بتعصبك تزعم أن وجهة نظرك ، هى وحدها الحق الذى يجب أن يذعن الناس له . .

وظلم ، لأنك بتعصبك تتحكم فى تفكير الآخرين ، وفى مصايرهم . وتعطى نفسك حقاً لم يعطه الله سبحانه لنفسه . . حق حبس المستقبل ، ومنع الغد من الانبثاق ؛ والحجر على الحقيقة الوافدة المقبلة . . ! !

إن التعصب يسلب ضحاياه أجل الفضائل الإنسانية ، وأزكاها . .

فهو يسلبهم فضيلة الصدق . لأنهم يمعنون فى الكذب والزور . إذ يزعمون بتعصبهم ، أنهم وحدهم الذين يعرفون . . .

ويسلبهم فضيلة الثقة بالنفس ، لأن الذى لا يثق بغيره ، عاجز عن أن يثق بنفسه . . ولأن التعصب فى الواقع دمار يغطى به المتعصب عريه العقلى ، والأخلاقى . ويستر به ضعفه المستقر فى أعماقه . .

وهو يسلب ضحاياه أيضاً فضيلة الأمانة ، لأن الأمانة هى قدرتك على صيانة حق الغير . . وحين تتعصب لرأيك وحده ، ومصلحتك وحدها ، فإنك بتعصبك هذا ، تعفى نفسك نهائياً من تبعات الرعاية المطلوبة منك لحقوق الآخرين . . حقوقهم فى اختيار الفكرة ، والرأى ، والمنهج . . .

وهو يسلبهم كذلك فضيلتى التسامح والحب . لأن الحب والتسامح ، يقتضيان فهما . . ، والتعصب جهل . . يقتضيان مشاركة . . ، والتعصب انطواء . . يقتضيان سلاما . . ، والتعصب حقد واضطراب . . ! !

وهو يسلبهم فضيلة العدل . . لأن العدل هو أن تضع نفسك مكان الغير ، ثم تكون حكمك . والمتعصب لايغادر نفسه ، ولايبصر سواها . ومن ثم ، فهو عاجز عن الحس الصادق ، والنظر الثاقب ، والحكم العادل . .

وهو يسلبهم فضيلة الرحمة . . لأنه — أى التعصب — يمثل فى حقيقته أقصى مظاهر القسوة على النفس . . ! !

أجل ، إن المتعصب قاس على نفسه ، ممعن فى القسوة والتشفى . وحين نتعمق المتعصبين ، نجد كلا منهم يتعصب للرأى ، أو للوضع الذى يستر نقصا فيه . ويوارى سوأة له . . وهو فى « لاشعوره » مبغض لعاهات نفسه ، ناقم عليها نظير اقترافها النقص ، هنا يختار عقلاه الكامن والواعى نقطة التقاء يعبران خلالها عن تناقضهما . . فيكون التعصب معبرا عن احتقار « اللاشعور » لنفس المتعصب وذاته . ويكون فى نفس الوقت تعبيرا عن رغبة الشعور فى ستر العاهة النفسية ، وموارة النقص . .

فكيف يستطيع قاس على نفسه مذل لها ، أن يهب الآخرين الرحمة والرفق . . ؟ ؟

والتعصب كذلك ، يسلب ضحاياه فضيلة الشجاعة . لأنه يمثل جزع العقل الباطن من الرأى المغاير وجبنه حياله ، وعجزه عن ملاقاته ومواجهته . . ولعلنا بقليل من الفطنة نستطيع أن نرى أكثر المناضلين جبنا وهلعا ، هم أولئك المتعصبين . . الذين لا ينبعثون عن إيمان فيه ضوء المعرفة . . بل عن تعصب فيه ظلام الجهالة . . .

ولقد صدق « فون بابن » حين قال فى مذكراته التى نشرها بعد الحرب الأخيرة إن الألمان لم تهزمهم القوات المسلحة التى لقيتهم فى ميادين

الحرب . . وإنما هزمتهم قوى الظلام التى هاجمتهم من داخل أنفسهم ، والتى هى . . التعصب الذى راضتهم عليه النازية فى غير شفقة وفى غير فهم . . . !!

فهل يستطيع أحد أن يخبرنا ، كيف تستطيع الأخلاق الدينية التى تتعصب للقديم وللخرافة . أن تهدينا إلى فضيلة وخلق . . ؟؟

عندما كان « برنارد شو » يكتب ويقول : « إن أبانا الذى فى السموات يعطينا خبزنا . ، ولكنه لا يجرى على طريقة الخبازين فى أوقات التوزيع » . . ؟ !

أو يقول « خير للانسان أن يخطىء مع روح القدس ، من أن يخطىء مع المال » . .

أو يقول « حاذر من الانسان الذى وضع إلهه فى السماء » . . ؟!

عندما كان يقول هذا ، لم يكن أحد يتميز من الغيظ سوي دعاة الأخلاق الدينية . وهو لم يكن يكتب مثل ذلك إلا ليجهز نهائيا على ضراوة التعصب الدينى . . وليضع الفهم المرح للأشياء ، مكان التزمت الكئيب . .

من أجل هذا ، كان أثره فى أخلاق أمته . أمراً غير منكور . . ونحن لا نريد أن نستفز الأخلاق الدينية فى بلادنا بمثل كلمات « شو » وأسلوبه . . وحسبنا فقط أن نناقشها بمنطق الدين نفسه ، الدين الذى تظلمه ، وتشوهه وتفسد ما بينه وبين الناس . .

والتعصب يفىء على الخلق الدينى انطوائية كالحة ، لأنه يحصر الانسان

داخل نفسه ، وداخل خطاياه . . والأخلاق الدينية لهذا عاجزة عن بث حياة اجتماعية خلاقة . .

إنها تلحق بنا فى الكنائس والمساجد ، حيث يمكن أن نحاول حياة اجتماعية عابرة ، فتفرض سلوكا معيناً يجعل الفرصة تفلت . . ولهذا فأن اجتماعات المعابد شكلية ، لا موضوعية ، وبتعبير أكثر صحة ـ دينية ، لا أخلاقيـة . .

أليست تطالبنا بالصمت التام فى الكنيسة ، وفى المسجد ؟ ؟

أليست تكلفنا بأوضاع معينة ، وطقوس معينة ، وهدوء خاص ؟ ؟

إن الحكمة تتكون فى العزلة . . أما الأخلاق كما يقول الفيلسوف « كانت » فتتكون فى ضوضاء الحياة . . ومن هنا تصلح الكنيسة والمسجد لتخريج حكماء ، وحكماء لا غير . . ؟ !

ثم إن الأخلاق الدينية تقوم على احتقار الشر ، وتدعو لمقاطعة الشرير كعلاج خلقى . . فكيف تكون اجتماعية إذن ، وهى تشجع القطيعة ، وتثيب عليها . . ؟ ؟

وننتقل الآن إلى خاصية أخرى من خصائصها .

• الجبرية ، والوعظية . .

تربطنا الأخلاق الدينية بمفهوم قدرى ، يفضى بنا أحيانا إلى تبرير الظلم فنقول « لا يقع فى ملكه إلا ما يريد » . . وهى إذ تحس ضعفها أمام قوى التطور والعقل ، تتخذ موقفاً لاهوتيا صامتا ، وتنزع إلى الجبرية المطلقة التى تكف بفلسفتها المضارة قوى السعى والمحاولة عن العمل . .

فالأخلاق الدينية تقنعنا بأننا مجبورون على سلوك معين . . وأى سلوك آخر سواه مهما يحقق من فضائل وسعادة ، ليس منها ولا من الأخلاق فى شىء . . لماذا . . ؟ لأن الطريق الواحد الأحد المفضى للفضيلة هو الذى ترسمه الأخلاق الدينية دون سواه . . ! !

وقصر حيلتها يدفعها إلى الوعظ . فهى وعظية ، بمعنى أن الموعظة الزاجرة الراعبة هى وسيلتها لتقويم السلوك . . أما دراسة النفس الإنسانية دراسة تجريبية . واعتبار الخطيئة ، عاطفة ضلت طريقها . . والمرض الخلقى ، عقدة تعالج بمعالجة ظروف نشوئها . . ووضع الإنسان تحت مجهر العلم ، لا لسان الواعظ . . كل هذه معابثات لا تعترف بها الأخلاق الدينية ، ولا تعتمد عليها . . ! !

ترى ماذا تستطيع المواعظ أن تفعل بطبيعتنا . . ؟ ؟

لا شىء سوى التخدير المؤقت . . وعلى أرض تاريخنا الإنسانى نبصر ركاماً لا ينتهى لضحايا الرذيلة والشر الذين أغرقوا فى طوفان من المواعظ الخلقية العاجزة . .

وهذا يشير فى صدق إلى عجز الأخلاق الدينية يوم كانت ظروف القوة والصلاحية تملأ عينها ، فكيف ، وهى اليوم تعانى مطاردة وإخفاقا يزيدانها عجزا . . ؟ ؟

الحق أن الأخلاق الدينية فاشلة فى أداء رسالة خلقية صحيحة . وهى بعيدة عن إدراك أى غرض أخلاقى ، بقدر بعدها عن الرسائل الفعالة اللازمة لبلوغ مثل هذا الغرض الرفيع . .

ولعلنا لو قمنا بعمل إحصاء بين الطوائف التى تخضع للأخلاق ،

الدينية ، وغيرها من الطوائف التى لا تخضع لهـا . ، لوجدنا الرذيلة بين الأولين ، أكثر منها بين الآخرين . .

وإن كتاب « الأحصاءات الصحية والحيوية » لعام — ١٩٤٩ — ليقدم لنا إيماءة طريفة . .

فنحن نعتبر الأسراف فى الطلاق رذيلة . لأنه يفضى إلى تدمير خلق كبير ، خاصة فى الحالات التي يكون فيها مصحوباً بطفولة يشرد الطلاق أمنها . ويهدد مستقبلها . .

وفى الـكتاب المذكور وهو كتاب إحصاء حكومى . . وجدت نسبة الطلاق بين رجال الدين ، والوعاظ ، والفقهاء ، وخدم المساجد ، والمأذونين ، والمتعبدين « ٤٥ ٪ » .

بينما وجدت بين غيرهم من الأدباء ، وعلماء الفلك ، والطبيعة ، والـكيمياء ، والخبراء ، والزراعيين بنسبة « ٢٥ ٪ » . . ! ! !

هل يمكن أن نعتبر الأخلاق الدينية واجبا أخلاقيا . . ؟ ؟

كلا . ، فهى واجب مطلق ، كما ذكرنا وأوضحنا . والواجب المطلق لا يكون أخلاقيا بحال . إذا هو يحمل من دواعى الشر أضعاف ماذكرناه فى حديثنا عن خواص الأخلاق الدينية . .

وبعد ، فلعل من الخير أن نوكد مرة أخرى أن هجومنا هذا على الأخلاق لايعنى الهجوم على الدين ذاته . .

وإننا لنقول هذا ، صادقين ، لاخائفين فنحن لا نتجاهل تلك المـكارم السامية الرفيعة التى يدعو إليها الدين . . ونجد من المشقة والحرج أمام الحقيقة ، إنـكار ما للدين من دور بليغ فى تمـكين النفس

الانسانية من رحلتها الفوقية الصاعدة .

كيف نصم آذاننا عن الكتاب المقدس وهو يقول : ضمن وصاياه الخلقية .

-- « لا تغرمن الأشرار، ولا تحسد عمال الإثم.فانهم مثل الحشيش، سريعا يقطعون .. ومثل العشب الأخضر ، يذبلون » .. «اسكن الأرض وارع الأمانة ومنفعة الأرض للجميع » . . ؟ ! !

« اطرحوا عنكم الكذب ، وتكلموا بالصدق . . « اغضبوا ، ولا تخطئوا . . لا تغرب الشمس على غيظكم ، . . وكونوا لطفاء بعضكم نحو بعض . شفوقين ، متسامحين » . .

« كونوا رجالا . . تقووا . . لتصر كل أموركم فى محبة » . .

« المحبة تتأنى ، وترفق .. المحبة لا تتفاخر ، ولا تنتفخ ، ولا تقبح ، ولا تحتد ، ولا تظن السوء . ولا تفرح بالأثم . بل تفرح بالحق » . . ؟؟

وأيضا ، كيف نصم السمع عن القرآن وهو يقول :

« ... وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً » .

« يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم، فلا تتناجوا بالإثم والعدوان » . .

« ادفع بالتى هى أحسن ، فأذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىّ حميم » .

« وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان . . . وقولوا للناس حسناً . . .»

« من قتل نفسا بغير نفس ، أو فساد فى الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعا . ومن أحياها . فكأنما أحيا الناس جميعا » . .

« ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحا . إن الله لا يحب كل مختال فخور» . « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا » .

« وإذا قلتم ، فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى » . . « وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » .

« وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » .

« ولا تطيعوا أمر المسرفين . . الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون » . .

« ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط » .

« ولا تطع كل حلاف مهين . هماز ، مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم » . .

« اجتنبوا كثيراً من الظن . إن بعض الظن إثم . .

ولا تجسسوا . . .

ولا يغتب بعضكم بعضاً » .

«ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ،وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » .

« ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » . .

« وكلوا . . واشربوا . . ولا تسرفوا . . إنه لا يحب المسرفين » . .

أفيستطيع إنسان منصف أمام هـذه التوجيهات الخلقية الرفيعة التى عرضنا بعضها من الـكتاب المقدس ومن القرآن . ، أن يقول ليس فى الدين أخلاق . ؟ ؟

لا . . غير أنه يستطيع أن يقول إن الأخلاق الدينية بمفهومها الذى شرحناه ، قد ظلمت الدين وظلمت الأخلاق . وإن الدين وهو ينشد هذه الفضائل ، لا يلزم الناس بوسائل معينة محددة لبلوغها . .

ونحن مصممون على أن النهج الذى تقدمه المدنية اليوم ، هو على الرغم مما يلابسه من أخطاء ، النهج الأفضل بل الأوحد لتعلية السلوك والأخلاق . . فلماذا نحذرها ونخشاها . ؟ ؟ ألا إنه كما وقف رسول الله يعلن ، أنه لبنة فى بيت الفضيلة والخير . .

وكما وقف المسيح من قبله معلنا ، أنه ما جاء لينقض الناموس . بل ليـكمله . .

فأن المدنية تستطيع أن تقول مثل هذا اليوم . . .

أنها لا تهدم . بل تبنى . . إنها تواصل الزحف الطويل نحو اللانهائى . .

وفى موضوع الأخلاق، كما فى سواه نستطيع أن نضع أيدينا فى يدها ونمضى . . .

والآن ، وقبل أن نتحدث عن المدنية كرائد ودليل ، أريد أن أقول لـكم : إن للأخلاق الدينية فى جذر قلوب الرجال وفى أقصى وجداننا المؤمن قاعدة ترتكز عليها . ولا بد لـكى نخلص من وطأتها المرهقة ، أن نعنى قاعدتها ومستقرّها . .

هذه القاعدة تتمثل فى ولائنا العميق للتقاليد ، وفى إيماننا الساذج بالقدر .

إن ولاءنا ذاك . وإيماننا هذا يمهدان طريق نفوسنا لكافة الخرافات التي تأتينا منتحلة اسم الدين وصفته . وفى مقدمتها — خرافة الأخلاق الدينية . .

فلنأكل آلهتنا .. ولنتحرر من القدر . .

هل أتاكم نبأ القوم الذين كانوا يصنعون من الحلوى آلهة يعبدونها ، فاذا جاعوا أكلوها . . ؟ ؟

إن هؤلاء الشجعان قد قاموا بتجربة طيبة لنا . وحبذا لو انتفعنا بها وحاكيناها ، وآلهتنا التي حان قطاف رءوسها هي التقاليد . .

أجل ، لقد صنعناها ، وأقناها ، ثم أذعنا لها فى إخبات منكر ، وتقديس مرذول .

ولطالما أسأل نفسى :

لماذا لا نأكل فى الجفان الذى كان يأكل فيها آباؤنا البعيدون جداً ؟ ؟

لماذا لا ننام فى المزاود التى كانوا ينامون فيها واضعين ساقاً فوق ساق ، كأنهم على عرش عظيم . . ؟ ! ؟

لماذا لا نتمندل بأقدامنا بعد الطعام ، نجفف بها دسم أفواهنا ، وأيدينا ، كما كانوا يفعلون ؟ ؟ .

إن التقاليد التى خلفوها لنا ، دينية واجتماعية ، لتستحق منا عزوفاً كهذا العزوف الذى منحناه لعاداتهم فى المأكل والملبس والحياة .

ترى هل ننادي بهدم العادات والتقاليد هدما تاما . . ؟ ؟ كلا ، فالعادات والتقاليد لا تنال منها على هذه الصورة قوة . ، وليس من

المصلحة أن تبيد . . فهى تمثل ضرورة من ضرورات التقدم ذاته : إذ تقوم بوظيفة « مانعة الاصطدام » . . أجل إنها « الفرامل » التى تأخذ قافلة المدنية عن الاندفاع المميت . .

بيد أنها تنقلب إلى « مانعة تقدم » حين تجاوز حدها . . وهى لا تجاوز حدها بذاتها . بل بأسرافنا نحن فى الولاء لها وتقديسها . .

منذ عام ، وتحت عنوان « ماتت الخرافة . تحيا الحقيقة » كتبت أتساءل : كيف تاهت جماهيرنا فى زحمة الحياة ، وكيف زاغ نهاها . ؟

كيف وقف نموها دهرا طويلا ، وتعطلت ملكاتها حتى كادت تبيد . ؟

كيف كانت تتقبل مساوىء حياتها ، وحكامها ، كأنها الصالحات الباقيات . ؟

كيف ألقت عصاها ، وأناخت كبرياءها حتى سامها كل مفلس ، وحتى تسنمت ظهورها الغربان . ؟

ما الذى أسس قيادها . ، وأحنى ظهرها للهوان والخذلان . ؟

ماذا جعلها تجفل ، والعالم يتواثب . . وتحاذر ، والدنيا تخاطر . . ؟؟

ولماذا جعلت شعارها : حسبى . . وجميع ما حولها ، ومن حولها يطلبون المزيد . . ؟ ؟

وقلت إن هناك كلمة واحدة يتلخص فيها الجواب هي : التزييف ...

تزييف الحقائق . ، تزييف القيم . ، تزييف الحياة . . ! !

وهذا حق ؛ فوراء كثير من الهزائم الماحقة التى شيعت إلى الفناء دولا ، وحضارات . كان التزييف يقود المعركة فى عنفوان وخبث

ولم يبق من تلك الحضارات سوى التى قامت على احترام الحياة، واستشراف حقائقها المضيئة .

وأيضا لم يبق من الدول والجماعات ماهو حى ونابض فى التاريخ سوى تلك التى حصرت اهتمامها فى نشدان الحقيقة ، وربطت وعيها وسلوكها بكل ما حسبته فاضلا وحقا . .

أما بقية الحضارات ، والفلسفات ، والجماعات فقد ذهبت فى سياق النسيان والانقراض . مخلفة العبرة للذين تسول لهم أهواؤهم أن يسكنوا مثل ديارها ، ويركبوا مثل عثارها . .

ترى هل تسطع الحقيقة فى سماء ملبدة بغيوم التقاليد، والبلى، والتعفن . . ؟؟

أبدا . . ومن ثم ، يسطع ضوء آخر صناعى خداع . . هو ضوء التزييف الذى يزجيه حرصنا على التقاليد ، وولاؤنا المطلق لها ولسدنتها النفعيين . .

وإنا لن نستطيع الخلاص من الأخلاق الدينية إلا بالخلاص من وطأة التقاليد وضراوتها. هذه الضراوة التى تسلب ضحاياها نور العقل وجسارة العزم ، وذكاء الفؤاد .

إن التقاليد وثن يقوم على حراسة الخرافة والباطل . . وتعوق تحولنا المحتوم إلى سلوك المدنية وأخلاقها . وهى تستعين على استبقاء سلطانها ونفوذها بمضى المدة أولا . . وبأيهامنا أنها مشيئة الله وقدره المكتوب ثانيا .

وفى هذه المسئلة كما فى غيرها يظهر لنا فارق جلى بين الدين والأخلاق الدينية . . فالأخلاق الدينية تتخذ من التقاليد القديمة قاعدة تستقر فوقها، ومن ثم فهى حريصة على بقائها ملقية فى روع الناس دائما أنها مقدسة

وباقية . . بيد أن الدين يدمدم على التقاليد بسخريته القاتلة فكم تحدث القرآن عن الذين « قالوا إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون» « إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » . . ! !

وأيضا يظهر فارق آخر يزيدنا اقتناعا بأن الأخلاق الدينية ليست هى الدين . وذلك فى مسئلة القدر .

هل هناك قدر يسوقنا دون أن يكون لنا إرادة واختيار . . ؟

إن القدر مشكلة لعبت، ولا تزال تلعب فى حياة الناس دورا كبيرا.. وكل امرىء منا تصادفه تلك الحالة التى نحس فيها كأن قوة غريبة عنا ، تدخلت بيننا وبين محاولات لنا تهيأت أسباب نجاحها ، فتخفق . أو أسباب إخفاقها فتنجح .. وعلى أية حال ؛ فلا يزال هناك قوانين كثيرة لم تكتشف بعد . فاذا كان لهذا الذى نحسه ونسميه قدرا ، قانون يزجيه ، فسيظهر يوما ما . . وحتى يظهر فأن واجبنا أن نمضى فى الحياة كما لو كنا وحدنا. والدفة فى أيدينا . .

لقد سئل رسول الله عليه السلام من أصحابه الذين قالوا له : يا رسول الله . أرأيت أشياء نتداوى بها . هل ترد من قدر الله شيئاً..؟؟

فأجابهم : هى من قدر الله . .

وهذا الحديث لفتة بليغة تشير إلى أن الأسباب المفضية إلى عللها ، والمقدمات السائرة نحو نتائجها هى نفسها ـ قدر الله . . وليس القدر عبثا يلغو ، ولا لغواً يعبث . .

على أن الذى يعنينا هنا ، هو نفى القدر الأخلاقى ..

فنحن نعتقد أن ثمت إلزاما قاهراً إلهياً يحكم علينا بالردى وسوء

المصير . ويدفعنا إلى الرذيلة مكرهين . وهو اعتقاد باطل لا يتواءم مع أبسط مبادىء التفكير . .

صحيح أن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء . .

أليست هذه هي الآية التى نستمد منها عقيدتنا فى القدر الأخلاقى..؟؟

حسن . . ولماذا نهمل آية أخرى تقول :

« فلما زاغوا . . أزاغ الله قلوبهم » ؟ ؟

أى أن الناس هم الذين يخلقون الزيغ ويبدأون به مختارين . . فيسلمهم الله لزيغهم الذى صنعوه . .

إن الدين فى ساعات صحوه ويقظته ، لينفى القدر الأخلاقى نفياً قاطعا . .

هذا هو الكتاب المقدس يقول على لسان الله عز وجل .

— « وضعت أمامك طريقين . طريق الحياة وطريق الموت . . اختر الحياة لكى تحيا » . . !!

« ها أنذا ، قد وضعت أمامكم البركة واللعنة . . فاختاروا البركة لتعيشوا مباركين . وإن اخترتم اللعنة تكونوا ملعونين » . . !!

والقرآن يقول :

« ولكن اختلفوا . فمنهم من آمن . ومنهم من كفر » . « وما ربك بظلام للعبيد » . .

« هذا صراط ربك مستقيما . قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون »

« إن الله لا يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون » . .

« ولا يرضى لعباده الكفر » . .

« ويزيد الله الذين اهتدوا . هدى » . . .

أما الآيات الأخرى مثل :

— « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم » .

« ومن يضلل الله فما له من هاد » . .

« فريقاً هدى ، وفريقاً حق عليهم الضلالة » . . .

كل هذه الآيات ذات مفهوم مجازى لا يعنيه الله وإنما يرمز به إلى استغنائه عن أولئك الذين يعصون تعاليمه ويخرجون عليها وإلا فكيف نتصور إنساناً عاقلا وعادلا فضلا عن إله عظيم كامل ، يربط يديك ورجليك بالسلاسل والحبال ثم يلقيك فى اليم الصاخب ويقول لك ، اسبح يا عبدى . . ! ! !

إن الأخلاق الدينية — لا الدين — هى التى تحاول إقناعنا بأن مصيرنا الأخلاقى مختزن فينا بطريقة إلهية صارمة . .

إذن ، فيم دعوة الرسل والمصلحين . . ؟ ؟ وكيف أمضى للخير . والله — بهذا الزعم — قد كتب علىّ الرذيلة والشر ؟ ؟

إن الله قد كلفنا بفعل الفضيلة والخير . . والتكليف يقتضى قدرة على العمل . .

هذه أبجديات لامراء فيها .. فهل أكون قادرا على العمل . إذا كان الله ذاته سيرغمنى على سلوك معين . . ؟ هل أكون قادرا على الفضيلة إذا كان الله بكل قوته ومشيئته ونفوذه سيرغمنى على الرذيلة . وهل أكون مسئولا أدنى مسئولية عن الرذيلة إذا كان كل دورى فيها أننى أنفذ مشيئة الله وقدرته . . ؟ ؟

إننا نعمل بقدرة من الله فقط ، وليس بأكراه منه . . أى أن الله وهبنا الأمكانيات التى نستطيع أن ننشىء بها لأنفسنا وحدها ، وبأنفسنا وحدها . فضائل الحق ، والخير ، والجمال . .

لقد وهبنا الله عقلا نميز به ، ونعرف الطيب والخبيث . وأعطانا قدرة حرة نأتى بها أعمالنا ، فى الخير وفى الشر على حد سواء .

والذين روجوا لفكرة الأخلاق الدينية عن القدر ، هم أولئك الطغاة الذين مروا بأرضنا وتوسلوا بها على مدى القرون لتخديرنا وبث روح الاستسلام فى عزمنا . . . ! !

أما الله فبرىء من هذا . . إنه يمكن جميع الكائنات من السير فى نطاق قوانينها الطبيعية .. وهو يساعد إرادتنا بتركها حرة ، وليس بتكبيلها .

ثم إن مسائل السلوك تكشفت اليوم بواسطة العلم . ولم نعد نرى فى زواياها شياطين توسوس لنا ، ولا قدراً يضلنا . .

ولعل من الخير أن نستشهد هنا بكلمة لرجل فاضل جمع إلى غزارة علمه ، رحابة إيمانه بالله القدير . ذلكم هو « هادفيلد » يقول :

ـ « نحن لا نزال نتحدث عن الغواية على اعتبار أنها آتية من الخارج ، فى حين أنه لا يمكن أن يكون لأية غواية أقل أثر ما لم تنجذب إليها رغبة من رغباتنا الداخلية التى نقمعها فى العادة . .

« إننا لا نستغوى عن طريق ما فى العالم الخارجى من متع وملذات ومغريات الأبالسة والشياطين ، وإنما نستغوى عن طريق أنفسنا . .

« وقديما لام آدم حواء ، ولامت حواء الشيطان . ، ولكن الله لم ينخدع بهذا . بل أخرجهما من الجنة . . . (٢)

« إنهما لم يحيطا علما بالمبدأ النفسى الداخلى ؟ فليست المسئلة فى علاج المصاب بانحراف خلقى مسألة إزالة غوايته ، بل إزالة رغبته » . .

ألا إنه ليس هناك من يحل محلنا ، لننجو نحن من تبعات أعمالنا . . لا القدر ولا الشياطين . . ولو أن طرح المسئولية من اليسر كما يتصور المتعللون بالقدر ، لفسدت السماوات ، والأرض ، وما فيهن . . فلنواجه أنفسنا فى شجاعة وفهم ، وما دامت الأخلاق الدينية قد اضطربت فى يدها الموازين ولم تعد صالحة لمهمتها كرائد ودليل ، فلنبحث عن دليل سواها.

المدنية ، هى الدليل . .

نخلص مما تقدم إلى أن المدنية هى اليوم دليل الناس إلى المستقبل الذى يوعدون . . لأن الأديان نفسها ، لم يكتب لها الفوز إلا لأنها كانت ـ كما أسلفنا ـ تمثل خطوة تقدمية فى موكب التاريخ . . ولأن المدنية هى التى تستطيع أن تقود عاداتنا ، ومعتقداتنا ، وتقاليدنا إلى أعلى . .

إن المسألة الأخلاقية فى بلادنا محفوفة بالمصاعب . ولا شىء سوى المدنية بتفكيرها الجرىء ، وتجربتها الرشيدة ، واستشرافها الواعى ، يستطيع أن يعاوننا ويمهد لنا الطريق . .

ذلك أنها فى كل نقلة من نقلها ، تمثل الحقيقة الجديدة التى تبرز إلى النور ، داعية الناس ، أن يعيدوا النظر فى قواعد حياتهم وتقاليدهم ، وعرفهم ، ليرتفعوا إلى مستوى الدورة التالية ، من دورات تطورهم « الحلزونى » الصاعد . .

ولقد يبدو لبعضنا أن يسأل : أين أخلاق المدنيةالتى تدعونا إليها . . ؟ ،

إن المدنية اليوم تصطلى بنارها . . والفضيلة فيها قد تحولت إلى عنوان ضخم ، أو إهاب فضفاض لرذائل شتى ، وموبقات كثيرة . .

لقد رفعت المدنية للناس وثناً خبيثاً ، اسمه النجاح . . وإنا لنرى طقوس العبادة والتقرب لهذا الأله المارق . . فهي الخداع ، والنفاق ، والدجل ، والاحتيال ، والكذب ، والغش ، والصلف ، والطغيان . .

وإلى هنا . . أتفق اتفاقاً تاماً مع الذين سيزجون هذا الاعتراض ثم أخالفهم فى أن تكون هذه هى المدنية . . .

إن المدنية توصينا بالنجاح حقاً ولكنها لم تنصبه وثنا ولا إلها . . بل نحن الذين جعلناه كذلك . .

إننا نحمل فى أعماقنا رواسب تدفعنا كارهين إلى البحث عن إله أو قيصر . . والدهر الطويل الذى قضيناه نحن بنى الانسان فى حمى الآلهة الكثيرة التى شهدها تاريخنا ، لا تزال بصماته على وعينا . . وهذه البصمات الدافعة هي المسئولة عن الأوثان المنصوبة فى عصرنا هذا ، سواء كانت النجاح ، أو شيئا آخر معه . .

وعلى أية حال ؛ فمن الخير أن نبدأ بالاتفاق على مفهوم المدنية . .

فما هى . . ، وما مفهومها . . ؟؟

إنها ، حركة التاريخ . . .

— هى خط التقدم المتجه فى وعى نحو مصير أفضل — دائما — للانسان ، وللمادة ، وللحياة . .

وحركة التاريخ تقتضى فى كل مرحلة من مراحلها ، إنشاء أوضاع تتفق وحاجات العصر . ومن ثم ، فعملها المستمر تطوير الماثل إلى المقبل

وتسريح الماضى الذى فقد حقه فى الوجود ، كى يأخذ حقيقى جديد مكانه ويبدأ دورة صاعدة نحو الغرض البعيد للتقدم ، وللتاريخ .

فالمدنية إذن تطور واع إلى أفضل .. وقد تنطوى على نقيض غايتها .. ولكنه انطواء وقتى . . ، ولا تلبث حتى تطرد هذا النقيض خارج ذاتها . وإحساسنا بهذه النقائص التى تشوه بهاء مدنيتنا ، برهان على صدقها وقوتها . . ودليل على عميق أثرها فينا . .

فنحن نبصر أخطاءها مجسمة ضخمة . لأنها تعلمنا ، أن فى الأمكان أبدع مما كان . . عكس الأخلاق الدينية تماما . . ومن ثم ، فأن ما تزجيه فينا من تطلع زاخر إلى هذا الأبدع ، والأكمل . . يجعلنا نتخذ من إبراز العيوب والأخطاء حافزا ملهبا يسوقنا إلى هذا الذى هو أبدع مما كان ، وأبدع مما هو كائن . .

إننا نبصر فى جزع ، تلك الدوامات الهائلة من حوادث عصرنا ، فنخال أن المدنية أخفقت . . وأنها زادت الهوة الفاغرة اتساعا . . والخلاف المشبوب استعارا . . . ! ! ، ولكن لا . فأيغالنا فى السير الصاعد ، وتحليقنا الجرىء فى الفضاء الحر . . والغاية التى تتبدى لنا ، فننطلق صوبها فى شوق لاهب — كل ذلك يحتم وجود بعض المساوئ والأخطاء ، تماما كما يفعل فرس الرهان عندما يشارف الهدف ، فتنتفض عضلاته ، ويتصبب عرقه ، وتعصف حوافره بالأرض التى تكاد تميد تحت وثبه ، فيملأ الأفق رمادا . .

إنه رماد الخطوات التى تهم لتعانق النصر . . وليس تراب الهزيمة والانكسار . . ؟ !

إن أخلاق المدنية هى وحدها ، الأخلاق التى تهيب بالأنسان إلى الصمود ، لا إلى الفناء والتداعى . . وحسبها أنها تبدأ أعمالها باحترامها الكامل لطبيعتنا الأنسانية ، احتراما يمكنها من استثمار كل مواهبنا وإمكانياتنا ، وبعثها جميعا للعمل فى سبيل التفوق والاكتمال .

إنها — مثلا — لا تعرق شهواتنا فى بصاقها المقدس ، كما تفعل الأخلاق الدينية . . بل تعلن ولها رنين كرنين الصدق . أن شهواتنا هى فضائلنا . . . وليس السعى الفاهم للفضيلة أن تطمس شهواتك . بل أن تضيئها . . أجل تضيئها . . !

فإذا شبهنا الإنسان بمصباح ، فشهواته هى الزيت . . وإذا أنت أهرقت زيت المصباح على الأرض ذهب بددا . . وإن احتبسته داخل المصباح ، استطعت أن تحوله إلى ضياء ونور . .

والاحتباس لا يعنى عند المدنية الكبت . بل الشوق . .

وأخلاق المدنية تبدأ بنظرة صادقة واعية للانسان ولطبيعته . وهذه النظرة طردت بعيداً عنها كل ما تميزت به الأخلاق الدينية من خصائص ذكرناها . . إن اعترافها بطبيعة الانسان وفر عليها القتال اليائس ضد هذه الطبيعة .. ولقد وضعت طبيعة الإنسان بين ظواهر الطبيعة الكبرى ، وسألت نفسها :

— هل أستطيع أن أقف حركة الشمس ودوران الأرض ، وانبثاق النبات ، بالمواعظ ، أو بالأرهاب . ؟؟ أبدا . . وإذن فخير ما أصنعه أن أتفاهم مع هذه القوى وأستثمرها قدر المستطاع . . وكذلك طبيعة الإنسان تماماً . . لا بد من التفاهم معها ، واستثمار طاقاتها الحية العارمة .

وهكذا تقرر مبدأ الحرية فى أخلاق المدنية ، يقابله فى الأخلاق الدينية الاستبداد . . .

وأخلاق المدنية لم تبدأ باحترام طبيعة الإنسان وحدها . بل وباحترام الحياة كلها . وإنها لتجعل من أسمى قوانين الأخلاق وأعمق قوانين الحياة شيئا واحدا . . حتى إنها لتكاد تحصر الإنسان الأخلاقى فى الإنسان الحى . وإذا نحن رجعنا البصر إلى نشوء الفضيلة والرذيلة لم يسعنا إلا إزجاء التهنئة لأخلاق المدنية على صدق نظرتها .

فالإنسان الأول لم يكن يعرف الفضيلة . بل كان يعرف الضرورة . . كانت التضحية ، والصبر ، والمخاطرة ، ضرورات لازمة لحفظ حياته ، فمارسها ليبقى . . ولما بدأ أناس ينجحون فى ممارسة هذه الضرورات ، وأناس يخفقون . . بدأ مفهوم الضرورة يتغير . فصار الفوز بهافضيلة ، والأخفاق فيها رذيلة .

فمن قوانين الحياة نشأت قوانين الأخلاق . وقوانين الحياة لا تهبط من اللاحياة . . بل تنبعث انبعاثا تلقائيا من الحياة نفسها .

وإنا لنستطيع بموازنة عابرة بين الفضيلة القادمة من قوانين الحياة ، والفضيلة الموفدة من الأخلاق الدينية . أن نلمس مدى الصدق والأصالة والانسجام مع الحياة فى كل منهما . .

فالفضيلة الحضارية المنسجمة مع قانون الحياة تقول لنا مثلا : لا تسرفوا فى احتساء الخمر . . وهنا نجد كل وجوه المعرفة يزكى هذا التوجيه . .

فعلم الأخلاق يقول : نعم ، لأن الأسراف يفضى إلى هذيان وسخرية وإدمان . .

وعلم الصحة يقول : أجل، لأن الأسراف ضار بكبدك وأمعائك وعافيتك . .

وعلم الاقتصاد يقول : نعم ، لأن الأسراف يمتص ثروتك وينتهب مالك . .

وعلم النفس يقول : نعم ، لأن الأسراف يخلق عادة تستعبدك ، وتعتاق تفوقك على نفسك . .

ولكن عندما تقول لنا الأخلاق الدينية مثلا لا تنظر إلى المرأة ولا تختلط بها ، ففى هذا فتنة وضلال ، نجد تلك الوحدة الهادفة التى يتمثل فيها وعى الحياة وقانونها تتخلف جميعا وتتخذ موقفا مناقضا . .

فعلم النفس ، يقول : انظر فى سمو ، واختلط فى أمانة ، حتى لا تشيع عقد الجنس فى شخصيتك فتلوى زمامها عن الجادة . .

ويقول علم الاجتماع : انظر ، واختلط ، حتى لا يفضى بك انطواؤك وانفصالك إلى انهزام مروع داخل كيانك .

ويقول علم الاقتصاد للمرأة : اختلطى ، واعملى . ولا تبالى ، فأنت نصف الأمة . ونصف إنتاجها متوقف على عملك وجهدك . .

ويقول علم الأحصاء : انظروا ، واختلطوا ، وامرحوا . . فإن نسبة الفضيلة بين الذين يفعلون هذا ، أعلى بكثير من نسبتها بين الذين لا يفعلون . . !!!

وعندما تستمد أخلاق المدنية نهجها من قوانين الحيـاة ، تضع عنا شر آصارنا — الاضطراب العقلى . . ذلك أنها لا تتحكم فى العقل ، ولا ترهقه بوصاية ما . بل تضع الزمام فى يده هو ؛ فيتألق ويسير العقل

الحرّ ، مع الشعور الحر ، مع الأرادة الحرة ، فى موكب ثابت الخطى نحو الفضيلة والـكمال .

وأخلاق المدنية تطالبنا برفع مستوى وجودنا وحياتنا . فهى تقول: لـكى تظفروا بفضائلى ، لا بد أن تعيشوا داخل نطاقى . .

وأنى لأري كل يوم ظاهرة قد تـكون ضئيلة لـكنها تذكرنى بهذا المعنى وتزكيه فى نفسى . . وتستطيع أنت أن تراها . .

هذه « الترامات » التى تملأ شوارع القاهرة . ولا يخلو سلم أحدها من عمال ، وشبان يتسلقونها تسلقاً هروبياً .. كى لا يدفع بضع مليمات.

حاولت كثيراً أن أجد بين المتسلقين المتهربين من أتفه تبعات الأمانة عاملا واحداً ، أو شاباً واحداً ، من الأجانب المقيمين بمصر ، أو المولدين فيها ، فلم أجد أبد .

وإنى لأرجع هـذا إلى شىء واحد ، هو المستوى الحضارى التقدمى الذى يعيش فى نطاقه هؤلاء الناس . فى بيوتهم ، وفى أنفسهم؛ وفى بيئتهم .

وأنا أ كتفى بهذا المثال العادى ، مفضلا أن تضع أنت بجواره مئات الشواهد والأمثلة التى تريك أن كل ارتقاء فى معيشتنا وتفـكيرنا ، يزامله ارتقاء فى سلوكنا وأخلاقنا .

ولقد ازددت اقتناعا بهذا ، عنـد ماحاولت الوصول إلى موازنة خلقية بين المشتغلين بحرف شتى تنتظم أدنى هذه الحرف وأعلاها . .

ولقد يتشبه قوم بقول المتنبى :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب

ولكننا هنا نتحدث عن شيء أعمق، وأسمى من الحسن الذى تحدث عنه المتنبي وتلامذته . .

وليس ما يتراءى لنا فى الريف ، البعيد عن المدنية من فضيلة وخلق سوى سراب عظيم . . .

أين فضائل الريف ، وأخلاقه ؟ ؟

أيمكن أن نعتبر هدوء المقابر وسكينة الموتى غنما يرتجى . .

كلا ، لأن الموتى ، لا يعرفون سوى الهدوء . . وسلامهم ليس فضيلة لأنه سلام أموات كتب عليهم الصمت الطويل . . .

إن السلام الاجتماعى القائم فى ريفنا وقرانا ، لايخفى وراءه فضيلة ما، شان كل سلام صادق ، . ولكنه يخفى عجزا ، وبلادة.. ثم هو يخفى كذلك كل سلوك الانسان البدائى الفج ، بغلظته ، وسذاجته ، وسوء تقديره . .

ولو افترضنا وجود امرأتين ، حرمتا نعمة الأنجاب .. إحداها بدائية متبربرة . والثانية معها من مدنية العقـــل والحياة نصيب . ، فكيف تتصرفان . . ؟ ؟

ستنطوى الأولى على ألم ممض قاتل . وقد تسول لها نفسها خطف رضيع وإلحاقه بنفسها ، كما يحدث فعلا .

وأما الثانية ، فأن أخلاق المدنية تهب لنجدتها ، وتشبع فيها غريزة الأمومة بتوجيهها إلى أبناء المجتمع اللقطاء والتعساء. تحنو عليهم فى مؤسسة اجتماعية ، أو ثقافية ، حتى لا تحس قط بجزع ولا حرمان .

أجل ، إن المدنية لتسارع فتتمم كل نقص يعتور غرائزنا الطبيعية فى حنكة وبراعة .

وبعد :

فلن تصاب أمة برذيلة تنهش روحها ، وتجرف مصيرها مثل رذيلة الانفصال عن التاريخ . .

فاحذروا أن تفعلوها . . ومهما يكن الثمن المبذول لكم ؛ فاحذروا . .

واعلموا أن بربرية الجسد ، والفكر ، والروح ، ضريبة التخلف . والنكوص عن التقدم . .

ومهما تبذلوا من محاولات التفوق والنهوض ؛ فلن تستقيموا على الطريق كسفينة أحسن الربان قيادتها حتى تولوا وجهكم شطر المدنية الأنسانية

ولا تحسبوا هذا عملا هين التبعات . ؛ فأنه ليهيب بكل منا أن يبذل من ذات نفسه أعظم مايطيق . .

وفي بلاد كبلادنا حيث يمجد الناس الألم ، والكذب ، والعجز . . وحيث تغشاهم غواشي الوصولية ، وتحيط بهم مكايد الطامعين ، يجب أن نزداد ارتباطاً بالقافلة ، حتى لاتتخطفنا ذئاب الطريق . .

إن كل تخلف ، انتحار وانقراض . والمدنية لن تحس بخسارة إذا آثرتم أن تنقرضوا . .

وأيضاً . لن تقدروا ، ولو كنتم ملء الأرض ، أن تطمسوا مشعلها المغروس فى عزيمة الزمان . . .

ألا وأن المدنية اليوم لتتهيأ لتثب وثبة قديرة نحو تطور أخلاقى أفضل فلنساعد أنفسنا لنظفر بمساعدتها وعونها .

هيا . . ضعوا أيمانكم فى يمينها ، واعلموا أنكم إذ تمضون معها . إنما تمضون مع عقل التاريخ وإرادته .

للمؤلف ..

١ — من هنا .. نبدأ

٢ — مواطنون .. لا رعايا

٣ — الديمقراطية .. أبدا

٤ — الدين فى خدمة الشعب

٥ — هذا .. او الطوفان

الثمن ١٥ قرشا مصريا

التوزيع خارج القطر
شركة فرج الله



مطبعة مخيمر
٢٩ شارع الجيش ت ٤٧١٩٢